الجزء الثانى

ونستكمل الرحلة...

obeikan.com

obeikan.com

نظرة على ما سبق

عاش سير أنتونى فلو حياته الفلسفية الطويلة، منذ أعلن إلحاده فى سن الخامسة عشرة وحتى قارب التسعين، فى ظل قاعدة سقراط الفلسفية الشهيرة: «**أن نتبع البرهان إلى حيث يقودنا** To follow the Argument wherever it leads».

وقد رأينا كيف قاده البرهان طوال خمس وستين عامًا إلى الإلحاد، ثم لم يتردد الفيلسوف الكبير (فى سن الثمانين) فى أن يغير قناعته تمامًا، ليعلن للعالم أنه قد صار يؤمن أن «هناك إله».

وقد أخبرنا أنتونى فلو أن ما توصل إليه العلم من **حقائق عن الكون** والحياة والإنسان، قد قدم له وللبشر جميعًا البراهين الجازمة على وجود «**المصمم الذكى**». كذلك كان لإعادة النظر فى **أسلوبه فى الاستدلال الفلسفى**، الفضل فيما توصل إليه أخيرًا من قناعات إيمانية.

ونخرج من كتاب أنتونى فلو بأربع حقائق (لا ينبغى أن يمارى فيها أحد) تقود إلى القول بوجود الإله:

أولًا: لقد صار هناك شبه إجماع بين العلماء المتخصصين، على أن **الفضاء (المكان) والزمان والطاقة والمادة قد خرجت جميعها من العدم إلى الوجود** منذ حوالى ١٣,٧ بليون **سنة، وكان ذلك نتيجة لحدث فريد عُرف بالانفجار الكونى الأعظم**.

وإذا كان كل ما نعرف من موجودات يخضع لقانون «كل حادث له سبب The law of Cause and effect» فلا يمكن تفسير نشأة الكون من العدم **المطلق** إلا بالقول بـ موجد أول - لا موجد له، وقادر على إيجاد الموجودات من العدم.

ثانيًا: الحياة ظاهرة تتجاوز التفاعلات الكيميائية والقوانين الفيزيائية، فكيف اكتسبت جزئيات المادة غير الحية، الحياة؟ لا يمكن أن يكون ذلك إلا من خلال **مصدر أعلى يتمتع بالحياة**.

ثالثًا: يتجلى **الذكاء والمنطقية والقصد** فى بنية وسلوك كل ما حولنا، ابتداءً من الكواركات والإلكترونات إلى الدنا DNA فى الكائنات الحية. فلا شك أن موجدها يتمتع بهذه الصفات.

رابعًا: يتمتع الإنسان بملكة فريدة، وهى **العقل**. ولا شك أن المادة العمياء لا يمكن أن تُنشئ عقلًا من تلقاء نفسها، ولن يكون ذلك إلا من خلال خالق مُدرك عليم حكيم.

إن هذه الحقائق ليست بالظواهر التى يمكن أن يكتشف لها العلم تفسيرًا ماديًّا مهمًّا أحرز من تقدم فى المستقبل، لكنها من **المفاهيم الأساسية النهائية** التى يؤكد العلم عجزه أمامها بشكل أكبر كلما تَكَشَّف له المزيد والمزيد من تعقيد هذه الظواهر.

وتشير براهين أنتونى فلو السابقة على الوجود الإلهى، إلى مفهومين شديدى الأهمية:

أولًا: مفهوم البرهان الكونى (برهان التصميم) Cosmic, Design Argument، الذى يعنى أن بنية الكون وقوانينه تدل على وجود المصمم الذكى (الإله الخالق).

ثانيًا: مفهوم المبدأ البشرى Anthropic Principle، الذى يعنى أن الكون قد تم بناؤه على هيئة تجعله ملائمًا تمامًا لنشأة الإنسان.

وبالرغم مما عرضه أنتونى فلو من براهين وجيهة على صحة هذين المفهومين، فما زال الملاحدة يعارضون دلالة هذه البراهين على الوجود الإلهى. لذلك سنعرض فى هذا الجزء من الكتاب هذين المفهومين بمزيد من التفصيل، كما نؤصل الأسس العقلية والفلسفية والعلمية لعلاقة الإنسان بالله، وعلاقة الإنسان بالدين.

* * *

الفصل الأول

البرهان الكونى فى الميزان

«تدل نشأة الكون من عدم، كما تدل بنية الكون وقوانينه على وجود المصمم الذكى»

مفاهيم أساسية تمهيدية

هناك عدد من المفاهيم الأساسية التى ينبغى أن تكون واضحة فى أذهاننا عند دراسة البرهان الكونى.

أولًا: هناك حدود للعلم، ينبغى أن تكون واضحة عند الدارسين، حتى لا يتجاوز العلم حدوده، وفى الوقت نفسه لا يتم تجاوزه. ومن هذه الحدود:

١- يتعامل العلم مع **الأشياء** Things والقوانين التى تحكمها Laws، ولكنه لا يتعامل بتاتًا مع العدم Nothingness الذى سبق الأشياء والقوانين.

٢- يتعامل العلم فقط مع ما يمكن ملاحظته وقياسه Observable and measurable، ولا يملك أى قدرة على التعامل مع الغيب أو مع الإله، أو مع ما قبل الزمان وما خارج المكان.

٣- ينطلق العلم من التصديق ببعض الأساسيات التى نعتبرها بديهيات، ولا نستطيع لها إثباتًا. من هذه **البديهيات**، أننا موجودون، وأن الجزء أصغر من الكل، **وأن كل حدث له سبب** The Law of Cause and Effect.

يمكننا بالتأكيد أن نرفض هذه البديهية الأخيرة، كما فعل ديفيد هيوم، ولكن سيؤدى ذلك حتمًا إلى رفض جميع قوانين العلم التى تنبنى كلها على **العلاقة بين السبب والنتيجة**.

٤- تُعتبر الكونيات من أكثر فروع المعرفة التى يختلط فيها **العلم** Science مع **العلم الزائف** Pseudoscience.

فإذا كان أمام العلم الكثير ليدرسه ويقوله حول حالة الكون الآن، ولديه مجال لوضع النظريات حول حالته فى الماضى، فإن **قضايا مثل البداية الأولى والعدم المطلق وخروج الموجود من العدم، ليس لدى العلم ما يقوله فيها**، وسنرى أن كل ما قيل فيها هو أقرب للخيال العلمى.

ثانيًا: إن من أصعب الأمور دراسة أصل الأشياء، خاصة إذا كان موضوع الدراسة هو الكون.

إننا لا ينبغى أن نقف عند اعتبار أن الانفجار الأعظم هو سبب وجود الكون (كما يكتفى الملاحدة). **فالانفجار الأعظم فى حد ذاته فى حاجة إلى سبب لحدوثه.**

وإذا كان ريتشارد دوكنز قد اعتبر أن قوانين الطبيعة تقف وراء النشأة التلقائية العشوائية للكون والحياة، وشبَّهها بصانع ساعات أعمى لا يدرى ما يفعل، فيمكننا قبول أن الأدوات التى صُنِعت بها الساعة (كالمفك والعدسة) عمياء، لكن لا بد من صانع بصير حكيم يستخدم هذه الآلات. **هكذا شأن الانفجار الأعظم، فهو الآلة العمياء فى يد الصانع البصير الحكيم.**

إن الاكتفاء بالانفجار الأعظم كأصل للكون، ليس إلا **تقديم المشكلة خطوة للأمام**، تمامًا كمن يفسر نشأة الحياة على الأرض بأنها جاءت من كوكب آخر!!.

ثالثًا: الأزلية.. الأبدية.. السرمدية

إذا كان العلماء قد أثبتوا أن الزمن بدأ مع الانفجار الكونى الأعظم، فهل فكرت يومًا، **ماذا كان قبل بداية الزمن؟ وماذا سيكون بعد نهاية الزمن؟**، إنها قضية منطقية فلسفية علمية صعبة، لكنها فى منتهى الأهمية. ومن أجل أن نقربها إلى الأذهان فلنتأمل عالم الأرقام.

فى تعاملنا مع **الأرقام**، نجد أنه يمكن إضافة (١) إلى أى رقم فيزداد بمقدار واحد، ويمكن أن نستمر فى ذلك لبلايين السنين، ولن نصل إلى رقم يمكن أن يُوصف بأنه **الرقم اللانهائى**، الذى لا رقم بعده. أى أنه **لا يمكن الوصول إلى ما لا نهاية، عن طريق إضافة أرقام أو أجزاء إلى بعضها مهما بلغت.**

إن تعريف اللامتناهى هو: ما لا يمكن عَدُّه أو إحصاؤه. إذن، فما يمكن عده من الأرقام أو الأجزاء ليس هو اللانهائى.

إن الزمن كالأرقام، يمكن عده وقياسه بالثوانى والدقائق والساعات....

لذلك فإننا **لن نصل إلى اللانهاية فى المستقبل بإضافة سنوات إلى الوقت الحالى. وبالمثل لن نصل إلى اللانهاية فى الماضى بحذف سنوات من الوقت الحالى**، أى أننا **مهما أغرقنا فى المستقبل أو فى القِدَم فلن نصل إلى «ما لا نهاية».**

أى أننا مهما حذفنا من السنوات فلن نصل إلى «**الأزل**»، الذى هو **ما قبل بداية الزمن**. كذلك مهما أضفنا من السنوات فلن نصل إلى «**الأبدية**»، فالأبد هو **ما بعد نهاية الزمن**. وبالتأكيد لن نصل إلى «**السرمدية** Eternity» التى هى **الأزلية والأبدية معًا**. وقد عبر الفلاسفة الغربيون عن ذلك بقولهم: «Eternity is not forever» أى «إن الإغراق فى الزمن، يختلف عن السرمدية، إن السرمدية هى ما قبل وما بعد الزمن، **إنها خارج الزمن**».

وبذلك يصبح **السؤال عن مقدار الزمن قبل بداية الكون وبعد نهايته، سؤالًا غير ذى معنى**. إنه تمامًا كالسؤال عن **ماذا يوجد شمال القطب الشمالى؟** لا شك أننا لن نجد إجابة، إذ إن القطب الشمالى هو بداية الشمال على كوكب الأرض.

* * *

البرهان الكونى فى الميزان

بعد أن **عجز علماء الكون عن طرح أى تفسير مادى معقول لحدوث الانفجار الكونى الأعظم**، طرح العديد من الفلاسفة والعلماء ما صار يُعرف «**بالبرهان الكونى أو برهان التصميم**»، الذى يعتبر من أكثر البراهين (العلمية / المنطقية) دلالة على **وجود إله خالق للكون.**

ويتكون هذا البرهان من **مقدمتين واستنتاج**:

(أ) كل موجود له بداية، لا بد له من مصدر سابق له (موجِد).

(ب) الكون له بداية.

إذن: الكون لا بد له من مصدر سابق له (موجِد).

وبالرغم من سلاسة ووجاهة هذا الاستنتاج المنطقى، واعتماده على أرضية صلبة من العلم والفلسفة، فما زال هناك من يحاولون التهرب من القول بمصمم ذكى قديم قادر، خلق كوننا هذا.

ونظرًا لسلامة الاستنتاج، رَكَّزَ الملحدون على مقدمتى البرهان (أ، ب)، **وطرحوا العديد من الاعتراضات عليهما**، ويمكن إجمال هذه الاعتراضات فى ثمانى نقاط:

أولًا: كوننا قديم ولا بداية له (أزلى)

كان هذا الاعتراض فى الماضى أقوى الحجج ضد البرهان الكونى، حتى أثبت العلم (وأقر الملاحدة) بأن لكوننا بداية.

ثانيًا: كوننا له بداية لكنه لا يحتاج إلى موجد:

للخروج من المأزق السابق، لجأ المنكرون لقيام الإله بخلق الكون، إلى **طرح نظريات تجمع بين أن لكوننا بداية، وبين أنه لا يحتاج إلى موجد أول**.

أهم هذه النظريات، **نظرية «الكون المتذبذب** Oscillating universe» التى تشبه نظرية الانفجار الأعظم Big bang، لكنها ترى أن الكون نشأ من **«انفجار عظيم»** أعقبه **«انسحاق عظيم»** أعاد الكون إلى حالة الـمُفرَدة، ثم أعقب ذلك انفجار عظيم آخر، ثم انسحاق عظيم، وهكذا إلى ما لا نهاية فى القدم، أى أن هذا التذبذب أزلى.

وهـذا الافـتراض **مرفـوض فى معظـم الأوسـاط العلـمية**[1]. بـل إن العـالمين

(١) هناك ثلاثة أسباب رئيسية لرفض العلماء لهذه النظرية:

١- أثبتت الفيزياء أن كوننا هذا بدأ بالانفجار الأعظم، وسيعقبه انسحاق عظيم، ولكن ليس هناك دليل علمى واحد على أن الانسحاق سيعقبه انفجار.

٢- كذلك لا يوجد دليل علمى واحد على أن كوننا هذا قد سبقه كون منسحق، ومن ثَمَّ لا يزيد الأمر عن كونه افتراضًا بدون دليل.

٣- فى نموذج الكون المتذبذب، تشير قوانين الديناميكا الحرارية إلى أن زمن حدوث الدورة القادمة ينبغى أن يكون أطول من الدورة الحالية. وإذا عدنا إلى الوراء وعكسنا الحسابات، فسنجد ان كل دورة سابقة كانت أقصر من

الروسيين[1] اللذين قدما هذه النظرية عام ١٩٦٣، قد رجعا عنها بعد سبع سنوات فقط من طرحها. ومع ذلك ما زال المجادلون يستشهدون بها.

ويشبه مفهومَ الكون المتذبذب مفهومٌ آخر، يرى أن **المُفردة التى بدأ بها الانفجار الكونى الأعظم يمكن أن تكون أزلية**، ومن ثَمَّ يكون للانفجار الأعظم بداية، لكنه لا يحتاج إلى مُوجد. إن هذا الافتراض يفتقر (كسابقه) إلى الدليل العلمى.

ثالثًا: هناك كون هائل «أزلى» أنتج العديد من الأكوان، منها كوننا الحالى:

يُعتَبَر هذا الاعتراض امتدادًا للاعتراض السابق، مع اختلاف واحد، وهو أنه نسب الأزلية إلى «**كون أُم**».

لا شك أن الملاحدة سيعجزون عن تفسير أزلية الكون الأم، كما عجزوا عن تفسير أزلية كوننا الحالى.

ويؤكد عالم الكونيات البارز بيبلز P.J.E. Peebles أن كل هذه الأطروحات (أولًا وثانيًا وثالثًا) إنما هى افتراضات، وليست نظريات علمية تقف وراءها حقائق أو معلومات أو حتى ملاحظات مقبولة. إنها أقرب إلى الخيال العلمى منها إلى العلم[2].

- التالية لها، حتى نصل إلى دورة زمانها صفر، وستكون هذه هى بداية دورات التذبذب، أى أنه **لا يمكن أن يكون التذبذب أزليًا**.

(١) العالمان هما Evgenii Lifshitz & Isaac Khalatnikov.

(٢) رَتَّب عالم الكونيات البارز بيبلز P.J.E. Peebles (مجلة العلوم الأمريكية Scientific American، عدد فبراير، ٢٠٠٥) النظريات الخاصة بنشأة الكون، بناءً على مدى موضوعيتها[1]. وقد أعطى بيبلز النظريات القائلة بنشوء الكون من حالة أكثر كثافة وأشد سخونة (وأهمها نظرية الانفجار الكونى الأكبر) تقدير +A. أما باقى النظريات الأخرى فقد أعطاها تقديرات -A، +B، -B، غير مقبولة.

وينطلق ترتيب بيبلز من تقييمه وترتيبه للأدلة العلمية المختلفة إلى أربعة مستويات:

أولًا: حقائق (Facts) لا يتطرق إليها شك.

ثانيًا: افتراضات منطقية Reasonable Hypotheses تقف وراءها أدلة مقبولة.

ثالثًا: افتراضات معقولة Plausible Speculations لا تؤيدها أدلة.

رابعًا: افتراضات مرفوضة Inplausible Speculations لا تؤيدها أدلة، وتتعارض مع الحقائق التى ثبتت لدينا.

رابعًا: ليس ضروريًّا أن كلَّ موجود له بداية، لا بد له من موجد أو مصدر سابق عليه!

بعد أن عجز الملحدون عن التوصل إلى أصل مادى أزلى لكوننا، لم يعد أمامهم إلا القول بأن **الكون يمكن أن ينشأ من لا شيء دون سبب!!** حتى لقد أصبح هذا القول العجيب أكثر الاعتراضات التى يطرحها الماديون فى العصر الحديث.

ولكن، **ألا يمكن حقًّا أن ينشأ شيء من لا شيء دون سبب؟**

يرى المؤمنون بوجود المصمم الذكى **أن ذلك مستحيل**، للأسباب الثلاثة التالية:

(١) هناك إدراك عند البشر (عبر التاريخ وعبر الجغرافيا) ببداهة فكرة «أن كل حدث له سبب»، وهو ما يُسمى بقانون «العلاقة بين الحدث والمسبِب law of Cause and effect».

إن القول بكون حادث (له بداية) دون مُحدِث ودون مصدر سابق عليه، سيكون **خبرة البشرية الأولى** فى هذا الشأن !!

(٢) إن **العدم المطلق** «**اللاشيء**» لا يملك «**موارد**» ولا «**دافعًا**» لإنتاج شيء ما، ولو افترضنا حدوث ذلك فلن يكون عدمًا مطلقًا.

(٣) مشكلة الملاحدة الكبرى، هى تصورهم أن القول «بإله خالق» يتعارض مع «المنهج العلمى». ولكن **ألا يتعارض خروج شيء من لا شيء دون سبب مع المنهج العلمى؟** إن ذلك **يدمر العلم** الذى يقوم على البحث عن العلاقة بين الحَدَث والمسبِب. بل إن القول بإن هذا الشيء حدث فقط، **يقضى على التفكير والتحليل المنطقى**.

وتُعتبر **نظرية تذبذب الفراغ الكمومى** Quantum Vacuum Fluctuations، أشهر الافتراضات التى طرحها الفيزيائيون الملحدون، **لتفسير نشأة موجود له بداية، دون أن يكون له مصدر**، وقد ثبت خطأ هذه النظرية[1].

(١) ترى هذه التخمينات، أنه يمكن للجسيمات تحت الذرية أن تنشأ وتختفى تلقائيًّا فى الفراغ (أطلقوا عليه اسم الفراغ الكمومى Quantum Vacuum، نسبة إلى نظرية الكم – الكوانتم). وبالمثل فإن **كوننا يمكن أن ينشأ تلقائيًّا كذلك فى** الفراغ Vacuum.

يخبرنا عالم الفيزياء الكبير «بول ديفيز» Paul Davies أن تَشَكُّل الجسيمات فى الفراغ الكمومى لا يعنى خلق المادة من لا شيء، ولكن يعنى **تحوُّل طاقة موجودة بالفعل فى هذا الفراغ إلى مادة، أى أن الفراغ هنا ليس عدمًا مطلقًا. فمن أين جاءت هذه الطاقة؟** ومن ثم فإن هذه الافتراضات مرفوضة تمامًا.

كذلك طرح **ستيفن هوكنج فى كتابه الأشهر «تاريخ موجز للزمان»، نموذجًا لكيفية نشأة الكون من العدم دون الحاجة إلى موجد**[1].

ولا شك أن ستيفن هوكنج هو رجل العصر لعبقريته ولأسباب أخرى، لكن ذلك لم يمنع نجاح الفيزيائيين النابهين الآخرين فى تفنيد نموذجه، إن اعتراضهم لم يكن على نظرته الرياضية، ولكن على **التضارب المنطقى داخل هذا النموذج**.

خامسًا: إذا كان كل موجود له بداية،له مسبب.

إذن ينبغى أن يكون للموجد الأول (أو الإله) مسبب.

للرد على هذا القول للملاحدة نلفت النظر إلى أننا نقول: إن **كل موجود له بداية** له مسبب، بينما الإله ليس له بداية.

لذلك فإن **بعض الملاحدة يشاركون المؤمنين الرأى**، بأنهم إذا سَلَّموا - جدلًا - بوجود الموجد الأول، فبديهى أن يكون سرمديًّا (لا أول له، ولا آخر له)، وألا يكون له مُوجد.

كذلك نعرض بشكل مفصل دفعًا لهذا الاعتراض فى الفصل الثامن تحت عنوان «إلحاد فى أسوأ حالاته».

---

(١) يُعرف بنموذج هارتل - هوكنج، أو النموذج الكمومى للكون. ويعتمد هذا النموذج على مفهوم يطرحه هوكنج لأول مرة، وهو مفهوم «الزمن التخيلى Imaginary Time»، وهو تطبيق لمفهوم الرقم التخيلى.

فإذا بحثنا عن الجذر التربيعى لرقم مثل (-٤) فلن نجد رقمًا حقيقيًّا (إذ إن -٢×-٢ = +٤). لذلك قام هوكنج بوضع رمز (x) ليشير إلى هذا الرقم الذى لا وجود له، ووضع x فى معادلاته الخاصة بحساب الزمن، فنتج زمن تخيلى، عندما استخدمه هوكنج فى حساباته أزال الحاجة إلى موجد أول.

يخبرنا سير هيربرت دِنجل Sir Herbert Dingle رئيس الجمعية الفلكية الملكية بإنجلترا، أنه إذا كان مفهوم الأرقام التخيلية صحيحًا من الناحية الرياضية، فلا اعتبار له من الناحية التطبيقية، ويستدل على ذلك بمثال يعرفه كل التلاميذ الدارسين للرياضيات:

فإذا كان عدد الرجال المطلوبين لوظيفة ما هو (x)، وكانت x فى بعض المعادلات موجبة، سالبة، عددًا صحيحًا، كسرًا، عددًا تخيليًّا،عددًا مركبًا، صفرًا، لا نهاية، أو أى شكل آخر من الأشكال التى ولَّدتها عقول الرياضيين، فإننا بالتأكيد سنعتبر x (عدد الموظفين المطلوبين) رقمًا صحيحًا موجبًا، ونرفض باقى الاحتمالات.

إن الرياضيات لا تستطيع وحدها الاختيار بين البدائل فى المثال السابق، وسنعتمد على المنطق، والخبرة، والتجربة.

ومن ثَمَّ، **فإن الزمن التخيلى الذى نشأ عن وضع الأرقام التخيلية فى معدلات هوكنج، لا اعتبار له**، وسينقلب إلى زمن حقيقى إذا استبدل الرقم التخيلى برقم حقيقى، عندها ستظهر الحاجة إلى «المسبب الأول».

سادسًا: إذا كان لا بد من مُوجد أول، هل ضرورى أن يكون إلهًا؟

نجيب على هذا التساؤل الاستنكارى، بأن نعرض الصفات التى ينبغى أن تتوافر فى الموجد الأول، فكحد أدنى، **ينبغى للموجد الأول أن يكون:**

١- **واجب الوجود The Necessary Being**: إذ إن تصور عدم وجوده وهو الموجد الأول، سيتبعه ألا يكون لنا وللكون وجود.

٢- **وجوده لا يحتاج لسبب Uncaused**: وهذا أمر بديهى، فلا يمكن أن نتدرج فى مصدر للموجودات إلى ما لا نهاية[1]. كذلك لا يمكن لخالق قانون السببية أن يخضع له.

٣- **أزليًا Eternal**: إذا كان الزمان قد خُلق مع الانفجار الأعظم، فإن ذلك يتطلب أن يكون الموجد الأول الذى خلق الزمان، خارج الزمان (أزليًا - لا بداية له).

٤- **غير مادى، ولا يحده مكان**: خُلِقَت المادة والمكان (مع خلق الزمان) عند حدوث الانفجار الأعظم، ومن ثَمَّ لا يمكن أن يكون السبب الأول مُحتَوًى فى المادة والمكان، وهو خالقهما.

٥- **مطلق القدرة Omnipotent**: إذا كان الموجد الأول قادرًا على الخلق من عدم، فلا شك أنه قادر على فعل أى شىء.

٦- **مطلق المعرفة Omniscint**: لا بد أن يكون الخالق للوجود وما فيه على معرفة تامة بموجوداته، وبما يحدث فى الكون.

٧- **قادرًا على اتخاذ القرارات Decision Maker**: إذا كان الخالق الموجود منذ الأزل قد بدأ خلق الكون منذ ١٣,٧ بليون سنة، فلماذا بدأ الخلق فى هذا التوقيت؟ لا شك أنه اتخذ قرارًا بهذا.

وإذا كان الملاحدة يقولون إن بداية خلق الكون كانت عملية تلقائية لظروف جَدَّت، **فعليهم أن يفسروا لنا كيف تَجِدُّ ظروف فى العدم المطلق**، ولِمَ جَدَّت الظروف منذ ١٣,٧ مليار سنة فقط بعد أن تُرِكَ العدمُ أزليًا (**برهان فترة الترك**)؟ ومما يزيد من خطأ رأى الملاحدة أن أى ظروف تَجِدّ على أمر أزلى ستُحدث التغير منذ الأزل (إذ إن الأزل - ١٣,٧ مليار سنة = الأزل)، وهذا يعنى أن الكون، بمنطقهم، ينبغى أن يكون أزليًا. وليس ذلك ما أثبته العلم.

(١) يطلق علماء المنطق على هذا المعنى اصطلاح (التسلسل يمتنع).

إن وجود كون له بداية، نشأ فى توقيت معين، بعد أن كان هناك عدم أزلى، لا يمكن أن يحدث تلقائيًا، ويقتضى وجود «**عامل مُرَجِّح**» **يقطع فترة الترك**، ويُخرج الكون إلى الوجود فى هذا التوقيت.

إن هذا هو **الحد الأدنى من الصفات التى ينبغى أن تتوافر فى موجد الكون**، ألا ترى أن مثل هذه الصفات **لا تتوافر إلا فى الإله الخالق، الحكيم، القادر، القديم الأزلى**.

حسنًا، **لماذا يكون إلـهًا واحدًا وليس عدة آلهة**؟ هكذا يعلق بعض الملحدين. يستوى تمامًا فى نفى الإلحاد أن يكون الخالق إلـهًا واحدًا أو ألف إله. لكن القاعدة المنطقية تقول بأنه **إذا كان يمكن تفسير الأمر بشكل أبسط، فلا ينبغى أن نلجأ إلى التفسير الأعقد**. فلِمَ نرفض القول بإله واحد، ونلجأ إلى القول بآلهة متعددة، ينشأ عنها **عبث وتداخل** يتدارسه المؤمنون بالإله الواحد؟!

سابعًا: إله سد الثغرات God Of The Gaps

يرى الملحدون أن القول بوجود الإله الخالق للكون، كنتيجة أخيرة لمقدمتى البرهان الكونى، إنما هو استغلال خاطئ لعدم استطاعة العلماء (حتى الآن) الإجابة عن جميع التساؤلات. ويؤكد الملحدون وجهة نظرهم **بأن العلم تتكشف أمامه يومًا بعد يوم تفسيرات لأمور كان يعتبرها الناس من المهام الإلهية**، مثلما اُكتشفت الجراثيم كمسببات للأمراض الـمُعدِية. ومن ثَمَّ لا ينبغى كلما ظهرت ثغرة لا يملؤها العلم، أن نهرول إلى **سدها ومَلْئها بالقول بالقدرة الإلهية**.

ولندفع هذا الادعاء، نراجع الأدلة الرئيسية التى يقوم عليها البرهان الكونى، لنرى إن كان يمكن للعلم أن يجد منها مخرجًا فى المستقبل، أم أنها **حقائق نهائية مطلقة**. هل يمكن أن يكتشف العلم فى المستقبل:

١- أن الكون لا بداية له، وأنه موجود منذ الأزل؟

٢- أن الكون الذى له بداية يمكن أن ينشأ ذاتيًا من عدم مطلق؟

٣- أن السبب الأول لوجود الكون يمكن أن يكون سببًا ماديًا؟

لا شك أنه قد ظهر أثناء مناقشة الاعتراضات السبعة السابقة، أن هذه النقاط الثلاثة أمور ثابتة علميًا وفلسفيًا، وليست عُرضة للنفى والتغير. أى **أن القول بإله مصمم ذكى ليس مجرد «سد ثغرات»، أو حلًا مؤقتًا لعجزنا عن تفسير بعض الأمور**.

لذلك نؤكد فى النهاية **أن رفضنا للوقوف عند التفسيرات المادية ليس مبنيًّا على نقص فى المعرفة العلمية (جهل)، ولكنه رفض عن علم**[1].

القارئ الكريم...

يرى البعض أن الاعتراضات التى وُجهت إلى البرهان الكونى تُعتبر دليلًا على أن هذا البرهان ملىء بنقاط الضعف، حتى صار عندهم القول بأن أى تفسير مادى لنشأة الكون يُعتبر أكثر قبولًا من القول بوجود إله خالق!

إن العكس هو الصحيح، فكل ما طُرح من اعتراضات، تم دحضه بالبراهين العلمية والفلسفية، بل **لقد أظهر هذا الهجوم جوانب قوة لم تكن ظاهرة فى البرهان الكونى**.

عليك بعد هذا العرض أن تتأمل البرهان الكونى، لترى إن كان صحيحًا مُلزِمًا، أم غير صحيح وغير ملزم، مع الأخذ فى الاعتبار أن رفض الإقرار بوجود الإله الخالق يتطلب من الناحية العلمية قبول:

- أن الكون قفز إلى الوجود من العدم بدون مسبب.
- أن النتيجة يمكن أن تكون أكبر من السبب.
- أن النظام يخرج تلقائيًّا من الفوضى.
- أن قوانين الطبيعة وضعت نفسها.
- أن الحياة تنشأ تلقائيًّا من المادة غير الحية.

لقد صرت الآن (عزيزى القارئ) فى مفترق طرق، فإما أن تُغمض عقلك ليقبل هذه الافتراضات المستحيلة، كما يفعل الماديون، وإما أن تنظر إلى الوجود باعتباره كونًا مفتوحًا يتلقى التوجيه من عالم الغيب. **لا مفر الآن من أن تأخذ موقفًا تجاه أخطر قضية فى حياة الإنسان، قضية الوجود الإلهى.**

---

(١) ولنبين معنى الرفض عن علم، نضرب مثالًا، فنقول: إذا توصلنا بعد دراسة شاملة لبنية الجسم البشرى ووظائفه، إلى أن الإنسان لا يستطيع الطيران، إلا إذا استخدم آلة تُعينه على ذلك، هل يمكن أن يأتى مُعترض ليقول لنا: لا.. ربما يكتشف العلم بعد فترة إمكانية أن يطير الإنسان دون الاستعانة بآلة. هل رفضنا لهذا القول راجع إلى نقص المعرفة العلمية (جهل) أم إنه رفض عن علم؟.

الفصل الثانى

المبدأ البشرى فى الميزان

«لقد تم بناء الكون على هيئة تجعله
ملائمًا تمامًا لنشأة الإنسان»

يرى العلماء والفلاسفة الماديون أن بداية نشأة الكون كانت تلقائية، وأن انتقاله من مرحلة إلى مرحلة فى هذه النشأة كان يتم بعشوائية، أو تبعًا لما تفرضه قوانين الطبيعة (على أفضل تقدير). لذلك يعتبرون **القول بأى قصد وراء خلق الكون (وهو ما يُعرف بالغائية Teleology) خروجًا صريحًا على العلم.**

بينما يرى **المؤمنون بمفهوم التصميم الذكى** أن ما فى بنية الكون من توافق مذهل مع احتياجات الإنسان، دليل على **الغائية Teleology**، التى تعنى أن **الإله قد صمم الكون على هذه الهيئة ليكون مناسبًا لنشأة الحياة بصفة عامة، ونشأة الإنسان بصفة خاصة. ويُعرف هذا المفهوم بالمبدأ البشرى Anthropic Principle.**

وقد عَبَّر كلٌّ من جون جريبين John Gribbin ومارتن ريز Martin Rees[1] عن هذا المعنى بشكل دقيق بقولهما: «يبدو أن الكون قد تم تفصيله على مقاس الإنسان[2] Tailor – made for man». كما عبَّر فريمان ديسون Freeman Dyson عن المعنى نفسه بقوله:

(١) التعريف بعلماء الفيزياء المذكورين فى هذا الفصل، موجود فى هوامش الفصل السابع من الجزء الأول.
(٢) جاء ذلك فى كتابهم «مادة الكون» The stuff of the universe.

«**يبدو أن الكون كان يعلم أننا قادمون**». وكلما زادت معارفنا عن نشأة الكون وبنيته، تَكَشَّف لنا بشكل أكبر مدى مواءمة هذه النشأة والبنية، وكذلك قوانين الكون الفيزيائية، لبزوغ الحياة.

أما **المعارضون لمفهوم التصميم الذكى**، فيرون أن مجرد وجودنا فى الكون دليل بديهى على أن بنيته مناسبة لنشأة الحياة ونشأتنا، وإلا لما نشأنا. ومن ثَمَّ لا تُعتبر ملاءمة الكون لنشأتنا دليلًا على أى أمر غيبى. لذلك يرفض جون بارو John Barrow فكرة أن الكون قد تم تفصيله على مقاس الإنسان، ويرى بدلًا من ذلك أن قوانين الطبيعة قد فَصَّلت الإنسان ليتناسب مع بنية الكون[1].

ولا أرى أن مفهوم جون بارو يتعارض مع مفهوم التصميم الذكى والمبدأ الإنسانى. **فالإله الخالق يمكن أن يستخدم قوانين الطبيعة فى تشكيل الخلق على الهيئة التى يريدها**.

* * *

إعداد الكون لنشأة الإنسان

فى كتاب «ستة أرقام فقط Just Six Numbers»، يحدد سير مارتن ريز Sir Martin Rees (عالم الكونيات الإنجليزى الكبير) ستة قيم عددية، مسئولة عن صفات الكون التى تناسب تمامًا نشأة الحياة واستمراريتها. ويوضح ريز أن أدنى تَغَيُّر فى هذه القيم يجعل من المستحيل وجود الكون بصفاته الحالية.

أولًا: يُعتبر **تمدد الكون** عقب الانفجار الأعظم (وحتى الآن) المحرك الرئيسى لمراحل نشأته، إذ أدى ذلك إلى تَبَرُّد الكون وما تبعه من أحداث.

فإذا كانت القوى التى تحكم تمدد الكون أضعف من مقدارها الحالى، لانهدم الكون على نفسه، وإذا كانت أقوى، لـمَـا نشأت المجرات والنجوم. ويعرف هذا المقدار **بالحد الحرج**.

ثانيًا: نشأت المجرات نتيجة لزيادة **كثافة مادة الكون فى بعض المناطق** عن باقى أماكن الكون الوليد بمقدار ١ : ١٠٠,٠٠٠، مما وَفَّر المادة المطلوبة لتكوين المجرات فى هذه المناطق.

ولو قَلَّت هذه النسبة عن هذا المقدار، لظل الكون على حالته الغازية، ولو زادت لصارت مادة الكون أكثر كثافة، ولَتَحَوَّلت إلى ثقوب سوداء تبتلع مادة الكون كلها.

(١) طرح جون بارو هذا الفهوم فى كتابه «الكون البديع» The Artful universe، طبع عام ١٩٩٥.

ثالثًا: إذا كان **مقدار قوة الجاذبية** التى تربط بين أجرام الكون أكبر من قدرها الحالى، لانهدم الكون على نفسه قبل أن تنشأ الحياة، وإن كان أضعف مما هى عليه الآن، لـمـا تكونت المجرات والنجوم. وقد تم ضبط قوة الجاذبية بدقة تتجاوز ١ : ١٠٠,٠٠٠.

رابعًا: مقدار الطاقة المتاحة للربط بين مكونات نواة ذرات الهليوم داخل النجوم (**القوة النووية القوية**):

إن مصدر الطاقة التى تصدرها النجوم (كالشمس) هو الاندماج النووى بين ذرات الهيدروجين. ويتم استغلال ٠,٧٪ من هذه الطاقة للربط بين مكونات نواة ذرة الهليوم الناتجة عن هذا الاندماج. وإذا كان المتاح من كتلة ذرات الهيدروجين لإنتاج هذه الطاقة هو ٠,٦٪ أو أقل، لـمـا أمكن للشمس أن تشع حرارتها وضوءها. وإذا بلغت النسبة ٠,٨٪ أو أكثر، لنفد الهيدروجين الموجود فى الكون والذى هو مصدر طاقته.

باختصار، **إذا كانت النسبة ٠,٠٠٦ بدلًا من ٠,٠٠٧ لن يوجد فى الكون سوى الهيدروجين، ولو أصبحت ٠,٠٠٨ لن يوجد أى هيدروجين.**

خامسًا: **تبلغ الروابط الكهربائية Electrical Bonds** (الرابطة الأيونية والرابطة التساهمية) التى تمسك الذرات بعضها ببعض لتكوين الجزيئات مقدارًا أكبر كثيرًا من **قوى الجاذبية بينها** Gravitational force.

إن أى خلل فى النسبة بين القوتين، يقلل بشكل كبير من عمر الكون، ويُقلص حجم أكبر الكائنات الحية إلى حجم الحشرات، أو يجعلها تتضخم وتنتفخ إلى حد الانفجار.

سادسًا: إن **بنية الكون الفراغية ثلاثية الأبعاد**، هى الملائمة لنشأة الحياة، إذ إن كونًا ثنائى الأبعاد أو رباعى الأبعاد ما كان يسمح بأن تنشأ الحياة فيه.

وقد أكد مارتن ريز على أمر شديد الأهمية، وهو **أن قيم هذه الثوابت الستة لا علاقة فى تحديدها ببعضها البعض**. ومن ثَمَّ لا يمكن الادعاء بأن وجود أحد هذه الثوابت بالصدفة، قد أدى إلى وجود الثوابت الأخرى بقيمها المناسبة.

بالإضافة إلى هذه الثوابت التى طرحها ريز، طرح باحثون آخرون **عشرات الثوابت الأخرى، التى لولاها ما كانت نشأة الكون والحياة أمرًا ممكنًا**، ومنها:

أولًا: فى اللحظات الأولى عقب الانفجار الكونى الأعظم، تَحَوَّل جزء من طاقة الكون الوليد

إلى جسيمات المادة (الكواركات والإلكترونات) ومضادات جسيمات المادة (مضادات الكواركات ومضادات الإلكترونات)، وقد أدى التقاء جسيمات المادة مع مضاداتها إلى فناء كليهما.

وقد كانت جسيمات المادة تزيد على مضاداتها بمقدار جزء إلى ثلاثين مليون جزء، وقد نتج عن هذه **الزيادة الضئيلة فى الكواركات والإلكترونات** تَوَفُّر مقدار من المادة ملائم تمامًا لنشأة الكون.

ثانيًا: إذا كان **مقدار شحنة الإلكترونات** (التى تدور حول نويات الذرات) مغايرًا لما هى عليه الآن، لـمَـا حدثت الاندماجات النووية بين ذرات الهيدروجين فى النجوم (ومنها الشمس)، و لـمَـا انبعثت الطاقة من هذه النجوم.

ثالثًا: تبلغ **كتلة البروتون** ١٨٣٦ ضعف **كتلة الإلكترون**، ولو تغيرت هذه النسبة لـمَـا نشأت ذرات وجزيئات المادة.

رابعًا: لقد كان تَكَوُّن **عنصر الكربون** لا غنى عنه لنشأة الحياة. فالكربون يتميز **بليونة الروابط بين ذراته**، مما يسمح بالاتحاد مع ذرات الأكسجين والهيدروجين والنيتروجين والكبريت لتكوين مركبات المادة الحية العضوية كالبروتينات والأحماض النووية.

وإذا قارَنَّا الكربون بأقرب العناصر إليه، وهو السليكون، وجدنا أن الأخير لا يستطيع تكوين أى مركبات عضوية، وذلك لشدة الروابط بين ذراته.

خامسًا: حدد جون بارو John Barrow **خمسة وعشرين ثابتًا أساسيًّا**، تعتمد عليها بنية الكون (كسرعة الضوء – وثابت بلانك – والصفر الحرارى الـمُطْلق...)، وأشار إلى أن **أى خلل فى قيمة أحد هذه الثوابت ما كان ليسمح باستقرار الكون أو نشأة الحياة**.

هل ما زال هناك شك فى أن الكون قد تم تفصيله على مقاس الإنسان؟! إذن فلننظر إلى بيتنا.

التوازن المدهش الملائم للحياة فى كوكب الأرض

يبلغ قطر كوكب الأرض حوالى ٦٤٠٠ كم، ومحيطها حوالى ٤٠٠٠٠ كم. ويتكون لب الأرض من كتلة من الحديد، تحولت إلى كرة صلبة بالرغم من الحرارة الهائلة، بسبب تعرضها للضغط الشديد. ويحيط بهذه الكرة طبقة من الحديد المنصهر.

ويبلغ سمك القشرة الأرضية حوالى ٢٠ كم، وتتكون من صفائح تتراص بعضها فوق بعض بطريقة متداخلة، وتطفو هذه الصفائح فوق طبقة أخرى أكثر ليونة تسمى الغلاف Mantle.

حجم وجاذبية كوكب الأرض...

إذا كان **حجم كوكب الأرض** أصغر أو أكبر مما هو عليه الآن، لاستحالت الحياة.

فلو كانت الأرض فى **حجم القمر** مثلًا، لبلغت جاذبيتها **سدس** جاذبيتها الحالية، وما استطاعت أن تمسك ببخار الماء والهواء حولها، أى أن الغلاف الجوى سيتلاشى. وسيترتب على ذلك اشتداد البرودة ليلًا حتى يتجمد كل ما على سطح الأرض، واشتداد الحرارة نهارًا حتى يحترق كل ما عليها (كما هو الحال فى القمر الذى لا يحيطه غلاف جوى)[1].

كذلك إذا كان **الغلاف الهوائى للأرض** أقل كثافة مما هو عليه الآن، لسقطت النيازك كل يوم على كل بقعة من الأرض، بسرعة ثمانين كيلو مترًا فى الثانية، وأحرقت ما عليها، ولأصبحت الأرض كالغربال فى وقت قصير.

وعلى العكس، إذا أصبح قطر الأرض **ضعف قطرها الحالى**، لتضاعفت جاذبيتها. وانكمش غلافها الجوى (يمتد لمسافة مائة وعشرين كيلومترًا تقريبًا) فيزداد الضغط على كل بوصة مربعة من سبعة كيلوجرامات إلى أربعة عشر، مما يؤثر أسوء الأثر على الكائنات الحية.

أما إذا تضاعف حجم الأرض إلى **مثل حجم الشمس**، لتضاعفت قوة جاذبيتها مائة وخمسين مرة، ولانكمش غلافها الهوائى إلى سُمك سبعة كيلومترات فقط، وارتفع الضغط الجوى إلى طن كامل على كل بوصة مربعة، فيصير وزن الحيوان الذى يزن كيلوجرامًا واحدًا - تحت كثافة الهواء الحالية - خمسمائة كيلو جرام، كما يهبط حجم جسم الإنسان (إن سمحت الظروف بنشأته) حتى يصير فى حجم فأر كبير، ولاستحال وجود العقل الإنسانى على النمط الذى نعهده، إذ يحتاج هذا النمط إلى مخ لا يقل عن حجم معين.

(١) يسمح الغلاف الجوى للأرض بمرور قدر محدد من الأشعة تحت الحمراء التى تدفئ جو الأرض فى النهار، كما يحتفظ الغلاف الجوى ببعض هذه الحرارة فى الليل Green House Effect.

دوران الأرض...

تدور الأرض حول الشمس بسرعة مقدارها ١١٠٠٠٠ كيلومتر فى الساعة (٣٠ كم فى الثانية)، حتى توشك أن **تقذف بنا** فى الفضاء، فكيف نستقر على سطح الأرض وهى تدور بهذه السرعة؟! يرجع الفضل فى ذلك إلى **الجاذبية الأرضية وضغط الهواء** الذى يحيط بنا من كل ناحية.

وتُتم الأرض **دورة واحدة حول محورها** كل يوم، بسرعة ١٧٦٠ كيلومترًا فى الساعة. فإذا انخفضت هذه السرعة إلى خمسمائة كيلومتر فى الساعة، **لطال ليلنا ونهارنا** بمقدار عشر مرات. ويترتب على ذلك أن تحرق حرارة الشمس كل شىء فوق الأرض، وما بقى بعد ذلك ستقضى عليه البرودة الشديدة فى الليل الطويل.

ميل محور الأرض...

وتدور الأرض حول الشمس بزاوية مَيْل على محورها الرأسى مقدارها ٢٣,٤٥ درجة، الأمر الذى تنشأ عنه **فصول السنة**، فتصبح أكثر مناطق الأرض صالحة للزراعة والسُكنى طول العام.

وإذا لم تكن الأرض بهذا الميل لغمر الظلام القطبين طوال السنة، ولتحرك بخار الماء من البحار شمالًا وجنوبًا، ولـمَا بقى على الأرض غير جبال الثلج فى القطبين وفيافى الصحراوات بينهما؛ مما يجعل الحياة على ظهر الأرض مستحيلة.

درجة حرارة الأرض...

تبلغ درجة حرارة سطح الشمس سبعة آلاف درجة مئوية، وتبلغ المسافة بينها وبين الأرض ما يقرب من ١٦٥ مليون كيلومتر. ولو اقتربت الأرض من الشمس بمقدار النصف مثلًا، فسوف تحترق هذه الورقة التى تقرأها على الفور. ولو زادت هذه المسافة إلى ضعف ما هى عليه الآن، فستقضى البرودة الشديدة على الحياة على سطح الأرض.

أما إذا حل محل الشمس نجم تزيد حرارته على حرارة الشمس بضع مرات (وما أكثر هذه النجوم)، فسوف تصبح الأرض تنورًا رهيبًا.

القشرة الأرضية والبحار...

لو زاد **سُمك قشرة الأرض** بمقدار ثلاثة أمتار عن سمكها الحالى، فستمتص أكسجين الهواء، وبدونه تستحيل الحياة الحيوانية.

كذلك لو كان عمق البحار أكثر من عمقها الحالى ببضعة أمتار، لامتصت ثانى أكسيد الكربون والأكسجين، ولاستحال وجود النباتات، فضلًا عن الحياة الحيوانية على الأرض.

العباءات الواقية للأرض...

تحيط بكوكب الأرض ثلاث عباءات واقية. العباءة الخارجية عبارة عن «**مجال مغناطيسى**» يعكس العواصف الشمسية التى تهب على جميع كواكب المجموعة الشمسية[1]، والقادرة على تدمير جميع أشكال الحياة على سطح الأرض.

والعباءة الثانية هى **طبقة الأوزون**[2] التى تحمى الأرض من الأشعة الكونية الضارة.

ويمثل **الغلاف الجوى** (الذى سبق مناقشته) العباءة الثالثة. ويمثل الأكسجين ٢١٪ من الغازات الـمُكَوِّنَة للغلاف الجوى القريب من سطح الأرض، ولو زادت هذه النسبة بمقدار الضعف لزادت قابلية الاحتراق وشدة الحرائق بالنسبة نفسها. كذلك لا تخترق «**الأشعة الشمسية ذات التأثيرات الكيميائية**» Actinic Rays هذا الغلاف، إلا بالقدر الذى يكفى لحياة النبات، وتكوين فيتامين «د» فى جسم الإنسان، والقضاء على الجراثيم الضارة، وما إلى ذلك من منافع !!

أعجوبة الماء ...

الأرض هى الكوكب الوحيد فى مجموعتنا الشمسية الذى يحتوى على الماء بحالاته الثلاث (**الغازية - السائلة - الصلبة**).

والماء هو **السائل الوحيد الذى تقل كثافته بالتجمد !**، لذلك يطفو الثلج على سطحه. وفى الدائرتين القطبيتين يحجب الثلج الماء الذى تحته، فتظل حرارته دون درجة التجمد، وتبقى الأسماك والحيوانات المائية على قيد الحياة.

(١) تتكون هذه العواصف من بروتونات موجبة الشحنة وإلكترونات سالبة.
(٢) يتكون جزىء الأوزون من ثلاث ذرات من الأكسجين.

ويستجيب الماء بشكل مثالى **لظاهرة الخاصية الشعرية Capillarity**، وهى **معجزة فى هيئة قانون طبيعى**. فهى تسمح للماء بالحركة لأعلى فى طبقات التربة، كما تسمح بصعوده فى سيقان الأشجار من الجذور إلى الأوراق عكس قوة الجاذبية الأرضية[1].

القارئ الكريم...

إن كل قفزة يحققها العلم تضيف إلى أدلة **(التصميم الذكى)** وتؤكد صحة **(البرهان الكونى)**، كما تشير وبشكل متزايد إلى صحة **(المبدأ البشرى)**. بل إن القفزات العلمية، من قوانين الحركة (نيوتن)، إلى العلاقة بين الكتلة والطاقة (أينشتين)، إلى سلوك الذرة والجسيمات تحت الذرية (فيزياء الكم)، إلى بنية الدنا DNA (جزىء الحياة)، إلى المخ وما تَكَشَّف من أسراره... **تُظهر لنا أبعادًا وأعماقًا أكبر وأكبر** لهذه المفاهيم الثلاثة.

وإذا كان **المعترضون** على «المبدأ البشرى» يعتبرون أن مجرد وجودنا فى الكون دليل بديهى على أن بنيته مناسبة لنشأة الحياة، ومن ثَمَّ فأن ملاءمة الكون ليس دليلًا على أى أمر غيبى. **فقد فات هؤلاء المعترضين أمران:**

الأول، أن العالم ليس مجهزًا لخروج الحياة وحسب، ولكن لخروج **كائنات حية ذكية منطقية**، ترصد وتفهم هذه المواءمة.

والأمر الثانى، هو **غزارة ما فى الكون من توافق** يفوق احتياجات الكائنات الحية ويحقق لها الرفاهية والاستمتاع، وخاصة الإنسان ذا الاحتياجات النفسية المتميزة، ذلك بالرغم من أن **قدرًا أقل بكثير من هذا التوافق كان كافيًا لنشأة هذه الكائنات.**

بعد إدراك هذين الجانبين من التوافق، أصبح أنصار «المبدأ البشرى» يطلقون عليه **«المبدأ البشرى القوى Strong Anthropic Principle»**، وذلك مقابل اصطلاح **«المبدأ البشرى الضعيف»** الذى يشير فقط إلى مفهوم (إننا موجودون، إذن الكون ملائم).

---

(١) وقد قَدَّر البيولوجيون كمية الماء التى تصعد فى شجرة ارتفاعها ثلاثون مترًا بحوالى ٤٠٠ لتر فى الساعة. تستطيع أن تتصور مقدار الطاقة المطلوبة، وكذلك الضوضاء التى تسببها مضخات تُستخدم لهذا الغرض فى غابة من هذه الأشجار.

وبالرغم من ذلك، يرفض الماديون (كما ذكرنا فى أول الفصل) مفهوم المبدأ البشرى، بل يعتبرون أن القول **بالغائية Telcology** خروج صريح على العلم الذى توصل إلى **التفسير الفيزيائى (الآلى)** لمعظم الظواهر الطبيعية، مما لا يدع عندهم حاجة للقول **بتفسيرات غائية للوجود**، ويعتبرون ذلك مبررًا لإنكار الوجود الإلهى.

نَرُّد على ما يعتمل فى عقول الملاحدة من شبهات حول البرهان الكونى والمبدأ البشرى بعرض مفهومين نرى فيهما **الخروج من مستنقع الشك والإلحاد**:

- **المفهوم الأول: لا ينبغى أن نعتبر أن التفسير الآلى هو وحده التفسير العلمى**. فإذا كان التفسير الآلى يتعرض للكيفية (كيف) ?How، التى يقوم العلم بالبحث عنها، فإن ذلك لا يتعارض عقليًّا مع وجود تفسير غائى (لماذا) ?Why قصد إليه خالق الكون والإنسان.

ولنضرب على ذلك مثالًا: رجل يتسلق جبلًا، ويتساءل الناس عن ذلك. هناك إجابتان مختلفتان. الأولى، أنه **يريد أن يشاهد المنظر الطبيعى** من فوق قمة الجبل. وهذا هو التفسير الغائى للظاهرة؛ لأنه يطرح الغاية التى يسعى إليها الرجل من التسلق.

أما الإجابة الثانية، فتكون بعرض **سلسلة الأسباب والنتائج التى تنتهى بحركة أَرْجل هذا الرجل**: فالطعام الذى تناوله كان مصدرًا لإنتاج طاقة استفاد منها الجهاز الحركى، ثم دفعه مثير خارجى إلى استغلال هذه الطاقة، فتقلصت عضلات الرجل ثم ارتخت ثم تقلصت حتى دفعت فى النهاية جسده إلى أعلى الجبل، وهذا هو التفسير الآلى أو الميكانيكى، وهو تفسير يدفع الحدث من الخلف، أما التفسير الغائى فإنه يجر الحدث من الأمام.

لذلك لا نرى تعارضًا بين التفسيرين، ولا يتنافى القول بأحدهما مع القول بالآخر (كما يرى الملحدون). فإن معظم أمورنا الحياتية يحكمها الأمران، الغائية والآلية: التهام الطعام، هناك غائية وهناك آلية. تناول الدواء، هناك غائية وهناك آلية، قيادة السيارة...

إن أهم التعارضات بين العقل فى العصر الوسيط، والعقل فى العصر الحديث هو أن الأول **سيطر عليه الدين** المسيحى الذى ارتبط بالغائية، بينما **سيطر العلم** الذى ارتبط بالآلية على عقل العصر الحديث.

إن التمييز، ثم الجمع، بين التفسير الغائى والتفسير الآلى على جانب كبير من الأهمية، لفهم تاريخ الفكر البشرى، وفهم حياتنا كلها، وأخيرًا لإدراك الغاية من وجودنا.

- **المفهوم الثانى**: يقول البعض، إذا سَلَّمنا بوجود الخالق الذى خلق الكون، ووضع فى الطبيعة القوى والقوانين التى تديرها. فما ضرورة القول بقيام الإله بتنظيم الكون وتدبير شئونه أولًا بأول؟

لقد كان فلاسفة اليونان القديم (وعلى رأسهم أرسطو) أول من طرح هذا المفهوم. فقالوا إن الإله بعد أن خلق الكون ونظمه انشغل بما يليق بسموه وعُلِّوه، انشغل بذاته. لقد حاول الفلاسفة بذلك تنزيه الإله عن الانشغال بما دونه، فكانت النتيجة أنهم عزلوه عن خلقه، وجعلوه **إلـهًـا ليس له أهمية عملية فى حياتنا**.

لكن الديانات السماوية أغلقت هذا الباب فى وجه الشكاكين ومن يمسكون العصا من الوسط، فبينت لنا أن الله **يُدَبِّر الوجود طوال الوقت، من خلال وبواسطة القوانين**. فقوة الجاذبية مثلًا لا تعمل بذاتها، بل إن الله هو الذى يمدها بقوتها فى كل لحظة، وتلك هى الحال مع جميع قوانين الطبيعة الأخرى.

وإذا لم يكن الله قائمًا على الوجود بشكل متواصل، فسوف تتوقف الجاذبية وغيرها من قوى وقوانين الطبيعة عن العمل، بل سوف تنهار الطبيعة نفسها. أى **أن الله لا يزال يخلق الطبيعة وقوانينها، ويعيد خلقها من جديد فى كل لحظة، على نحو متواصل**.

لا شك أن هذين المفهومين معًا يجمعان بين التفسير الغائى والتفسير الآلى، ويحلان الكثير، والكثير جدًّا، من التعارض الظاهر بين النظرة الدينية والنظرة العلمية للوجود.

الفصل الثالث

الفكر الدينى فى الميزان

يرى المهتمون بنشأة التدين وتاريخه أن المفاهيم الدينية والأخلاقية قد ظهرت بشكل بدائى عند نشأة البشرية، ثم **تطورت تدريجيًا نحو الاكتمال**. بينما نفهم من ظاهر نصوص الديانات السماوية، أن هذه المفاهيم قد **وُجِدَت منذ البداية على كمالها**، بل إن الإنسان منذ خَلْقه كان على صلة مكاشفة مع الله (الحوار بين الله ﷻ وبين آدم عليه السلام)، لذلك ينبغى بذل الجهد من أجل المواءمة بين هذا المفهوم وبين علم الأديان.

الأساطير (فلسفة ما قبل الفلسفة)

جاء فى موسوعة أديان العالم:

«لا توجد جماعة بشرية - مهما تكن بدائية - ليس لديها أفكار عن موجودات أو كيانات تعلو فوق الطبيعة».

إن نشأة الفكر الدينى يرتبط عند الإنسان بنشأة العقل وإدراكه أن له ذاتًا تميزه. فبدأ **العديد من التساؤلات** يلح عليه: هل لهذا الوجود خالق؟ هل هناك بعث بعد الموت؟ ما الخير وما الشر؟....

وعندما بدأ الإنسان فى البحث عن أجوبة لمثل هذه الأسئلة، حتى يُرضى نزعته البحثية

وحتى يستطيع التعايش بسلام مع نفسه ومع هذا الوجود المُبْهَم، لم يجد أمامه إلا **الخيال المتمثل فى الأساطير**، وكان قد لجأ إليها من قبل لتفسير **الظواهر الطبيعية** المحيطة به، مثل لماذا تشرق الشمس وتغرب؟ ما سبب الفيضان؟ لماذا تسقط الأمطار؟...

وهكذا أصبحت الأسطورة هى محاولة الإنسان الأولى لتفسير الظواهر الطبيعية (**بديلًا عن العلم**)، ثم لتبرير وجوده وخلقه ولفهم طبيعة وماهية الخالق (**بديلًا عن الدين**).

ولم يجد الإنسان فى خبرته المعتادة إلا الصورة البشرية، بكامل انفعالاتها وسلوكها (بمحاسنها ومساوئها) ليخلعها على الآلهة العظمى (مثل: إيزيس، وأوزوريس، وزيوس)، وهكذا **عبد الإنسان نفسه دون أن يدرى**.

وقد طرح خيال الإنسان تصورات **لآلهة أدنى** على هيئة الحيوانات، كعجل أبيس عند الفراعنة. كما **زاوج بين الهيئتين**، فتصور إلـهًا مثل «أبو الهول»، الذى رأسه رأس آدمى وجسمه جسم أسد.

الفلسفة

عندما أصبح العقل البشرى أكثر نضجًا، أدرك الإنسان **عبث تصوراته الأسطورية**، عندئذ تقدمت المعرفة خطوة أخرى، تقدمت نحو **الفلسفة**.

وقد بدأت الفلسفة (مثل الأساطير) بالاهتمام **بالأصل المادى للوجود** (الخلق من التراب، الماء، الهواء، النار). ثم قامت بمعالجة **الأسئلة المعرفية الشاملة**، فتبلورت مباحث الفلسفة الرئيسية الثلاثة: **الوجود، المعرفة، الأخلاق**[1].

وإذا كانت الفلسفة قد أخذت بيد البعض إلى تصورات لا بأس ببعضها، كما حدث مع سقراط وأفلاطون وأرسطو ومع أنتونى فلو، فإن الفلسفة **أغرقت الكثيرين فى بحار من الحيرة والاغتراب**[2].

---

(١) للتعريف بالفلسفة ومجالاتها، راجع: قبل أن تقرأ هذا الكتاب.

(٢) **يجسد الحيرة والاغتراب، موقف جان بول سارتر**، مؤسس الفلسفة الوجودية الإلحادية. فحين اقترب الموت من سارتر، طلب من رفيقة حياته سيمون دى بوفوار أن تأتى له بقس!، وأبدت المرأة دهشتها الشديدة واستنكارها لما يطلبه الفيلسوف المسكين وقالت: سآتى لك بكاردينال، فرفض وقال: لا أريد كاردينالًا، إنهم يَغِشُّون الإله، إنما أريد قسًّا متواضعًا من قرية مغمورة. وجاءت له بالقس، **واعترف سارتر بهزيمته وأخطائه، أملًا فى النجاة**.

وموقف سارتر قريب جدًّا من موقف الفيلسوف الفرنسى الملحد فولتير إزاء الموت، فقد طلب قسًّا ليسمع

وحتى بالنسبة لمن كانوا أكثر توفيقًا، فقد فشلوا فشلًا ذريعًا فى الوصول إلى القول الفصل حول تحديد هوية الإنسان، ومعنى الحياة، والغايات من الخلق، ومعرفة الخالق، وغيرها من قضايا الفلسفة.

الإنسان مع الإله والدين[1]

علاقة الإنسان بالله... علاقة عاطفية

علاقة الإنسان بالدين... علاقة عقلية

الإنسان والوجود الإلهى...

إن الإنسان ليس فى حاجة إلى دين لإدراك وجود الله! فالوعى بوجود الله **شعور فطرى**، رَكَّبَه الله فى الجانب العاطفى عند الإنسان. ويقوم الإنسان بقبول (أو تأسيس) نظامه الدينى كَبِنْية تعلو هذا الشعور، ولا تشترط هذه **العاطفة** أن يشتمل النظام الدينى على صفات محددة للإله، كما لا تستلزم توضيح الغايات من الخلق، ولا تشترط أى طقوس لعبادة الإله الخالق،إنما تتطلب تأكيد وجود الإله من حيث المبدأ وحسب.

لذلك، كما يتم إشباع هذا الوعى الفطرى بوجود الله بالعقيدة الصحيحة وبالعبادة الحقة، **فيمكن إشباع هذا الوعى بعقيدة وعبادة وثنية أو بدائية**، تم استبعاد العقل تمامًا عن النظر فيها.

ويُعَرِّفنا الإسلام أن الله قد زرع هذه الفطرة بذاته فى النفس البشرية، دون وساطة من مَلَك مقرب أو نبى مُرسَل، كما يخبرنا القرآن الكريم:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

اعترافه قبيل موته، لكن القس رفض تقديم الغفران له ما لم يوقع على اعتراف بإيمانه بالمذهب الكاثوليكى! فثارت ثائرة فولتير وطرد القس، وكتب بيانًا جاء فيه: **«إننى أموت على الإيمان بالله، ومحبة أصدقائى، وكراهية أعدائى، ومقتى للخرافات والأساطير الدخيلة على الدين»**.

(١) المفاهيم الواردة تحت هذا العنوان، مستقاة عن كتاب المهندس الدكتور محمد الحسينى إسماعيل: الدين والعلم وقصور الفكر البشرى. عام ١٩٩٩ - مكتبة وهبة.

وينبغى أن نؤكد أن كَوْن علاقة الإنسان بالله علاقة عاطفية، لا يعنى استحالة، أو عدم الحاجة إلى إقامة الدليل العقلى على وجود الله ﷻ. فالكتاب الذى بين يديك «رحلة عقل» إنما هو رحلة عقلية لإقامة هذا الدليل.

الإنسان والدين

لقد جعل الله ﷻ **علاقة الإنسان بالدين علاقة عقلية**، يمكن أن يبرهِن عليها العقل البشرى، ويخضعها للتحليل والاستدلال والاستنباط، كما جاء فى القرآن الكريم:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ ﴾ [النساء: ١٧٤]

وقد أظهرت الدراسات **تشابهًا كبيرًا فى النسق الدينى بين الشعوب البدائية وبين الشعوب الأكثر تحضرًا**، مما يتحدى النظرية التى تقول بأن الدين هو انعكاس للحياة الاجتماعية والثقافية والمادية، كالأدب والشعر والفن والفلسفة.

إن قولنا إن علاقة الإنسان بالدين علاقة عقلية، لا ينفى وجود **الرغبة الفطرية لدى الإنسان فى اعتناق دين ما**، أما دور العقل فهو إدراك صحة المضامين الدينية. لذلك ينبغى **القيام بالفصل الدقيق والصارم** بين الشعور الفطرى العاطفى(متمثل فى الوعى بوجود الله) وبين الفكر العقلانى (الذى يتمثل فى إدراك صحة المضامين الدينية)، حتى لا يفقد الإنسان **طريقه الصحيح فى التوجه إلى الله**، وهو غاية الغايات من خلق الإنسان فى جميع الديانات.

دين واحد، فى إصدارات متعددة...

ويخبرنا القرآن الكريم أن الدين عقيدة[1] وشريعة[2]، وأن **العقيدة فى كل الديانات واحدة، أما الشريعة فتختلف من دين إلى دين:**

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى: ١٣].

(١) العقيدة: الإيمانيات والمعتقدات، وهذه اتفق عليها كل المرسلين، فما من نبى إلا وقال لقومه: (اعبدوا الله ما لكم من إله غيره). أى أن عقيدة كل الأنبياء والرسل هى التوحيد.

(٢) الشريعة: هى ما ينظم حياة الناس، فتحل لهم ما يحله الله وتحرم عليهم ما يحرمه الله، وتأمرهم بما يحب الله وتنهاهم عما يبغض.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [البقرة: ٦٢].

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾[البقرة: ١٣٣].

أى أن **الدين واحد منذ آدم** عليه السلام، **وإن تعددت الشرائع (إسلام - مسيحية - يهودية)**.

وقد أدرك الكثيرون من الفلاسفة الغربيين هذه الحقيقة، وعَبَّرَ عنها جورج برنارد شو بقوله: **يوجد دين واحد، وصل إلينا فى أكثر من مائة إصدار**.

لذلك تشترك الأديان فى العديد من السمات والمفاهيم، وأهمها:

١- الإيمان **بإله أزلى أبدى، خالق** لهذا الوجود.

٢- أرسل **الإله رسلًا** يُعَرِّفون البشر بربهم، وبالغاية من خلقهم.

٣- المخاطَبون بالرسالة، **هم الشعب المفضل** عند الإله.

٤- توجد **قصة خلق** للكون والإنسان.

٥- تحتوى الديانة على **قصص غيبية وأحداث مقدسة**.

٦- تشتمل الديانة على **شعائر وعبادات**، كالصلاة والصيام.

٧- تحدد وقتًا مناسبًا **للتأمل**.

٨- لها **أماكن مقدسة** يُحَجُّ إليها.

٩- تتحدث الديانة عن **حياة أخرى خالدة**، تقترب فيها الأرواح من الإله.

١٠- تحدد الديانة **نظامًا أخلاقيًّا**، يطلب الخالق من عباده الالتزام به (غائية)، ويحاسبهم على ذلك.

الدين مفهوم نسبى، أم حق مطلق

ذكرنا أن هناك عقيدة واحدة وديانات متعددة، كما ذكرنا أن علاقة الإنسان بالدين علاقة عقلية، فهل يمكن دراسة أى دين بشكل مستقل لإقامة الحجة على صدقه أو خطئه (أى أنه حق

مطلق)، أم ينبغى أن يكون ذلك من خلال مقارنته بالديانات الأخرى (مما قد يعنى عدم صدق مفهوم الدين على الإطلاق)؟

والحقيقة **أن الدين حق مطلق؛ إذ يمكن تقويمه بشكل موضوعى، عن طريق تقويم مكوناته الأساسية الثلاثة** (محتوى الرسالة – الرسول – الإله).

- **المُكَوِّن الأول**: يختص بمحتوى **النص الدينى وطبيعته**، وينبغى أن يتميز النص الدينى الصحيح بالآتى:

١ – **أن يُعَرِّف الإنسان بالإله الخالق.**

٢ – أن **يوضح للإنسان الغاية من وجوده.**

٣– تقع المفاهيم الدينية فى إطار **الإدرك العقلى للإنسان.**

٤ – أن يقدم الدين **البرهان العقلى** على صحة ما يعرضه من مفاهيم ومسلمات.

٥ – **لا يوجد تناقض** بين **المضامين الدينية** التى تطرحها الرسالة.

٦ – لا يتناقض النص الدينى **مع قانون الفطرة الأخلاقى** للإنسان.

٧– لا تتناقض المفاهيم الدينية مع مفاهيم **العلم.**

٨– ألاَّ يكون منفصلًا عن **واقع حياة الإنسان.**

٩– **أن يتحرك معنى النص الدينى** مع **التقدم الحضارى للإنسان**، فثبوت المعنى عند مفاهيم وقت التنزيل، يعنى أن الخالق لم يأخذ فى الاعتبار التطور العلمى والحضارى الذى يُجريه على الإنسان على مدار حضاراته.

- **المكون الثانى**: ويختص بمفهوم الرسول وصفاته، وينبغى أن:

١ – تحدد الرسالة **كيفية اتصال الخالق بالرسول وبمخلوقاته.**

٢ – تبين الرسالة أن الأنبياء والرسل **مسئولون عن التبليغ عن الإله**، فلم يأتِ الرسل للتعريف بأنفسهم.

٣– تؤكد الرسالة أن الأنبياء والرسل هم **الذروة فى الكمال الإنسانى المحدود**، حيث إنهم يمثلون القدوة البشرية للإنسان. وذلك بمفهوم أرقى كثيرًا من مفهوم أبطال الشعوب فى الملاحم والأساطير.

• **المكون الثالث**: يختص بمفهوم الإله وطبيعته، وينبغى فى الدين الحق أن يحتوى على:

١- **برهان الإله الخالق على وجوده** بشكل قاطع، وعلى **فطرة وجوده** فى النفس البشرية.

٢- اتصاف الإله **بالكمالات المطلقة**، وأن حكمته وقدرته تتعالى فوق الحكمة والقدرة البشرية.

٣- عند عرض صفات الإله لا مفر من استخدام الألفاظ التى نستخدمها فى الحديث عن الإنسان، مثل الوجود والغضب والرحمة والسمع والبصر. فنحن لا نملك مواد أخرى نصوغ منها تصورنا عن الله، وهذا ما يُسَمَّى عند علماء العقائد «**النزعة التشبيهية**». ولا يعنى ذلك بأى حال من الأحوال أن الإله يُشْبهنا.

وقد تعامل القرآن الكريم مع هذا الموقف بأسلوب أزال كل لَبْس:

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١].

فالله ـ عز وجل ـ قد استخدم أسلوب التشبيه (ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ)، وقَدَّم لذلك بتنبيهنا إلى أن التشبيه يأتى فى إطار من التنزيه المطلق (لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ).

هذه البنود الثلاثة هى الخطوط العريضة، التى يمكن أن نحكم من خلالها بشكل موضوعى على صحة أو خطأ الديانة المعنية بالدراسة.

فبديهى أنه لا مكان لديانة **تصف الإله بصفات إنسانية متدنية، أو صفات وثنية أسطورية. أو تصوره فى صورة حيوان أو مسخ أحمق**، تتعالى عليه مخلوقاته البشرية حكمةً وذكاءً وقدرة. أو تعتبره إلـهًا أحمق متسرعًا لا يدرى ماذا يفعل.

ولا مكان لديانة تخبرنا نصوصها أن **أنبياءها زناة وقتلة وسفاحون وخونة**.

ولا مكان لديانة **تطفح نصوصها بالفاحشة** فى أحط وأقذر معانيها.

وقبل كل شىء، لا مكان لديانة **لا تعطينا البراهين العقلية الواضحة والكافية** للحكم على صحة ما جاء بها. وقد ضرب الإسلام أوضح مثل على ذلك، فلم يكتفِ القرآن الكريم بسَوْق الأدلة، بل تحدى الآخرين أن يقدموا البراهين العقلية على صحة ما يقولون: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

ديانات البشر الرئيسية

بعد هذا العرض لما ينبغى أن تكون عليه المكونات الثلاثة الرئيسية للدين الحق (الرسالة- الرسول - الإله)، نعرض باختصار **الديانات الرئيسية الثلاث التى يدين بها البشر**. ويستطيع القارئ النظر فيما بينها من سمات مشتركة، ويستطيع كذلك تقويم موقف هذه الديانات من المكونات الثلاثة الرئيسية.

أولًا: أديان التوحيد السماوية

وتشمل: الإسلام: ويعتنقه حوالى ١,٥ مليار نسمة[١]

والمسيحية: ويعتنقها حوالى ٢ مليار نسمة

واليهودية: ويعتنقها حوالى ١٤ مليون نسمة

بالإضافة إلى السمات العامة للديانات، تشترك أديان التوحيد فى المفاهيم التالية:

- خلق الإله الكون وجميع موجوداته **من عدم، على مهل** (فى ستة أيام).
- **الإنسان مخلوق يتميز بالثنائية**: جسد مادى، وروح غير مادية غير فانية.
- خُلِق الإنسان **فى جنة، أُخرج منها** بسبب عصيانه للإله.
- **يوسوس الشيطان للإنسان** بمعصية الإله.
- **يُبعث الإنسان بعد الموت**، ليُحاسب على أفعاله، ويلقى ثوابًا أو عقابًا فى الحياة الأخرى.
- فى وقت ما، كان هناك **فيضان غطى الأرض** وقضى على العصاة.

ونعرض هنا فكرة عامة عن كل من ديانات التوحيد الثلاث:

١- الإسلام

الإسلام **خاتم الأديان السماوية**، ويقوم كتابه «**القرآن الكريم**» على **البرهان العقلى** بالإضافة إلى **مخاطبة الفطرة الدينية** فى الإنسان، لذلك **أُرسل للعالمين** فى كل زمان ومكان وحتى قيام الساعة.

(١) إحصائيات عام ٢٠٠٧.

ويقوم الإسلام على ثلاثة مفاهيم: الإسلام، الإيمان، الإحسان[1].

الإسلام: «بُنى الإسلام على خمس: **شهادة** أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقامة **الصلاة**، وإيتاء **الزكاة**، **وصوم رمضان**، **وحج** البيت لمن استطاع إليه سبيلًا».

لذلك يدخل الإنسان فى الإسلام بالشهادة لله ﷻ بالإلوهية ولمحمد ﷺ بالرسالة. ويؤمن المسلم **فى حق الله بكل ما يليق من صفات الكمال والتنزيه**، وفى حق الرسول ﷺ بكل ما يليق من **صفات الكمال البشرى**.

الإيمان: «**أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقَدَر خيره وشره**».

وتمثل هذه الأركان الستة **أمور الغيب** التى ينبغى أن تستقر فى قلب المسلم ليسلك فى حياته بأسلوب يؤكد هذا الإيمان. فالإيمان ما وقر فى القلب وصَدَّقَه العمل.

الإحسان: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**».

فالمسلم يؤمن بأنه يستطيع الوصول إلى درجات عليا من القرب من الله عن طريق المجاهدة والتَفَكُّر والذكر.

وهذه المفاهيم الثلاثة هى الأساس الذى يقوم عليه الإسلام **كمنهاج حياتى شامل** يحدد القرآن الكريم والسنة النبوية خطوطه العريضة.

٢ ـ اليهودية

تؤمن اليهودية الكتابية [2] بأن **الله قد اختار الشعب اليهودى ليعلن له عن ذاته** حتى يسير فى طريق الله، فيكون نورًا للأمم، فيعرفون الله عن طريقهم[3]. وتقوم الديانة اليهودية على:

١ - هذا **العهد الذى قطعه الله** مع الآباء (إبراهيم وإسحاق ويعقوب)، وأرساه لموسى وشعبه عند خروجهم من أرض مصر[4]، وأمَّنهم على حفظه. إلا أن تلك الأمانة قابلها اليهود فى معظم الأحيان بالتمرد والعصيان.

(١) اجتمعت هذه المفاهيم الثلاثة فى الحديث النبوى الصحيح الذى رواه الإمام مسلم فى صحيحه.

(٢) تؤمن اليهودية الكتابية بكتابات العهد القديم كلها، وتشمل التوراة (كتب موسى الخمس) بالإضافة إلى ما يُعرف بكتب الأنبياء والكتابات.

(٣) إشعياء ٤٢.

(٤) تثنية ٥: ٣.

٢- ونظرًا لقداسة الله المطلقة وكونه يكره الشر، **تجلب مثل هذه الخطية على فاعلها غضب الله وتورِثه الذنب، وتجلب على الأرض كلها اللعنة والألم**، وهذا هو قضاء الله العادل.

٣- **حتى نتخلص من الخطية** (خطايا التعمد والسهو وأيضًا الخطايا القلبية[١]). نحن دائمًا فى **حاجة إلى بداية جديدة**، على أساس صفات الله من حب ورحمة وغفران، ليس لشعبه فقط، بل لكل الأمم[٢]، فهو كثير الرحمة وبطىء الغضب[٣].

وليس **الخلاص على أساس الصلاح الإنسانى**[٤]، ولكن يمكن **تقديم الذبائح** كرمز للتكفير والتطهر من الذنوب. وأشهر طقوس الذبائح ما يحدث فى يوم الكفارة[٥]، وفيه تُقدَّم ذبيحتا الكاهن كرمز للتكفير عن نفسه وعن عائلته وشعبه.

٤- والشريعة (فرائض وأحكام) هى الأساس الذى يُعتبر الحيد عنه خطية وذنب، وقد أعطاها الله للشعب اليهودى ليعمل بجميع وصاياه[٦]. وحفظ الوصايا هو طريق البركة.

٥- أما **غاية الإيمان اليهودى فهى تحقيق وعود الله**. لذلك يمتلئ العهد القديم بالوعود والنبوءات عن الـمَسِيَّا (الـمُخَلِّص)، وهناك نبوءات عن العهد الجديد الذى سيقطعه الله مع اليهود فيجعل الشريعة مكتوبة على قلوبهم وليس على الحجر، ويمسح خطيتهم بأن يعطيهم قلبًا جديدًا وروحًا جديدة[٧]،[٨].

٣- المسيحية

تدور **المسيحية حول المسيح**. فتبدأ من حيث انتهى العهد القديم الملىء بمئات النبوات عنه: ميلاده المعجز، وحياته الكاملة (فهو لم يقترف إثمًا واحدًا)، وصلبه وموته وقيامته. وقد وقعت هذه النبوءات بحذافيرها. وتقوم الديانة المسيحية على:

---

(١) مزمور ١٩: ١٢.
(٢) يونان ٤: ٢.
(٣) يوئيل ٢: ١٣.
(٤) هو ١٤، مز ٥٣.
(٥) لاويين.
(٦) تثنية ٢٨ – تثنية ١٢.
(٧) حزقيال ٣٦: ٢٦.
(٨) إرميا ٣١.

١ - العهد الجديد الذى أسسه المسيح بدمه، والذى تنبأ به أنبياء بنى إسرائيل من قبل. وبه **صار تَعامُل الله مع البشر الخطاة على أساس أن المسيح قد فداهم بدمه المسفوك على الصليب.**

٢- **الصليب هو الحل لمشكلة الخطية والخلاص منها**، فقد قدم المسيح نفسه ودمه طواعية كذبيحة عن خطايا البشر، «لأنه بدون سفك دم لا تحصل مغفرة»[١]. لذلك فكل ذبائح وطقوس العهد القديم تشير إلى الصليب.

٣- لأن المسيح هو الإنسان الكامل والإله الكامل - ما يُسمَّى **بعقيدة التَجَسُّد** - فهو القادر على أن يُكَفِّر عن خطايا البشر. فلأنه غير محدود كإله، فهو يستطيع التكفير عن العقاب غير المحدود للبشر (جهنم الأبدية). ولأنه أخذ صورة إنسان، فهو يستطيع أن يكون مَثَلًا لهم.

وهذا التجسد يعود إلى حقيقة أن **الله واحد مثلث الأقانيم**[٢] (الثالوث القدوس: الآب والابن والروح القدس) مثلما يكون الإنسان أبًا وابنًا وزوجًا فى عين الوقت.

وقد تجسد الابن طواعية آخذًا جسمًا بشريًا[٣]، كحل قدمه الله للإنسان[٤]. **فأصبح الصليب ملتقى العدل الإلهى والرحمة الإلهية**، فالعدل فى أخذ القصاص، والرحمة فى أخذه من الإبن الحبيب الذى دفع دَيْنَ الذنوب[٥]،[٦].

٤- **تُعتبر شريعة وتعاليم المسيح تكميلًا لشريعة موسى**[٧]. وقد أعطى المسيح الناموس (الشريعة) الذى يسلك به المفديون (المسيحيون)، بمعونة روح الله القدوس (الروح القدس)، وقد وضع الله فى المؤمنين طبيعة جديدة **تستطيع أن تحيا مثل المُعَلِّم: المسيح.**

٥- **وغاية الإيمان المسيحى هى الخلاص. ويبدأ الخلاص بالإيمان بالكفارة** (دم المسيح الذى قدمه طواعية دون مقابل)[٨]، وينتهى بالتحرير النهائى من الجسد والخطية والعالم، حيث يسكن الله مع الناس فى سموات جديدة، وأرض جديدة[٩].

---

(١) عبرانيين ٩: ٢٢.
(٢) الأقنوم: مظهر - تعيين.
(٣) فيلبى ٢ ٥ - ١١.
(٤) ٢ كورنثوس ٥: ١٩
(٥) مزمور ٨٥: ١٠.
(٦) يوحنا ١: ١٧.
(٧) متى ٥: ١٧.
(٨) رومية ٣: ٢٤ - ٢٥.
(٩) الرؤيا ٢١: ٣ ٤.

ثانيًا: الهندوسية

يعتنق الهندوسية حوالى ٩٠٠ مليون إنسان، يعيش معظمهم فى شبه القارة الهندية. والهندوسية مجموعات مختلفة، تشترك فى أربع عقائد أساسية:

(١) الكارما Karma: وهى قانون الجزاء.

فالكون نظام إلهى قائم على **العدل الصارم**، وفيه يتم إحصاء كل ما يفعل الإنسان لينال عليه الجزاء، إما فى هذه الحياة، أو بعد الموت عن طريق التناسخ.

(٢) عقيدة التناسخ The Doctrine of Re-Incarnation:

يقضى الموت على الجسد المادى، **أما الروح فتلحق بدورة التناسخ**. فإذا كانت الروح لإنسان خَيِّر تقمصت جسد إنسان من طبقة أعلى **(كنوع من الثواب)**، وإذا كانت لإنسان شرير لحقت بجسد إنسان من طبقة أدنى أو جسد حيوان **(كنوع من العقاب)**. وفى كل الأحوال لا يدرى الإنسان شيئًا عن حياته السابقة (أى لا يعرف إن كان قد أُثيب أو عُوقب).

(٣) الانطلاق:

بتكرار دورات التناسخ، يتم تطهير الروح من الشهوات واستيفاء ما عليها من ذنوب. عند ذلك **تنجو الروح من تكرار المولد، وتمتزج بالإله (براهما)** كما تعود قطرة المياه إلى المحيط العظيم، **وهذا هو هدف الحياة الأسمى**.

وأفضل سبيل للانطلاق هو **الزهد والسلبية**، فصالح الأعمال وأرذلها تُدخِل الروح فى دورات جديدة من التناسخ.

(٤) وحدة الوجود:

انبثق الكون عن الله، وكذلك روح الإنسان، فهى أزلية أبدية غير مخلوقة، وهى من الإله مثل أن شرارة النار نار. وعندما تُجَرَّد الروح من جسمها المادى تعود إلى الروح الأكبر (الانطلاق).

وعقيدة التثليث ظاهرة فى الهندوسية. فللإله ثلاث صفات، فهو براهما (من حيث إنه خالق)، وهو فشنو (من حيث إنه حافظ) وهو سيفا (من حيث إنه مُهلِك). وهذه الصفات الثلاث كامنة فى الإنسان.

ويقدس الهندوس الحيوانات، خاصة الأبقار، ولذلك عدة أسباب. فالبقرة رمز للإيثار لما تعطيه للبشر (اللبن، الجلد، اللحم، الرَوَّث)، كما أنها رمز للأخوة بين الإنسان والحيوان، بل قد تحمل الأبقار أرواح بشر تناسخت فى هذه الحيوانات. لذلك كله ينظر الهندوس إلى البقرة باعتبارها **أم الإنسان الحقيقية**.

ولا شك أن **بعض عقائد الهندوسية موجودة عند بعض معتنقى الديانات السماوية. فنجد مفهوم وحدة الوجود** فى التصوف الفلسفى الإسلامى، كما نجد **عقيدة التثليث فى المسيحية**.

ثالثًا: ديانات الشرق الأقصى

يعتنق هذه الديانات حوالى ٨٠٠ مليون إنسان. وتشمل ديانات الصين الثلاث، البوذية والكونفوشيوسية والطاوية، وكذلك الشنتوية ديانة اليابان.

وتختلف هذه المجموعة (باستثناء الطاوية) عن المجموعتين السابقتين فى أنها **لا تهتم بالأمور الغيبية**، مثل الإله الخالق، وخلود الروح، والحياة بعد الموت، وتعتبر أن هذه الأمور **فوق طاقة العقل البشرى**. كذلك تسمح هذه الديانات لمعتنقيها باعتناق أى معتقدات دينية أخرى، لذلك لا **ينظر إليها الكثيرون باعتبارها ديانات**.

وتركز هذه الديانات على **تعليم الناس كيف يحيون على الأرض**؛ إذ إن النفس والهوى هما أصل الشرور. ففعل الخير يعطى الإنسان سعادة فى حياته وحياة الآخرين، وقد عبر بوذا عن ذلك المفهوم بقوله: الخير يجلب الخير From Good Comes Good، **ولا ينبغى التفكير فى انعكاس ذلك على حياة الإنسان بعد الموت**.

وإذا نظرنا إلى الفوارق بين ديانات الشرق الأقصى الأربع، وجدنا:

أن **البوذية Buddhism** تدعو للزهد والتَّسول ونبذ **كل أشكال المتعة**، كالمال والجنس، وتؤمن بشكل من أشكال **التناسخ** الذى تؤمن به الهندوسية. كما تؤمن بنشوة عظمى **(النيرفانا)** يمكن أن يحققها الإنسان فى هذه الحياة، وربما فى حياة تالية (عند بعض الفرق البوذية).

وتدور البوذية حول ما يُعرف **بالحقائق الأربع المقدسة**:

الألم موجود، له سبب، قابل للزوال، الوسيلة لإزالة الألم موجودة.

وهذه الوسيلة هى ما يعرف **بالطريق ذى الثمانى شُعَب، وهى صحة**: الاعتقاد – العزم – القول – العمل – العيش – الجهد – الفكر – التأمل.

ولما كان بوذا قد ترك حيز الإله فى نفوس أتباعه فارغًا، فقد غلبت على الكثيرين من البوذيين فطرة الإيمان بالإله، **فاعتبروا بوذا شخصية ثنائية: ناسوتية** (ذا طبيعة إنسانية)، **ولاهوتية** (حلت فيه روح الإله)، وذلك **مثل العقيدة المسيحية فى المسيح**. ولهذا أُقيمت التماثيل لبوذا، وعُبد بوذا، وقدمت القرابين لبوذا، بالرغم من أنه ينكر أنه رسول ولا يتحدث بتاتًا عن الإله!

أما **الكونفوشيوسية Confuciantism فتسمح بمختلف المتع**، وتُشجع تذوق الجمال والفن والموسيقى. وأهم ما تدعو إليه الديانة، أن **تعامل الآخرين كما تحب أن يعاملوك**. وتقدس الكونفوشيوسية **الولاء للعائلة والأجداد أكثر من الولاء للوطن**.

وتتفق الكونفوشيوسية والبوذية فى **قصة الخلق التى تبدأ بانفلاق البيضة الكونية** Cosmic Egg[1].

أما الشنتوية Shinto – ديانة اليابان – فتقدس قوى الطبيعة والوطن والإمبراطور والأبطال القوميين، وتعتبر أن الإمبراطور سليل إله الشمس الذى خلق أرض اليابان المقدسة، لذلك وُضع شعار الشمس على علم اليابان.

وتختلف **الطاوية Taoism** عن ديانات الشرق الأقصى الثلاث الأخرى، فى **تركيزها على العالم الآخر**. لذلك تسعى إلى فهم الذات الإنسانية وتهذيبها، والوصول بها إلى أقصى درجات العلو من خلال التأمل والمجاهدة «**اليوجا**». وتُعتبر الطاوية **الديانة الصوفية للشرق الأقصى**.

القارئ الكريم...

تتبعنا فى هذا الفصل نشأة الفكر الدينى، متمثلًا فى **الأساطير والفلسفة**.

ثم انتقلنا إلى الأديان، وذكرنا أن **علاقة الإنسان بالله علاقة فطرية عاطفية**، بينما **علاقة الإنسان بالدين علاقة عقلية**، لذلك توجد عقيدة واحدة، وصلت إلينا فى أكثر من مائة إصدار.

---

(١) من التحف الصينية الشهيرة «البيضة» المزخرفة التى نجدها فى محلات التحف والهدايا.

وتَعَرَّضنا للسمات المشتركة للأديان، وذكرنا أن **الدين الحق مفهوم مطلق** يمكن تقويم مكوناته الثلاث (الرسالة – الرسول – الإله) بموضوعية تستبعد الكثير مما تشتمل عليه ديانات البشر من ضلالات. ثم طرحنا سمات كل من الثلاث مجموعات الرئيسية من الديانات.

والآن يأتى دور عرض مفهوم أصبح سائدًا فى العالم، وينبغى أن نحلله لنفهم جذوره ومكوناته، وهو ما يُعرف بالديانة الطبيعية.

obeikan.com

الفصل الرابع

الديانة الطبيعية والعلمانية في الميزان

الديانة الطبيعية Natural Religion مذهب فكرى، يدعو إلى الإيمان بدين مبنى على العقل، لا على الوحى، ويُعرف كذلك **بمذهب الربوبية Deism**.

ويقوم هذا المذهب على أن الله قد خلق الكون ووضع قوانينه التى تديره الآن بدون تدخل منه. تمامًا كما نقول بأن صانع الساعة قد صنعها، وهى تدور الآن بدون الحاجة إليه. ويجُمل المتخصصون هذا المعنى فى قولهم إن «**الكون مغلق Closed Universe**»، أى أنه مكتفٍ بذاته؛ إذ يحوى داخله كل ما يكفى لتسييره وإدارته.

إن هذا المنظور يستبعد الإله وكل ما يتصل به من غيب عن الكون والوجود، كما **ينزع القداسة عن كافة الظواهر بما فى ذلك الإنسان**. وبذلك فإن **للديانة الطبيعية علاقة قوية بمفهوم العلمانية**، الذى هو مفهوم سياسى، اجتماعى، دينى.

وكلمة **العَلمانية Secularism** مشتقة من الكلمة اللاتينية Seaculum، وكانت تعنى فى العصور الوسطى العالَـم (أو الدنيا) فى مقابل الكنيسة. ثم أصبحت مرادفة لكلمة «الدنيوية».

ويتبنى المنظور العلمانى ثلاث فئات من الناس:

١ - **الملاحدة**، الذين لا يؤمنون بوجود الإله.

٢ - **أنصار الديانة الطبيعية**.

٣- **متدينون**، يرون أنه ينبغى فصل الدين عن الحياة العامة؛ إذ إن الدين علاقة خاصة بين الإنسان وربه.

لذلك **سنعرض (ونحلل)** فيما يلى تلخيصًا للفكر العلمانى، ثم نشير إلى ما **يؤمن به أنصار** الديانة الطبيعية[١].

أولًا: يغفل العلمانى «النفس والروح» كجزء أصيل فى بنية الإنسان، ولا يُثبت إلا جسده المادى والقوانين الطبيعية التى تحكمه.

ويرى العلمانى أن المادة وقوانينها الطبيعية قد خلقت نفسها، وهو بذلك **يسبغ صفات الإله الخالق عليها**، أى أنه أقر بوجود الإله (الذى هو الكون)، لكنه إله لا يدرى ماذا خلق وماذا يفعل.

كذلك فإن مفهوم **«الإنسان المادة»** لم يقدم أى تفسير للأمور المميِّزة للإنسان، والتى تُعتبر من البراهين الدالة على وجود الله، مثل الفطرة الأخلاقية والوعى الفطرى بوجود الإله، والفطرة الدينية، والعقل بملكاته المتعددة...

ثانيًا: يرى العلمانى أن على الإنسان حصر اهتمامه بقضايا العالم والطبيعة، وأن يتجاهل كل ما وراء الطبيعة:

إن العلمانى هنا لا يعلم أن الدين قد صار **علمًا، يُستشهد عليه علميًّا وفلسفيًّا**. كذلك فإن **الإيمان بالدين ليس خيارًا بين الرفض والقبول**، ولكنه ضرورى ليدرك الإنسان حقيقته وحقيقة الوجود من حوله، وإلا عاش فى خواء نفسى واغتراب.

كذلك يغفل العلمانى أن الدين الحق يدعوه إلى الاهتمام بقضايا العالَم والطبيعة، بل **ويعتبر العقل والعلم والمنطق الرياضى طرقًا للاستدلال على وجود عوالم ما وراء الطبيعة**.

(١) عن كتاب المهندس الدكتور محمد الحسينى إسماعيل: الدين والعلم وقصور الفكر البشرى. عام ١٩٩٩ - مكتبة وهبة.

ثالثًا: يدعو العلمانى إلى تحرير العقل من سلطان الدين، ليكون سلطانه مطلَقًا:

إن هذه الدعوة ناتج حتمى (نقدره) لصراع الإنسان المرير مع المفاهيم الكَنسِية. وناتج حتمى أيضًا **لكل فكر دينى متطرف** يدعو لإلغاء العقل وغلق باب الاجتهاد. لذلك قال الفيلسوف الألمانى نيتشه: **إن الإيمان المسيحى معناه الانتحار المتواصل للعقل البشرى**. وإذا كان نيتشه قد شن حملته على المفاهيم المنحرفة فى المسيحية واليهودية، فإن العلمانى يُعمم حملته لتشمل جميع المفاهيم فى جميع الديانات.

رابعًا: يجعل العلمانى الإنسان هو الـمُطْلَق، بدلًا من الله.

يجسد نيتشه موقف الملاحدة بعد أن بهرتهم قدرة العلم والقوانين الطبيعية على تفسير الظواهر الطبيعية بقوله: «**إن الإله قد مات، وسيظل ميتًا، ونحن الذين قتلناه**».

وبديهى لم يجد نيتشه بعد موت الإله، إلا الإنسان ليضعه مكانه، فأخذ يُبشر بمجىء **الإنسان الأعلى أو السوبر مان**، القادر على كل شىء، والمرجعية لكل شىء. لذلك ترى العلمانية **أننا موجودون فى عالم عبثى، ليس فيه غايات من الخلق أو الوجود.**

خامسًا: يضع العلمانى التجربة الحسية محل المعارف النقلية والوجدانية، ويستعيض بالعلم الطبيعى عن الدين والفلسفة.

تمثل المعارف النقلية والوجدانية رافدًا أساسيًّا للدين، كما تمثل عوالم ما وراء الطبيعة المحطة النهائية لاهتماماته، وتشاركه الفلسفة هذا الاهتمام، وبذلك فهما يتصديان لشرح ما يتجاوز مجال وقدرة العلم الطبيعى. فإذا كان الفيزيائيون ينطلقون فى علمهم من الانفجار الأعظم الذى أنشأ الكون، ولا يهتمون بما قبل الانفجار الأعظم، فإن الدين والفلسفة يستكملان هذا النقص، ويبحثان فى كيف نشأ الوجود من العدم.

كذلك يدرس البيولوجيون الظواهر المادية والأصل المادى للحياة، أما حقيقة الحياة وكيف دَبَّت فى المادة غير الحية، فذلك أمرٌ يترك أيضًا للدين والفلسفة.

إذن، فالعلم الطبيعى هو المقدمة لعالم ما وراء الطبيعة، أى أن كليهما يمثلان حلقتين فى متوالية واحدة، ولا يمكن إحلال أحدهما محل الآخر.

سادسًا: يعتبر العلمانى أن الفكر نتاج المخ. أى أن المادة مصدر الفكر، وليس هناك مصدر وراء ذلك:

انتهى الفلاسفة فى بحثهم عن مصدر المعرفة إلى ثلاثة مذاهب أساسية، هى:

المذهب التجريبى أو الواقعى: وفيه يتم إرجاع كل معرفة إلى التجربة أو الواقع، ويكون المخ بمثابة صفحة بيضاء تُطبَع عليها المعارف المكتسبة، دون أن يكون له أى دور أو تأثير فى اكتسابها أو تشكيلها.

- **المذهب العقلى**: يعتبر أن العقل (بالمفهوم غير المادى) هو صاحب الدور الرئيسى فى المعرفة، عكس المذهب السابق.
- **المذهب النقدى**: يقوم بالتوفيق بين المذهبين، ويعتبر أن المعرفة تحوى العنصرين.

من ذلك نرى أن **نظرية المعرفة Epistemology لم تحسم هذه القضية، فكيف حسمها العلمانى، وتبنى المذهب التجريبى / الواقعى، وأنكر المذهبين الآخرين؟**

سابعًا: يستنبط العلمانى الأخلاق من الطبيعة الإنسانية لا من الدين. ويجعل السعادة واللذة، وليس الفضائل الروحية والنفسية، هى معيارها.

يتحرك الإنسان فى حياته نحو تحقيق «احتياجات خمسة» متدرجة متتابعة، تُعرف باسم **مراتب الاحتياجات Hierarchy of Needs وهى:**

الاحتياجات الأساسية Basic needs: تشمل إشباع غرائز الإنسان الأساسية، من مأكل ومشرب ومأوى وجنس....

الأمن الذاتى Security needs: تحقيق الأمن الحالى والمستقبلى.

ويشترك الإنسان فى النوعين السابقين من الاحتياجات مع الحشرات والحيوانات.

الاحتياج الاجتماعى Social needs: يحاول الإنسان إشباع رغبته فى أن يكون عضوًا هامًّا مُقَدَّرًا داخل الجماعة.

الاحترام الذاتى Self Esteem: يسعى الإنسان لأن يكسب احترامه لذاته، ويتحقق ذلك عندما يشعر أن ما يؤديه لا يستطيع أن يؤديه الآخرون.

تحقيق الذات Self Actualization: البحث عن تحقيق الذات، من خلال ترك بصمة واضحة فى أوسع دائرة، أو فى التاريخ الإنسانى.

تدور جميع الاحتياجات السابقة فى فلك الفردية والأنانية، وقد يلجأ إلى طرق غير مشروعة لتحقيقها، بل قد يتحول فى سبيل ذلك إلى وحش كاسر مدمر للآخرين كما يحدث فى نظم الحكم الديكتاتورية. أى أن الغاية تبرر الوسيلة.

لذلك ينبغى الالتزام بمصدر للأخلاق ينظم تحصيل هذه الاحتياجات **بمعزل عن الأنانية**، ولا يجعل تحقيق السعادة واللذة هو الهدف الأسمى، بل يتجاوز ذلك إلى إشباع الجانب الروحى للإنسان، **ولن يكون ذلك المصدر إلا الدين.**

ثامنًا: رد القوانين إلى المصالح المادية والخبرة التاريخية لا إلى الشرائع الدينية.

من أجل تحصيل الاحتياجات الخمس السابقة، يقوم المُشَرِّعون بسن القوانين لتضبط أداء الأفراد، حتى لا تحدث تجاوزات فى حق الآخرين وحق المجتمع.

وبديهى، بعد أن تم تجاوز الدين، أن يكون مصدر التشريعات هو ما يرى المُشَرِّعون بخبرتهم أنه يحقق المصلحة.

تاسعًا: يُرجع العلمانيون الشعور الدينى إلى الخوف، وليس إلى الفطرة:

ربما لا يدرى العلمانى المعاصر أن نبذ الدين السماوى واعتباره «**خرافة مرعبة**»، يرجع إلى **التجربة المريرة فى الصراع بين العلم والمفاهيم الكَنَسِية المُحَرَّفة فى العصور الوسطى فى أوروبا.**

كذلك لا يدرك العلمانى أن برنامج الإصلاح الدينى Religious Reform الذى وضعه فلاسفة التنوير فى أوروبا فى أعقاب هذا الصراع من أجل بناء الدين الطبيعى، إنما هو **استجابة لإحساس الفطرة البشرية بوجود الإله وبالحاجة إلى التدين.**

عاشرًا: يرفض العلمانيون مفهوم «فطرية» الحس الإلهى والحس الدينى والحس الأخلاقى، ويرون أن الإنسان «اكتسب» هذه المشاعر بنفس الطريقة التى اكتسب بها سماته الأخرى، ألا وهى تحقيق المصلحة، أى أن «الحاجة أم الاختراع». ويقصدون بذلك أن الإنسان فى مواجهة قوى الطبيعة والشرور والآلام بحث عن قوة كبرى يستشعر فى وجودها الدعم والأمان، فطرح على المستوى العقلى والنفسى مفهوم الألوهية ومفهوم الدين. وهذا ما يقصده نيتشه بقوله «**إن الإنسان هو الذى خلق الله !**».

كذلك ابتكر الإنسان المنظومة الأخلاقية عندما وجد أن الالتزام الأخلاقى يحقق له حسن السيرة وخلود الذكر فى الحياة، كما أنه يشعر بالرضا عند مقاومته للشر. ويضيف البعض أن الإنسان يفعل الخير لذات الخير. وأخيرًا وقبل كل شىء إن لم نتمسك بالأخلاق فسنغرق جميعًا.

ولإثبات خطأ هذه التصورات نعرض فى الفصل القادم الأدلة على فطرية مفاهيم الألوهية والتدين والأخلاق[1]. ولتأكيد هذا المعنى، تصف كارين أرمسترونج[2] الإنسان فى كتابها «تاريخ الإله» A History of God، بأنه كائن روحى. وتقترح اسمًا آخر للجنس البشرى ليصبح **Homo religious (الإنسان الدَّين) بدلًا من Homo sapiens (الإنسان العاقل)**. وتؤكد كارين أرمسترونج بذلك أنه من المستحيل استئصال شأفة الدين من النفس الإنسانية كما يطمع الملحدون، أى أن الأمر ليس «وهم الإله» God Delusion كما يَدَّعى ريتشارد دوكنز.

الديانة الطبيعية والفكر العلمانى

الآن ثم العدم...

ذكرنا أن ثلاث فئات من الناس يتبنون الفكر العلمانى، هم الملحدون وأنصار الدين الطبيعى وبعض المؤمنين. وإذا كان أتباع هذه الفئات يختلفون فى تفسير أصل الوجود، فإن الفارق العملى بين الملحدين وأنصار الدين الطبيعى ضئيل للغاية.

---

(١) يُساء استغلال الفطرة الدينية من قِبَل تيارات متعددة. فالديكتاتوريون يدفعون شعوبهم لقبول الواقع المُر الذى يحيونه، طمعًا فى الفردوس فى الحياة الأخرى (فكرة أن الدين أفيون الشعوب).

ويقوم بعض الدعاة بالاستيلاء على التبرعات محققين ثروات كبيرة. كما يستغل الدجالون هذه الفطرة فى أمور مختلفة، كعلاج الأمراض وتفسير الأحلام والسحر وفك السحر.

كذلك يدفع الأصوليون فى كل الديانات أتباعهم للالتزام بمفاهيمهم المتعصبة، وربما يُزَيِّنون له التضحية بأرواحهم لتحقيق السلطة والسيطرة، وإشباع هوسهم. مثال ذلك الكوارث التى قام بها متطرفون مسيحيون فى الولايات المتحدة: فى عام ١٩٧٨ أمر Jim Jones أتباعه بشرب السم فمات منهم ٩٠٠ شخص. وفى عام ١٩٩٣ دفع David Koresh ٧٥ من أتباعه فى تكساس إلى الانتحار حرقًا. وفى عام ١٩٩٤ قتل ٧٤ من أتباع منظمة معبد الشمس أنفسهم. وأيضًا تفجير المهووس Timothy Mcveigh وجماعته لمبنى حكومى فى أوكلاهاما وقتله لمائتى أمريكى.

(٢) كارين أرمسترونج Karen Armstrong: مفكرة إنجليزية مهتمة بالأديان، ولدت عام ١٩٤٤.

تدور كتاباتها حول اتفاق الأديان الرئيسية فى نفس المفاهيم، وأن الحل الجذرى لجميع مشاكل الإنسانية هو «أن تعامل الناس كما تحب أن يعاملوك».

وهى شديدة الاهتمام والاحترام للإسلام، وقد أصدرت عنه عدة مؤلفات عقب أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١. ودعت فى فبراير ٢٠٠٨ إلى تشكيل مجلس عالمى للتوفيق بين المسلمين والمسيحيين واليهود.

فإذا كانت النظرة المتأملة للإنسان ينبغى أن تحيط به من ثلاثة جوانب: المصدر ـ المسار ـ المآل، فإن **الملحدين وأنصار الدين الطبيعى يختلفان فى تفسير «مصدر» الإنسان** (الخالق هو الطبيعة أم الإله)، لكنهما ينتهيان إلى أننا نحيا فى كون مغلق ليس للإله دور فيه سواء فى حياتنا أو بعد الموت. وقد أدى ذلك إلى **اتفاقهما فى «المسار»، فجعلا هدفهما الأسمى هو تحقيق سعادة الإنسان فى الحياة، كما اتفقا على أن المآل بعد الموت هو العدم!**

لا شك أن من يتبنى هذا المسار (السعادة) وهذا المآل (العدم) قد وضع نفسه فى **تناقض واضح. فأية سعادة يستشعرها إنسان يعلم أن موته معناه العدم**، وأنه يمشى على الأرض حاملًا كفنه بين يديه، انتظارًا لتنفيذ حكم الإعدام ثم الفناء الصادر عليه.

إن بنية الإنسان النفسية ترفض أن يخسر كل شىء بالموت، **ولن يتحرر الإنسان من الخوف من الموت والعدم، إلا بإدراك يقينى بانتقاله لحياة أخرى خالدة.**

رحلة أنتونى فلو فى الميزان

إذا تأملنا رحلة أنتونى فلو العقلية، نجد أنه انتهى إلى التالى: «**هناك إله**» أبدى أزلى، مطلق العلم والقدرة، غير مادى لا يحده زمان ولا مكان، وأنه خلق الوجود من العدم. كما **يتفق مع الديانات السماوية أيضًا فى وجود هدف عام (غائية)** وراء خلق الكون، وهو أن يكون مُعَدًّا لخلق الحياة واستقبال الإنسان.

ومع ذلك، **لم يكمل أنتونى فلو المشوار** ليلتقى مع المتدينين فى نهاية الرحلة، ويمكن أن نجمل الاختلاف فى ثلاث نقاط:

أولًا: يرى أنتونى فلو أن القوانين الطبيعية كافية لإدارة شئون الكون دون الحاجة إلى متابعة إلهية، وهو ما يُسمى «**بالكون المُغلق**» الذى ليس فى حاجة لتدخل من خارجه. وهذا هو نفس ما توصل إليه أرسطو عندما أراد أن ينزه الإله، فقال: إنه لا ينبغى للإله أن ينشغل بالمخلوقات، بل ينشغل بما يليق به، ينشغل بذاته.

أما الديانات السماوية، فترى **أن الله كان وما زال وسيظل متابعًا ومتحكمًا فى الكون وفى الإنسان**، وأنه أقرب إلينا من أنفسنا، وأن هناك علاقة تواصل مستمرة بين الله والإنسان، تصل إلى حد الحوار المتبادل والطلب والاستجابة (الدعاء). لذلك إذا ترك الله الكون لحظة واحدة، لانهارت القوانين الطبيعية التى تُسَيِّره، ولتلاشى الوجود تمامًا.

ثانيًا: لا يُقر أنتونى فلو بالتواصل بين الإله وبين الإنسان. ومن ثم، لا يعترف بالديانات السماوية التى حققت هذا التواصل عن طريق الوحى.

فهو يرفض **الإسلام** لاعتقاده أن تصوره عن الله يشبه تصور **اليهودية**، فى أنه **إله منتقم جبار** شديد البطش لا يعبأ بمخلوقاته. ويصف فلو موقفه هذا بأنه لا يستطيع أن يؤمن بصدام حسين على مستوى كونى «Cosmic Saddam Hussein» ! يبطش بالإنسان ويناصر الإرهاب!!

كذلك يرفض أنتونى فلو **المسيحية**؛ لأنه **لا يقبل فكرة تَجَسُّد الإله فى هيئة بشرية**، هو المسيح عليه السلام. فهو لا يتصور إمكانية أن يتجسد (يحل - يفيض - يلد) الإله المنزه الذى هو روح خالد لا يحده زمان ولا مكان، خالق للطبيعة وقوانينها، فى صورة إنسان محدود، يعانى من ظلم الإنسان (اليهود)، وتجرى عليه قوانين الطبيعة كلها، بما فيها الموت، مهما كانت التفسيرات والمبررات التى يسوقها رجال اللاهوت المسيحى.

ثالثًا: يرفض أنتونى فلو فكرة البعث بعد الموت، والحساب والجزاء على ما نفعل من خير أو نقترف من شر، مما يعنى حياة خالدة فى الجنة أو فى النار.

ويقول أنتونى فلو: إنه إذا كان قد وجد الدليل على وجود الإله الخالق للكون من عدم، فليس لديه دليل مادى أو عقلى على أن أمورًا ما تحدث بعد الموت.

من النقاط السابقة يمكننا اعتبار أنتونى فلو **من أنصار مفهوم الدين الطبيعى Deism**، الذى يؤمن بالله دون الأديان، كما يمكن أن **يُصَنَّف كأحد العلمانيين المعتدلين**.

لكننى أرى أنه يختلف عن هؤلاء جميعًا فى أمر شديد الأهمية، وهو أنه **لا يزال يبحث بصدق عن الحق، وأنه على استعداد للإيمان بدين من الأديان إذا قاده الدليل إلى ذلك**.

الفصل الخامس

الإيمان والبيولوجيا – ١
من الجينات إلى المخ

ونحن فى عصر الفتوحات العلمية الجبارة، وبعد مرور عشر سنوات من القرن الحادى والعشرين، لا تكتمل «**رحلة عقل**» دون التأمل داخل الإنسان، لنرى هل للإيمان بالله وبالدين، وهل للمفاهيم الروحية، **جذور بيولوجية**؟ خاصة وقد رأينا كيف اقترحت كارين أرمسترونج على البيولوجيين أن يطلقوا علينا اسم **الإنسان الدَيِّن Homo religious بدلًا من الإنسان العاقل Homo sapiens**.

ويدور التساؤل نفسه عن الجذور البيولوجية للمنظومة الأخلاقية، إذ يعتقد معظم المتدينين أن المرجعية الوحيدة للأخلاق هى الأديان، التى جاءت لتُعَرِّف الإنسان الصوابَ والخطأ، ويظنون أن الملاحدة يحيون فى فراغ أخلاقى، وأنهم بشر سيئو الطباع وعدوانيون.

بهذين التساؤلين نبدأ دراستنا حول العلا ـة بين الإيمان والبيولوجيا.

فى هذا الفصل، نعرض ما كشفه العلم من معارف لها علاقة بقضيتنا، وذلك فى مجال **الجينات** وفى مجال **بنية ووظائف المخ**. وفى الفصل القادم، نطرح للبحث **العلاقة بين القلب وبين الإيمان**.

obeikandl.com

كائن عاطفى، خَلوق متدين

يخبرنا إدوارد ويلسون[1] Edward O.wilson (أستاذ البيولوجيا الاجتماعية فى جامعة هارفارد) أن **الإنسان عاطفى بطبعه**، وأن هذا الحس **مُسَجَّل فى جيناتنا**.

كما يخبرنا جيمس واطسون James watson[2] فى كتابه DNA، أن **المفاهيم الأخلاقية** Moral Codes **مدموغة فى جينات الإنسان** منذ نشأته، وقبل وجود الديانات.

كذلك يخبرنا روبرت وينستون[3] Robert Winston فى كتابه «الفطرة البشرية»، **أن الحس الدينى جزء من بنيتنا النفسية، وأنه مسجل فى جيناتنا**، وأنه يتراوح قوةً وضعفًا من إنسان لآخر.

ولا شك أن هناك علاقة قوية بين عناصر هذا الثالوث: كَوْن الإنسان عاطفيًا بطبعه، وتبنيه للمفاهيم الأخلاقية، واستجابته للمشاعر الدينية. وقد أثبت علماء النفس والتربويون أن هذه المنظومة الثلاثية ترجع إلى شعور فطرى شديد الأهمية، ألا وهو **مفهوم التعاطف**.

ما هو التعاطف...
وكيف يتشكل فى نفوسنا؟[4]

اغرورقت عينا الطفلة سوزى، البالغة من العمر تسعة أشهر، بالدموع عندما رأت طفلًا يقع على الأرض، زحفت سوزى نحو أمها تلتمس منها التخفيف عن الطفل. أما مراد (١٠ أشهر) فقد ذهب ليحضر لعبته (دبدوب) ليعطيها لصاحبه الذى كان يبكى، وعندما استمر الصغير فى البكاء أخذ مراد يخفف عنه.

---

(١) إدوارد ويلسون: ولد بأمريكا عام ١٩٢٩، من المهتمين بالفلسفة والأديان وحقوق الإنسان. حصل على جائزة بوليتزر العالمية مرتين.
يُعتبر كتابه وحدة العلوم Consilience من أحسن ما كُتب عن العلاقة بين البيولوجيا والطبيعة الإنسانية.

(٢) جيمس واطسون: ولد فى أمريكا عام ١٩٢٨. والتحق بجامعة شيكاغو وعمره ١٥ عامًا. حصل على الدكتوراه فى علم الوراثة عام ١٩٥٠. حصل على جائزة نوبل عام ١٩٦٢ (مشاركة مع فرانسيس كريك وموريس ويلكنز) لتوصله إلى اكتشاف تركيب جزىء الدنا DNA. وما زال يعمل فى مختلف مجالات الأبحاث البيولوجية.

(٣) روبرت وينستون: إنجليزى، ولد عام ١٩٤٠.
يعمل كأستاذ وعميد معهد أمراض وجراحة النساء والتوليد بلندن، وله أبحاث مشهورة فى مجال أطفال الأنابيب والحيوانات المنوية والخلايا الجذعية. ويشغل منصب رئيس الاتحاد البريطانى لتقدم العلوم. وهو كاتب وإعلامى شهير.

(٤) عن كتاب المخ ذكر أم أنثى؟! الفصل الثانى عشر. للدكتور عمرو شريف والدكتور نبيل كامل. مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٩.

يُعَبِّر هذان الحادثان عن التعاطف والاهتمام، ويُظهران أن **جذور هذه المشاعر ترجع إلى الطفولة المبكرة**. فالأطفال يشعرون منذ **اليوم الأول** لولادتهم بالتوتر عند سماع طفل يبكى، وبعد **شهور قليلة** يظهر على الأطفال الانزعاج كرد فعل لما يزعج غيرهم، فينخرطون فى البكاء إذا سمعوا بكاءً أو رأوا دموع طفل آخر.

وعندما يتخطى الأطفال **عامَهم الأول** تهدأ هذه المشاعر، يدركون أن تعاسة مَن حولهم لا تخصهم. ومع ذلك، يبدو عليهم الارتباك أمام معاناة الآخرين.

فى بحث أجراه «مارتن هوفمان» Martin L. Hoffman (العالِم النفسى فى جامعة نيويورك) وجد أن الأطفال **بعد عامهم الأول** يقلدون هموم وأحزان الآخرين، فى محاولة لكى يدركوا بشكل عملى ما يشعر به هذا الآخر. فتجد الطفلة تضع إصبعها فى فمها إذا جُرح إصبع صديقتها، وتجد طفلًا يكفكف عينيه عندما يرى أمه تبكى. هذه «**المحاكاة الآلية**» عند الصغار[1] تُـجَسِّد معنى «**التعاطف أو المشاركة الوجدانية**» Empathy[2].

وعندما يبلغ الأطفال **عامين ونصف العام**، يخف تقليدهم لمعاناة الآخرين شيئًا فشيئًا، ويبدأ ظهور **الاختلاف بين الأطفال فى حساسيتهم تجاه معاناة غيرهم**، فيحتفظ بعض الأطفال بتعاطفهم مع هذه المعاناة بينما يتجاهلها البعض الآخر.

كيف ينضج التعاطف الفطرى؟...

التوافق...

يؤكد العالِـم النفسى «دانييل شتيرن»، على أهمية تبادل النظرات واللمسات وتكرار المداعبات بين الوالدين والطفل. ويعتقد أن غرس المنظومة الأخلاقية يتم خلال هذه اللحظات الحميمة، التى تجعل الطفل يُدرك أن مشاعره مقبولة ومتبادَلة، وقد أطلق على هذا التجاوب اسم «**التوافق**».

---

(١) أخبرنى صديق كان حاضـرًا أثناء قيامى بخياطة جرح بذراع أخيه، أنه كان يشعر بوخز الإبرة فى ذراعه هو، ويُعرف هذا الشعور **بالتقمص الوجدانى**. كذلك فإن بعضنا يقوم بوضع يده على عينه بطريقة لاإرادية إذا رأى شخصًا يتلقى ضربة على عينه. لا شك أن هذه أمثلة من المحاكاة الآلية التى تستمر معنا بعد مرحلة الطفولة.

(٢) استخدم «إيه. بى. تيتشنر» A.B.Tichener عالم النفس الأمريكى، اصطلاح Empathy أول مرة فى عشرينيات القرن العشرين. ويقول تيتشنر: **ينبع التعاطف من محاكاة معاناة الآخرين عن طريق استحضار مشاعر الآخر إلى داخل نفس المتعاطف**. لقد حاول تيتشنر إيجاد كلمة تختلف عن كلمة «**عطف**» **Sympathy**، التى تقف عند **تَفَهّم** شخص لما يشعر به شخص آخر من أحزان، ولكن دون مشاركة أيًّا كانت. **أما التعاطف Empathy** فهو أن **تضع نفسك مكانه تمامًا**، وكما يقول التعبير الإنجليزى أن تكون: In the other's own Shoes.

ويرى «شتيرن» أن المواقف المتكررة من **التوافق، أو عدم التوافق**، بين الوالدين وأطفالهما تشكل سلوكياتهم التى يتعاملون بها مع الآخرين طوال حياتهم. إن هذه اللحظات قد تكون أكثر تأثيرًا من أكبر الأحداث التى تمر بهم فى طفولتهم.

كذلك أظهرت الدراسات[1] أن الأطفال الأكثر تعاطفًا هم الذين **لَفَت والداهم انتباههم إلى ما تسببه تصرفاتهم من ضيق للآخرين**. كأن يقال للطفل إذا أساء التصرف مع أخته «انظر كيف جعلتها تشعر بالحُزن»، بدلًا من القول «لقد كان سلوكك هذا عنيفًا».

كما ينمو تعاطف الأطفال عند **رؤيتهم لرد الفعل الإيجابى للمحيطين بهم** تجاه شخص يمر بمحنة، فتتكون لديهم الرغبة فى تقديم المساعدة للآخرين.

إن هذا الأسلوب لتنشئة أطفالنا يؤدى إلى تنمية مشاعر التعاطف لديهم، من خلال إنضاج دوائر عصبية معينة فى أمخاخهم. فعلى سبيل المثال، عندما تسمع الأم بكاء طفلها، وتحمله بين ذراعيها وتهزه حتى يهدأ، فإن هذا **التناغم** يُحَفِّز تكوين الوصلات العصبية بين الفص الأمامى للمخ (المسئول عن التحكم فى انفعالاتنا وسلوكياتنا) وبين لوزة المخ Amygdala (المركز المسئول عن الانفعالات)، مما يجعل هذا الفص بمثابة مفتاح التحكم Control Switch فى الانفعالات والسلوك. ومن ثَمَّ، يتميز هذا الطفل طوال حياته – مقارنة بغيره – بالقدرة على التحكم فى انفعالاته وتبنى السلوك الأخلاقى عندما يتعرض للتوتر.

مثال بيولوجى على فطرية الأخلاق

من الظواهر الراسخة وشديدة الدلالة على فطرية المفاهيم الأخلاقية، ما يُعرف بظاهرة **العزوف عن زواج المحارم Incest Avoidance**.

ولا يقف تحاشى هذه العلاقة عند الإنسان، بل يمتد إلى الحيوانات، وأيضًا النباتات[2] ! مما يعنى أن لهذا المفهوم الأخلاقى فائدة بيولوجية.

(١) أُجريت فى المعهد القومى للصحة النفسية بالولايات المتحدة، وقامت بها كل من «ماريان راديك يارو» Marian Radek Yarrow، و«كارولين شان واكسلر» Carolyn Shan-Waxler المتخصصتين فى طب نفس الأطفال.

(٢) لاحَظ العلماء فصائل من الفئران لا تتزاوج فيها الذكور والإناث المولودين من نفس الأم، ويتم التعرف على الإخوة من خلال رائحة معينة تميز صغار كل أم.
كما تتحاشى قِرَدة الشمبانزى والبابون إقامة علاقة جنسية بين الإخوة والأخوات، وبين الأصول والفروع.
وتستخدم الكثير من النباتات آليات ذكية لتمنع التلاقح بين حبوب لقاح وبويضات نفس الزهرة.

ولتفسير هذا العزوف، يطرح علماء الاجتماع ما يُعرف بتأثير ويسترمارك[1] Westermarck effect، الذى يوضح أن «الأطفال الذين تربوا معًا لا تنشأ بينهم مشاعر جنسية، حتى ولو لم يكونوا إخوة». **ونلاحظ ذلك فى عائلاتنا**، عندما يُطرح أمر زواج شاب من فتاة تربيا معًا (قرابة أو جِيرة)، كثيرًا ما يُجيب أحدهما: إنى أشعر كأنه أخى / أختى[2].

هناك اتفاق فى الأوساط العلمية على إرجاع تأثير ويسترمارك إلى **العوامل البيولوجية** فى المقام الأول[3]، فقد ثبت أن هناك مواد كيميائية تُفَرز فى عَرَق كل منا، تُعرف بالفيرومونات Pheromones، يستقبل رائحتها المحيطون، فتؤثر على مراكزهم المخية المسئولة عن الميل إلى الجنس الآخر. وقد يؤدى هذا إلى زيادة الميل بين غير الأقارب فينشأ الحب، كما يؤدى إلى ظهور تأثير ويسترمارك بين من تربوا معًا.

وقد ثبت أن حساسية الدوائر المخية لنوع معين من الفيرومونات مدموغة فى جيناتنا، وكلما زادت درجة القرابة كان العزوف الفطرى أشد.

جين الألوهية The God Gene

طرحت مجلة تايم Time، فى عدد ٢٥ أكتوبر ٢٠٠٤، موضوعًا مهمًّا بعنوان «جين الألوهية»[4]، ويدور هذا الموضوع حول أن **الشعور بالإله، والرغبة فى التوجه إليه بالعبادة،** وكذلك **الشعور بوجود النعيم والعذاب فى حياة أخرى بعد الموت**، أمور فطرية عند البشر، فى كل الحضارات عبر التاريخ وعبر الجغرافيا.

ومن أوضح الأمثلة على ذلك، اهتمام الفراعنة الشديد بالموت والتحنيط وما بعد الموت.

---

(١) نسبة إلى الفيلسوف وعالم الاجتماع الفنلندى إدوارد ويسترمارك Edvard westermarck (١٨٦٢ - ١٩٣٩)، وقد ذكر هذا التأثير عام ١٨٩١ فى كتابه The History of Human Marrage.

(٢) تقوم العائلات الغنية فى تايوان بتبنى الفتيات الصغيرات اللاتى يناسبن أولادها الصغار، ليتربوا معًا تمهيدًا لتزويجهما فيما بعد. وقد لاحظ الباحثون أن نسبة الإنجاب تكون أقل، وأن نسبة الطلاق تكون أكبر منها عن الزيجات التقليدية.

وفى الكيبوتسات فى إسرائيل (المزارع الجماعية)، يتم تربية أولاد وبنات من عائلات مختلفة معًا كالإخوة، ويؤدى ذلك إلى عدم ميل كل من الجنسين للزواج من الآخر.

ولا شك أن زواج ملوك الفراعنة من محارمهم يمثل ظاهرة استثنائية، بغرض المحافظة على نقاء الدم الملكى الإلهى! وقد أدى ذلك إلى نتائج غير محمودة بالنسبة لذرياتهم.

(٣) يأتى الالتزام الاجتماعى (الذى يتحمس له فرويد) فى مرتبة تالية.

(٤) طرحت المجلة هذا الموضوع، نقلًا عن كتاب بنفس الاسم، نتحدث عنه بعد قليل.

ويظهر ذلك فى المعابد الضخمة وفى رسوم المقابر الفرعونية، وكذلك البرديات مثل كتاب الموتى. وقد أظهر علم الآثار اهتمامًا مشابهًا عند القدماء فى الهند والصين وأمريكا الجنوبية وإسبانيا وفرنسا وبريطانيا والسويد.

ويؤكد مايكل شيرمر[١] Michael Shermer (رئيس تحرير مجلة الشَّكَاك Skeptic) أن **الشعور بثنائية الجسد والروح أمر فطرى مزروع فينا منذ ولادتنا.**

ويذكر بول بلوم (أستاذ علم النفس بجامعة ييل بالولايات المتحدة):

«إننا كائنات ثنائية (جسد وروح)، دُمِغَ فى جيناتنا (HardWired) **الإيمان بحياة أخرى** تحيا فيها الروح بعد مغادرة الجسد الفانى. إن هذا الإيمان هو أصل الفطرة الدينية»[٢].

والآن إلى كلمة البيولوجيا[٣]

يخبرنا دين هامر Dean Hamer (رئيس وحدة أبحاث الجينات بالمعهد القومى للسرطان بالولايات المتحدة) أن الإنسان يرث مجموعة من الجينات التى تجعله مستعدًا لتقبل مفاهيم **الألوهية والدين God Gene Hypothesis.**

وقد خرج هامر بهذا المفهوم بناء على الأبحاث التى أجراها على جينات السلوك، وعلى دراسات بيولوجيا الأعصاب وعلم النفس. ونشر نتيجة هذه الأبحاث فى كتابه The God Gene: How faith is Hardwired in our genes، عام ٢٠٠٤[٤].

وكما تتوقع، واجه كتاب دين هامر «جين الألوهية» معارضات من بعض الأوساط العلمية. وربما يرجع ذلك إلى اسم الكتاب الذى استفز الماديين، بالرغم من أن ما يطرحه من مفاهيم علمية ليس بجديد!

---

(١) مايكل شيرمر: أستاذ الاقتصاد بجامعة كلاريمونت - أمريكى، ولد عام ١٩٥٤، مهتم بالفلسفة والعلوم، يرأس تحرير مجلة Skeptic التى تصدرها جمعية Skeptics التى تضم ٥٥,٠٠٠ عضو، وتهتم بتنقية العلم مما يحيط به من ضلالات.

(٢) جاء هذا الطرح فى كتابه: Descartes baby. How the Science of child development explains what makes us Human الذى نشر عام ٢٠٠٤.

(٣) من المهتمين بهذا المجال أ. د. حسين أحمد أمين، أستاذ الجراحة. وقد أصدر فى ذلك كتابًا باللغة الإنجليزية (رجعنا إليه) بعنوان Genes and Human Nature, 2007.

(٤) من أهم الجينات المسئولة عن هذا الاستعداد هو الجين المعروف بـ VMAT2. هذا الجين مسئول عن تكوين ناقل كيميائى بالمخ، يُعرف باسم Vesicular monamine transporter. وهو مسئول عن تحديد مستوى عدد من الناقلات الكيميائية التى تنظم عمل المخ (السيروتونين - الدوبامين - النورأدرينالين).
كما أن له دورًا فى توجيه مراكز المخ المسئولة عن المشاعر الروحية والمفاهيم الغيبية.

فقبل كتاب دين هامر بعشرين سنة، طرح كلود كلونجر[1] Claud R. Cloninger (أستاذ علم النفس والطب النفسى وعلوم الوراثة بجامعة واشنطن) «**نظرية المزاجات والأخلاق الوراثية**»[2] والتى صارت من المفاهيم الثابتة فى الأوساط العلمية.

فى هذه النظرية، طرح كلونجر **ثلاث مجموعات من الأخلاق الوراثية** (تمهد جيناتنا للتخلق بها) التى تحدد ميول البشر الإنسانية والأخلاقية والروحية. وهذه المجموعات هى:

١ - **مصداقية الذات** Self-Directedness: وتشمل وضوح الأهداف Purposefulness، وكَوْن الإنسان أهلًا للثقة Reliable (وهى صفات خاصة بشخصية الإنسان).

٢ - **التعاون** Cooperativeness: وتشمل استعداد الإنسان لمساعدة الآخرين Helpful، وتحملهم Tolerant والعزوف عن الانتقام Non-Revengeful (وهى صفات تحكم تعامل الإنسان مع الآخرين).

---

(١) وُلد د. كلود كلونجر Claud Robert Cloninger فى الولايات المتحدة عام ١٩٤٤. وهو رائد فى أبحاث الجينات وبيولوجيا الأعصاب والطب النفسى والأمراض النفسية، وقد شغل منصب الأستاذية فى هذه التخصصات، وشغل أيضًا منصب مدير مركز الصحة النفسية، فى جامعة واشنطن. وهو الناشر الرئيسى لعدد من المجلات العلمية المحترمة فى الطب النفسى والوراثة، واشترك فى تأليف أربعة كتب وأكثر من ٤٠٠ بحث علمى.
وقد كُرِّم بالعديد من الجوائز، منها العضوية مدى الحياة فى الأكاديمية الأمريكية للعلوم، وحصل عام ٢٠٠٩ على جائزة اتحاد الأمراض النفسية الأمريكى لجهوده لفهم الإنسان بشكل متكامل (جسم - عقل - نفس - روح).

(٢) **نظرية المزاجات والأخلاق الوراثية Temperament and Character Inventory**: تحدد هذه النظرية **أربعة مزاجات وثلاث مجموعات من الأخلاق الوراثية**، تتحكم فيها جيناتنا ويتوارثها الأبناء عن الآباء. وتوجه هذه المزاجات والأخلاق ما سيكون عليه سلوك الإنسان وأخلاقه وتدينه !!، كما تحدد قابليته للإصابة ببعض الأمراض، واستعداده للإدمان وخاصة الكحوليات.
وتُوَرَّث كل سمة من هذه السمات السبع بشكل مستقل عن السمات الأخرى، وتتفاعل فيما بينها لتشكل شخصية الإنسان.
وقد اعتمد كلونجر فى هذه النظرية على أبحاثه فى علم الجينات وبيولوجيا الأعصاب، وليس على الدراسات النفسية والإحصائية فقط. وهذا هو سبب قوة دلالة هذه النظرية.
وبالإضافة للمجموعات الثلاث من الأخلاق الوراثية التى نذكرها فى الكتاب، تطرح النظرية **أربعة مزاجات** تحدد سلوك الإنسان واستعداداته المَرَضية، وهى:
١ الميل لتحاشى الضرر Harm Avoidance.
٢ البحث عن الجديد Novelty Seeking.
٣ الاعتماد على المكافأة (مادية أو معنوية) Reward Dependence.
٤ - المثابرة Persistence.
ويقع مركز هذه المزاجات فى مخ الإنسان فى الجهاز الحوفى والقشرة المخية البدائية، وهى المناطق المسئولة عن عادات الإنسان ومشاعره وسلوكه الغريزى.

٣- **تجاوز الذات (السمو النفسى)** Self-Transcendence ويشمل الميول الروحية Spiritualness والإبداع Creativity **وإنكار الذات** Self - forgetfulness **والبعد عن المادية** Non-Materialism (وهى صفات خاصة بالمفاهيم العلوية).

وتقوم جينات معينة (فى الجنين وفى مرحلة الطفولة) بتكوين الدوائر العصبية المسئولة عن هذه الصفات فى المراكز الخاصة بالتعلم وبالمفاهيم المُسْبَقة **فى القشرة المخية الحديثة Neocortex، التى يتميز بها الإنسان عن باقى الثدييات.**

وإذا تأملنا هذه المجموعات الثلاث من الأخلاق، وجدنا أنها تمثل **الأساس النفسى لفطرة التدين وفطرة المنظومة الأخلاقية فى الإنسان.** ثم تقوم التربية بتنمية هذه التوجهات.

ويؤمن د. كلوننجر أنه **ينبغى أن ننظر إلى الإنسان كوجود متكامل** (جسم - عقل - نفس - روح). وينبغى عند دراسة الشخصية معرفة حدود كل من هذه المكونات الأربعة، وتحديد العلاقة بينها.

كما يؤمن أن الإنسان **يستطيع أن يصير أفضل عقليًا وروحيًا بالتدريبات العقلية والروحية،** كالتَفَكُّر والتأمل والصلاة ومجاهدة النفس، تمامًا كما يبنى جسمه بالتمرينات الرياضية.

المفاهيم الدينية والتنشئة

إذا كان العلم قد أثبت أن إدراك مفاهيم الألوهية والدين، وكذلك الشعور بثنائية الروح والجسد، وأيضًا المنظومة الأخلاقية، موجودة فى جيناتنا منذ فجر البشرية وعند مولد كل إنسان، فلماذا نجد بعض الناس أكثر تدينًا من البعض الآخر؟ **وما دور التنشئة فى تبنى المفاهيم الدينية؟**

إن ذلك يشبه تَعَلُّم الإنسان اللغة. فاللغة ليست كلمات القاموس الذى نحتفظ به فى المكتبة، فالقاموس يحوى فقط الكلمات التى تستخدمها كل لغة، وهناك المئات من اللغات التى يستخدمها البشر.

أما **أصل اللغة، فهو طريقة بنائنا للجملة Syntax.** وهذه الطريقة تتفق فيها جميع اللغات، **ومدموغة فى جيناتنا.**

وتظل جينات اللغة كامنة فى الأطفال، وعند سن السنتين، تنشط هذه الجينات فتزداد القدرة اللغوية للطفل بشكل ملحوظ، ويكون إدراك الفروق الزمنية (الماضى والمضارع والمستقبل) آخر المهارات اللغوية ظهورًا.

أما ما يكتسبه الطفل من بيئته، فهو مفردات وقواعد اللغة.

إن جوهر الدين مثل جوهر اللغة، أمر عالمى يتفق فيه جميع البشر، فهو مسجل فى جيناتنا. أما نوع الدين، ومدى تفهم الفرد لمنظومته الدينية وتمسكه بها، فهو أمر مكتسب من البيئة.

التدين والمخ

يواجه الماديون من الدارسين لبيولوجيا المخ موقفًا صعبًا:

فبينما يبذلون جهودًا مضنية لإثبات أن **العقل** (الإدراك والتفكير وإدراك الذات...) نشاط مادى، سيتوصل العلم لتفسيره فى ضوء **نشاط المخ الكهروكيميائى**، أصبح عليهم الآن أن يفسروا نشاطات تفوق العقل غموضًا، إنها **المشاعر الروحية**.

الموضوع ساخن للغاية، وأصبح يُطرح مؤخرًا بشكل مكثف، وأجريت حوله مئات الأبحاث، وصدرت عنه عشرات الكتب.

بيولوجيا العقل

لدراسة الوظائف العقلية والنفسية والشعورية والروحية للمخ، ينبغى أن نعرف شيئًا عن البنية التشريحية والوظيفية لمراكز المخ العليا. ونمهد لذلك **بقصة ميلودرامية معروفة عند علماء النفس والاجتماع**، إنها قصة الفتاة ماتيلدا.

إنها مأساة بكل ما تحمل الكلمة من معانٍ. فقد أرادت «ماتيلدا كرابترى» الصبية البالغة من العمر أربعة عشر عامًا، أن تفاجئ والديها بمقلب مضحك، فاختبأت فى دولاب الملابس، على أن تخرج منه وهى تصيح «بوو» فى اللحظة التى يعود فيها الوالدان من سهرة مع بعض الأصدقاء.

كان «بوبى كرابترى» وزوجته يعتقدان أن ماتيلدا خارج المنزل عند أصحابها، لذلك عندما سمع الأب أصواتًا عند دخوله المنزل، اتجه إلى المكان الذى يضع فيه مسدسه عيار ٣٥٧، وأخذ المسدس وسار متجهًا إلى حجرة النوم ليضبط المتسلل بداخلها.

وعندما قفزت «ماتيلدا» من الدولاب مداعِبة والديها، أطلق «كرابترى» النار فأصابها فى رقبتها، ثم فارقت الحياة بعد اثنتى عشرة ساعة من الحادث.

إن تغليب الانفعال على الإدراك والعقل ليس أمرًا نادر الحدوث. انظر إلى ما يحدث أثناء مشاجرة بين شخصين، قد يصل الغضب بأحدهما إلى أن يستل سكينًا يوجه به طعنة قاتلة لغريمه، دون النظر إلى ما سيترتب على ذلك من الحكم بإعدامه.

فى دماغنا عقلان.. وأيضًا ذاكرتان

ترجع هذه المآسى إلى أن لدينا نظامين مختلفين تمامًا للمعرفة والإدراك، يتفاعلان فيما بينهما لتشكيل حياتنا العقلية والشعورية. النظام الأول هو **العقل المنطقى** Rational Mind، وهو مسئول عن فهم الأمور الواضحة فى وعينا، ومسئول كذلك عن التفكير بعمق وتأمل. ومركز العقل المنطقى هو **القشرة المخية الحديثة Neocortex** [1].

وإلى جانب هذا العقل، هناك نظام آخر للمعرفة، نظام قوى ومندفع، يتعامل مع مشاعرنا ومع الأمور المبهمة والغامضة فى فكرنا، بل ويتعامل مع مشاعر وأمور لا ندركها على المستوى الواعى على الإطلاق، هذا النظام هو **العقل الانفعالى (العاطفى) Emotional Mind**. ومركزه **لَوزة المخ Amygdala** [2].

كذلك تبين أن لكل من هذين العقلين **مركزًا مستقلًا لحفظ المعلومات (ذاكرة منفصلة)**. فقد أكدت الأبحاث أن «**منطقة فرس البحر Hippocampus**» (أحد أجزاء الجهاز الحوفى فى

(١) إن كل إنجازات الحضارة الإنسانية من فكر وعلم وفن وثقافة إنما هى من نتاج العقل المنطقى، المتمركز فى القشرة المحيطة بالمخ البشرى.

وتقوم القشرة المخية الحديثة أيضًا بتوجيه مشاعر الإنسان، فقد أدى وجود هذه القشرة – مثلًا – إلى نمو رابطة الحب بين الأم وطفلها، مما حقق الالتزام بتربية الأطفال لسنوات طويلة سمحت بنشأة الحضارة الإنسانية وتطورها.

لذلك فإن الكائنات التى ليس لها قشرة مخية متطورة تفتقر إلى عاطفة الأمومة، مثل الزواحف التى تختبئ صغارها غريزيًا من أمهاتها بعد ولادتها خشية أن تلتهمها الأم.

(٢) تقع فى مركز المخ منطقة تُعرَف بالجهاز الحوفى Limbic System، وهى تتكون من عدة تراكيب أهمها لوزة المخ Amygdala وفرس البحر Hippocampus.

ولوزة المخ هى مركز الوظيفة الانفعالية والعاطفية، فهى التى تتحكم فينا حين تسيطر علينا الشهوة أو الغضب أو الوله فى الحب أو التراجع خوفًا أو....

وإذا أصاب اللوزة المخية خلل، تكون النتيجة عجزًا هائلًا فى التعرف على المشاعر والأحداث العاطفية، وهى الحالة التى يُطلق عليها «العمى الانفعالى» Affective Blindness.

المخ) هى المسئولة عن تسجيل الأمور الـمُدرَكَة حسيًّا وعقليًّا، لتقوم بعد ذلك بتمرير المعلومة إلى القشرة المخية، حيث يتم فهمها وتسجيلها بشكل أكثر تفصيلًا ودقة.

وفى الوقت نفسه، تقوم لوزة المخ بتخزين الدلالات العاطفية التى تصحب تلك التفاصيل والوقائع (ذاكرة العقل الانفعالى). فمثلًا تقوم منطقة فرس البحر والقشرة المخية بالتعرف على وجه إنسان ما، لكن اللوزة المخية تضيف إلى هذا التحديد الدقيق ما سبق أن سجلته عن حقيقة مشاعرك نحوه، وهى أنك لا تحب هذا الشخص مثلًا[1].

وهذا يعنى **أن المخ يحتوى على مركزين للذاكرة: مركز خاص بالوقائع المادية، وهو منطقة فرس البحر ثم القشرة المخية. ومركز ثان خاص بالانفعالات المصاحبة للوقائع، وهو «اللوزة المخية»**.

التناغم بين التفكير والانفعال= التعاون بين العقلين

يقترب التقسيم إلى «منطقى» و«انفعالى» من **التمييز الشائع بين العقل والقلب**. فحين يعرف الإنسان بقلبه أن شيئًا ما صحيح، فهذا نوع من المعرفة لا يلغيه عدم إدراكها بالعقل المنطقى.

وهناك **توازن دقيق بين العقل المنطقى والعقل الانفعالى**. لكن إذا تجاوزت المشاعر حد التوازن، فإن **العقل الانفعالى يتسيد الموقف** ويكتسح العقل المنطقى[2].

كذلك أثبت الباحثون أن اللوزة المخية (العقل الانفعالى) تقوم بفرض سيطرتها على الجهاز العصبى اللاإرادى وتوجهه للقيام برد الفعل، قبل أن تصل المعلومة إلى القشرة المخية (العقل المدرك)، كما حدث فى حالة ماتيلدا.

---

(١) مثال آخر: نفترض أننا حاولنا تخطى سيارة فى طريق سريع، وكنا على وشك التصادم بسيارة أخرى قادمة فى الاتجاه المضاد، هنا يحفظ فرس البحر والقشرة المخية تفاصيل الحادث، مثل «كم كان عرض الطريق» و«من كان معنا أثناء الحادث»، و «ماذا كان شكل السيارة الأخرى»، أما لوزة المخ فستبعث بدفقة من القلق والتوتر كلما حاولنا تخطى سيارة أخرى فى ظروف مشابهة.

(٢) يرجع ذلك إلى أن الإشارات التى تحملها الدوائر العصبية من اللوزة إلى القشرة المخية أكثر غزارة من الإشارات العكسية.

إن قنوات الاتصال (الدوائر العصبية) بين القشرة المخية وبين اللوزة هى محور كل المعارك، وكذلك اتفاقات التعاون، بين العقل والقلب، أى بين التفكير والشعور. إن خللًا أو توترًا يصيب الدوائر العصبية الموصلة بين هذه التراكيب الدماغية، والتى يحكمها تناغم دقيق، يؤدى إلى اضطراب نفسى – عصبى شديد.

ومن خلال الاتصالات بين لوزة المخ وبين القشرة المخية والجهاز العصبى اللاإرادى، **يؤثر عقلنا الانفعالى وذاكرتنا اللاشعورية وتجاربنا النفسية المبكرة وتوافقنا القلبى**[1]، **على إدراكنا وأفعالنا وسلوكنا بل وتفكيرنا. كما يؤثر على باقى وظائفنا الجسدية.**

لذلك يؤكد دانييل جولمان فى كتابه «الذكاء الانفعالى[2] Emotional Intelligence» أن الذكاء الإنسانى ليس نتيجة النشاط العقلى فقط، إنه يتأثر بشكل كبير بالجوانب النفسية المختلفة، كالحماس وقوة الدافع والشعور بالذنب والرغبة فى تحقيق الذات. ويؤكد جولمان أن **التواصل بين العقل المنطقى والعقل الانفعالى مدموغ Hardwired فى أمخاخنا.**

التنشئة والعقل الانفعالى

وللتنشئة دور مهم فى توجيه العقل الانفعالى. فإذا تم تنشئة الإنسان فى بيئة مليئة بمشاعر الخوف والغضب، يصبح معتادًا ومتآلفًا مع هذه المشاعر عندما تمر به فيما بعد، ولا تسبب له أى إزعاج. وبالعكس، إذا نشأ إنسان فى جو من الحب والأمان، يصبح متوافقًا ومتآلفًا مع هذه المشاعر.

ويفسر لنا أستاذ الطب النفسى وجراح الأعصاب د. كارل بريبرام[3] هذا الدور، بأن **خبراتنا السابقة يتم دمغها فى مركز الذاكرة الانفعالية فى المخ (لوزة المخ Amygdala)**، لتصبح هذه الخبرات بمثابة مرجعية تُقاس عليها التجارب الجديدة، وقد أطلق د. بريبرام على هذه الخبرات اصطلاح الأنماط المألوفة Familial Patterns.

كما يشارك فى تشكيل الأنماط المألوفة فى مركز الذاكرة الانفعالية **مدخلات Inputs من داخل جسم الإنسان.** ومن أقوى هذه المدخلات الداخلية إيقاع ضربات القلب المنتظم والمتناغم، والذى يطلق عليه اسم **التوافق القلبى.**

فإذا مرت بالإنسان تجارب تخالف الأنماط المألوفة المسجلة فى ذاكرته الانفعالية، يشعر الشخص بمشاعر وانفعالات سلبية مجهِدة، ويشعر بانعدام التوافق النفسى. كما يحس الإنسان

(١) التوافق القلبى هو انتظام معدل ضربات القلب، وسنوضح هذا المفهوم بالتفصيل فى الفصل القادم.

(٢) دانيال جولمان وكتابه الذكاء الانفعالى الذى أصدره عام ١٩٩٦، اسمان شهيران فى عالم الطب النفسى، حتى أُعتبر اصطلاح «Emotional Intelligenece» أفضل اصطلاح أُدخل فى اللغة الإنجليزية لعدة سنوات.

(٣) كارل بريبرام Karl Pribram: ولد عام ١٩١٩، أستاذ الطب النفسى وجراح الأعصاب بجامعة ستانفورد بالولايات المتحدة، والباحث البارز فى مجال العلاقة بين الجهاز العصبى وبين مشاعر الإنسان وانفعالاته وسلوكه.

بنفس المشاعر والانفعالات إذا حدث اضطراب فى معدل وانتظام وتناغم ضربات القلب (عدم توافق قلبى)، وسنوضح ذلك فى الفصل القادم.

القارئ الكريم...

تعرضنا فيما سبق ببعض التفصيل لبيولوجيا العقل، إذ إن **مركز مشاعر التدين هو اللوزة المخية (العقل الانفعالى)، كما تقع هذه المشاعر وهذا المركز تحت تحكم القشرة المخية (العقل المنطقى)**. كذلك فإن هذه المعرفة مطلوبة لفهم الدراسات حول دور القلب فى المشاعر الدينية والروحية.

الذكاء الروحى !

لا شك أن اختبارات الذكاء المعروفة قد أغفلت جوانب عديدة للذكاء الإنسانى، كالجوانب الانفعالية والمهارات الاجتماعية، حتى أصبح **مفهوم الذكاء مرادفًا للقدرة على التحصيل العلمى والنجاح الدراسى**.

وفى السنوات الأخيرة، تطرق اهتمام علماء النفس إلى أنواع من الذكاء لا تقوم على القدرات العقلية للتحصيل الدراسى، فظهرت عدة نظريات فى هذا المجال، أهمها **نظرية الذكاء المتعدد Multiple Intelligence Theory** [1] **لهاورد جاردنر Howard Gardner**.

أثبتت نظرية جاردنر أنه لا يوجد نوع واحد من الذكاء الإنسانى، بل توجد عدة أنواع من الذكاء، يشكل كلٌّ منها نَسَقًا مستقلًا خاصًّا به، ويشغل كلٌّ منها مركزًا مستقلًّا فى المخ تم تحديده بالفحوصات الإشعاعية الحديثة.

(١) قدّم هذه النظرية هوارد جاردنر الأستاذ بجامعة هارفارد بالولايات المتحدة لأول مرة عام ١٩٨٣ فى كتاب بعنوان «أُطر العقل»، واستمر فى تطويرها لما يزيد على ٢٠ عامًا.

وقد لفت **نظر جاردنر إلى وجود عدة أنواع من الذكاء (بدلًا من نوع واحد) بعض الملاحظات منها:**

أ- أن عطبًا ما فى منطقة معينة من المخ يؤدى إلى خلل فى نوع معين من الذكاء دون الأنواع الأخرى.

ب- وجود الأشخاص النوابغ المعتوهين idiot savants الذين لديهم بعض القدرات المرتفعة بشكل غير عادى بالمقارنة بباقى قدراتهم المنخفضة، مما يشير إلى استقلال كل من هذه القدرات، وأن لكل منها مركزًا مختلفًا فى المخ.

جـ- حدوث تداخل بين مهمتين عقليتين مثل قراءة مقال وسماع تقرير، مما يشير إلى اعتمادهما على نوع واحد من الذكاء (الذكاء اللغوى)، بينما يشير عدم التداخل بين قراءة مقال وسماع قطعة موسيقية إلى أن كلًا من المهمتين تعتمد على نوع مستقل من الذكاء (الذكاء اللغوى والذكاء الموسيقى)، كذلك يمكن للإنسان أثناء قيادته لسيارته (الذكاء المكانى) القيام بإجراء بعض العمليات الحسابية فى ذهنه (الذكاء المنطقى - الرياضى).

طرح جاردنر فى نظريته ثمانية أنواع من الذكاء[١]، ثم أتْبعها بنوعين آخرين (هما مجال اهتمامنا)، وهما **الذكاء الروحى** Spiritual Intelligence والذكـــاء الوجـودى Existential Intelligence[٢]، ويهتمان بالقضايا فوق الحسية وبالقضايا الأساسية للوجود الإنسانى.

وخلال العشر سنوات الأولى من القرن الواحد والعشرين، ازداد اهتمام الباحثين فى علوم المخ والأعصاب وعلم النفس وعلم الاجتماع والديانات، بالذكاء الروحى بشكل كبير[٣].

---

(١) **أنواع الذكاء الثمانية هى:**

١- الذكاء اللغوى Linguistic Intelligence.

٢- الذكاء المنطقى - الرياضى Logico-Mathematical Intelligence.

٣- الذكاء المكانى Spatial Intelligence.

٤- الذكاء الموسيقى Musical Intelligence.

٥- الذكاء الجسمى - الحركى Bodily - Kinesthetic Intelligence.

٦ ذكاء العلاقة مع الآخرين Interpersonal Intelligence.

٧- ذكاء فهم الذات Intrapersonal Intelligence.

٨- الذكاء التصنيفى Natural Intelligence.

(٢) عندما استخدم هاورد جاردنر اصطلاح «الذكاء الروحى Spiritual Intelligence» وجد معارضة كبيرة ممن يعتبرون أن كل ما ينسب إلى الروح ليس بعلم، فاستخدم اصطلاح الذكاء الوجودى Existential Intelligence، ليصف كل ما نسبه إلى الذكاء الروحى.

(٣) المعلومات المذكورة هنا حول مكونات ومردود الذكاء الروحى مستقاة من كتابات لرواد فى هذا المجال، منهم:

١- دانا زُهار Danah Zohar: أمريكية من مواليد ١٩٤٥.

درست الفيزياء والفلسفة فى MIT. ودرست الديانات والطب النفسى فى جامعة هارفارد. تعتبر هى وزوجها آيان مارشال Ian Marshall من رواد البحث فى مجال الذكاء الروحى. ولها أبحاث كثيرة، بالإضافة لأربعة كتب عن تطبيقات فيزياء الكوانتم على فهم الذات والعقل والمجتمع. وهى محاضِرة فى العديد من الجامعات فى الكثير من أقطار العالم.

٢- روبرت إيمونز Robert Emmons: أستاذ علم النفس بجامعة كاليفورنيا - مهتم بالعلاقة بين الشخصية والانفعالات والديانات. وهو رئيس مجلة علم النفس الإيجابى The Journal of Positive Psychology.

٣- تونى بوزان Tony Buzan: وُلد فى لندن عام ١٩٤٢.

درس علم النفس والرياضيات والعلوم. وهو صاحب مفهوم خرائط العقل Mind Mapping. ألّف وشارك فى تأليف أكثر من مائة كتاب فى مختلف المجالات التى حاضر فيها فى معظم بلاد العالم، مثل خرائط العقل وقدرات المخ والذاكرة والإبداع والعبقرية والذكاء الروحى.

٤- فرانسيس فوجان Frances Vaughan: أستاذة علم النفس بجامعة كاليفورنيا، شاركت فى تأسيس جمعية الطب النفسى والروح، ورئيسة اتحاد الطب النفسى والروح، وعضوة فى العديد من الجمعيات المهتمة بهذا الأمر.

٥- كاثلين نوبل Kathleen Noble: أستاذة علم النفس بجامعة واشنطن. وألفت العديد من الكتب حول الذكاء الروحى، وكذلك المشاكل النفسية للنساء.

ويمكن فهم المقصود بالذكاء الروحى بمقارنته ببعض أنواع الذكاء الأخرى:

- الذكاء المنطقى يختص بأفكارى
- الذكاء الانفعالى يختص بمشاعرى
- الذكاء الروحى يختص بمن أنا؟

ومثل الكثير من المفاهيم غير المادية، يصعب وضع تعريف للذكاء الروحى. لكن **يمكن فهم المقصود بالذكاء الروحى من خلال معرفة المكونات التى يقوم عليها، وكذلك من خلال ملاحظة مردود هذا الذكاء على حياتنا.**

مكونات الذكاء الروحى

١- **الوعى بالذات**: معرفة معتقداتى، وموقعى من الوجود، ودوافعى العميقة.
٢- إدراك أن **العالم المادى جزء من حقيقة أكبر**، تربطنا بها علاقات.
٣- القدرة على طرح **الأسئلة المعرفية النهائية**، والقدرة على فهم الإجابة عليها.
٤- القدرة على **التسامى على المفاهيم المادية**، إلى مستوى أرقى وأسمى وأعمق.
٥- الحياة تبعًا **للمبادئ والعقائد والمُثُل**.
٦- أخذ **المفاهيم الروحية فى الاعتبار فى تعاملاتنا اليومية**.
٧- امتلاك **قناعة شخصية تجاه الأمور**، وإن اختلفت مع الأغلبية.
٨- **التواضع**، وإدراك حجمنا الحقيقى فى العالم، والشعور بأننا أفراد من فريق.
٩- **قبول الآخر** المختلف عنا.
١٠- الاستجابة لنداء الفطرة **لمساعدة الآخرين**.
١١- **الاستقامة الأخلاقية**، والتمسك بالعفة والطهر.
١٢- الشعور بأن **سعادتى تنبع من داخلى**، وليس من الإنجاز العملى أو المادى.
١٣- **نفاذ البصيرة وقوة الحدس**.

مردود الذكاء الروحى على سلوكنا وحياتنا اليومية

١- **التعامل الحكيم مع المحن والشدائد**، بدلًا من الغضب الأعمى وإلقاء اللوم على الآخرين.

٢- اتخاذ مواقف **إيجابية** عند مواجهة المشاكل.

٣- **الشكر على كل شيء**، حتى المحن.

٤- **عدم التعامل بأنانية**.

٥- رؤية **الجمال الداخلى** فى كل شيء.

٦- **التماس الأعذار**، وقبول الاعتذار من الآخرين.

٧- **الشعور بالحنو والشفقة** عند التعامل مع الآخرين.

٨- **المحافظة على البيئة**.

٩- **استخدام الأشياء بحكمة ورفق** وعدم تبديدها، وصيانتها، وإعادة تدويرها.

١٠- **ترك أى مكان أفضل وأنظف** مما كان عليه عند التردد عليه.

ونلاحظ من تأمل هذه المكونات وهذا المردود أن قياس معامل الذكاء الروحى أمر شديد الصعوبة، ولكنه ليس بالمستحيل، فقد تم وضع عدد من الاختبارات لقياس هذا الذكاء.

وليس بالضرورة أن يرتبط الذكاء الروحى بالإيمان بديانة معينة. فربما يتمتع الإنسان بقدر كبير من الذكاء الروحى ولا ينتمى لدين. وربما يكون من المتعصبين الدينيين، بينما نصيبه من الذكاء الروحى قليل.

وأخيرًا، هل توافقنى على أن **الذكاء الروحى يكاد يتطابق مع ما تعارفنا عليه باسم «الضمير»**؟

مراكز التدين فى المخ !

مركز التدين فى العقل الانفعالى...

فى كتاب «**أشباح فى المخ**» Phantoms in the Brain يقول مؤلفه د. راماشاندران[1] V. Ramachandran (أستاذ ورئيس مركز أبحاث بيولوجيا المخ والأعصاب بجامعة كاليفورنيا): **إن الإيمان بأمور ما وراء الطبيعة منتشر فى جميع الحضارات القديمة والحديثة**، بشكل يحتم علينا أن نبحث عن أصوله البيولوجية فى المخ. فلا شيء يميز الإنسان عن باقى الكائنات مثل هذا الأمر.

---

(١) يوصف راما شاندران بأنه ماركوبولو علوم المخ والأعصاب (الرحالة والمستكشف الشهير فى العصور الوسطى) وبأنه بول بروكا العصر الحديث (مؤسس علوم المخ والأعصاب).

ويخبرنا د. راماشاندران أن عوام الناس تمر بهم لحظات يشعرون فيها **بارتقاء روحى**، وبأنهم يقتربون من الحقيقة، عندما يستمعون للموسيقى أو يشاهدون منظرًا طبيعيًّا أخَّاذًا. أما من اعتادوا على التأمل كالصوفية والرهبان، فيدركون هذه المشاعر بشكل أكثر إلحاحًا وأكثر عمقًا. ومن مظاهر هذا الارتقاء الروحى ما يخبرنا به **أينشتين** من أن المشاعر الروحية (المنفصلة من أى ديانة محددة) تجتاحه كلما تعمق فى بحث أمر من أمور العلم والكون.

وقد أجرى راماشاندران أبحاثه على الجهاز الحوفى Limbic System فى وسط المخ والمسئول عن الوظائف الشعورية والانفعالية. فحدثت عند تنشيط هذه المنطقة (باستخدام المجال المغناطيسى) **استجابات جسدية وشعورية وانفعالية**، منها الشعور بنشوة روحية جارفة، وصفها البعض: أشعر بوجود الإله، أشعر أنى على اتصال بالإله، أشعر بالتوحد مع الوجود...

ويفسر راماشاندران ما نستشعره من مشاعر روحية عندما نشم **رائحة البخور** فى دور العبادة بأن الجهاز الحوفى يقع بجوار مركز الشم، بل إنه ينشأ فى الجنين كجزء منه، ومن ثم فإن نشاط مراكز الشم يؤدى إلى تنشيط مركز المشاعر الروحية بالجهاز الحوفى.

مركز التدين فى العقل المنطقى

طرح د. آندرو نيوبيرج و د. يوجين داكويلى[1] فى كتاب «**لماذا يأبى الإله أن يختفى؟**»

? Why God won't go away علمًا جديدًا باسم **Neuro - Theology**، وهو يختص بدراسة الأسس البيولوجية العصبية للروحانيات.

وقد أجرى العالِمان أبحاثهما على الرهبان البوذيين والراهبات الفرانسيسكان أثناء تأملاتهم وصلواتهم، وتوصلا إلى أن **المواقف الروحية تُحدث تغيرات حقيقية (أمكن ملاحظتها وتسجيلها وتصويرها) فى نشاط المنطقة المسئولة عن الاستيعاب والإدراك Orientation Association area فى المخ**، وتؤدى هذه التغييرات إلى ما نحسه من مشاعر روحية فياضة. أى أن **هذه المشاعر ليست مجرد أوهام أو تخيلات**[2].

(١) Andrew Newberg أستاذ الأشعة التشخيصية وأستاذ الطب النفسى، ومدير مركز أبحاث المخ والدراسات الروحية، بجامعة بنسلفانيا بالولايات المتحدة. و Eugene D'Aquili أستاذ الأمراض النفسية بنفس الجامعة. والكتاب صدر عام ٢٠٠١.

(٢) فى أبحاثهما المستفيضة، استخدم العالِمان المجالات المغناطيسية لتنشيط المنطقة المسئولة عن الاستيعاب والإدراك=

لذلك يؤكد المؤلفان، أن **المخ البشرى قد تم تشكيله بحيث يستجيب للمشاعر الدينية. كما أصبح الاستنتاج الذى لا مفر منه، هو أن الشعور بالإله قد تم غرسه فى المخ البشرى Hard wired، كما تم غرسه فى جيناتنا.**

وفى عام ٢٠٠٩، أصدر مركز أبحاث المخ والدراسات الروحية، بجامعة بنسلفانيا بالولايات المتحدة، والذى يترأسه د. آندرو نيوبرج، كتابًا رائعًا بعنوان: كيف يُغَيِّر الإيمان بالله المخ ?How God Changes your Brain.

ويقوم الكتاب على الأبحاث التى أجراها المركز على أعداد من المؤمنين بديانات مختلفة (البوذية - الهندوسية - المسيحية - الإسلام)[1]، وذلك باستخدام التقنيات الإشعاعية الحديثة، لمعرفة تأثير المشاعر الدينية والروحية على وظيفة ونشاط المخ!

وقد خرج الكتاب بالنتائج الأربع التالية:

١- إن **الإيمان بإله رحيم** (وليس بإله يتصيد الأخطاء ويتوعدنا بالجحيم)، **كفيل بأن يقلل القلق والاكتئاب والتوتر**، وأن يزيد شعورنا بالحب والأمان.

٢- **إن الصلاة والتَفَكُّر والتأمل بإخلاص وعمق كفيل بإحداث تغيرات صحية فى وظيفة ونشاط المخ**، يصحبها سمو فى قيم الإنسان وفى نظرته للحياة.

٣- لا يقف تأثير الصلاة والممارسات الروحية على خفض معدل وحِدَّة ما يصيب الإنسان من توترات، بل إن القيام بهذه الممارسات لمدة عشرين دقيقة فى اليوم كفيلة بأن **تبطئ من اقتراب الشيخوخة.**

٤- إن ما يتبناه المتطرفون الدينيون من أفكار، يورثهم **القلق والتحفز للآخرين**، كما يُحدِث **تدميرًا للخلايا العصبية بالمخ.**

=Orientation Assocation area، والواقعة فى الفص الجدارى الأيسر من المخ، وهى المنطقة المسئولة أيضًا عن شعورنا بذاتنا، وتَفَردنا عن الآخرين.

عند تنشيط هذه المنطقة شعرت الراهبات الفرنسيسكان أن الله موجود حقيقة معهن، كما شعرن بأحاسيس روحية جارفة.

وفى الظروف العادية، يتم تنشيط هذه المنطقة عن طريق فيض النبضات العصبية الصادرة من الحواس الخمس. وإذا قل هذا الفيض (كما يحدث أثناء التأمل العميق وأثناء الانهماك فى تجارب ممتعة كالاستماع إلى الموسيقى) يقل نشاط هذه المنطقة، فيقل شعور الإنسان بذاته، ويشعر بتوحد مع الوجود، وهذا ما وصفه الرهبان البوذيون.

(١) أجرى الباحثون دراساتهم على المسلمين أثناء الصلاة وقراءة القرآن والذكر بأسماء الله الحسنى.

القارئ الكريم:

رأينا فى هذه الجولة مع علوم البيولوجيا، **أن جيناتنا تقوم بدور مهم فى توجيه المخ لتَقَبُّل المفاهيم الروحية والدينية**، وذلك من خلال تكوين ناقلات كيميائية توجه تَكَوُّن الدوائر العصبية، وتنشط المراكز المخية المسئولة عن هذه المشاعر.

كما رأينا أن **العلاقة بين المخ والإيمان علاقة تبادلية**. فكما ثبت وجود مراكز فى المخ مسئولة عما نحسه من مشاعر روحية ودينية، فقد ثبت أن الممارسات الدينية والروحية تُحدث تغييرات إيجابية فى نشاط المخ. ومحصلة التفاعل بين الجانبين هى حياة أقل قلقًا واكتئابًا، وأكثر صفاءً.

ويقف كثير من المتدينين موقفًا متحفظًا (أو معارضًا أو مهاجمًا) تجاه ما يكشفه العلم عن العلاقة بين البيولوجيا والمشاعر الدينية والروحية. ويرجع هذا الموقف إلى إصرارهم على إفراد الروح بالفطرة والمشاعر الروحية، ويعتبرون أن الجسد (بما فيه من جينات ومخ) لا علاقة له بالمشاعر الدينية.

لا شك أن موقفهم هذا ينطلق من نقص فى الفهم لطبيعة المشاعر وعلاقتها بالناقلات الكيميائية (التى تتحكم فيها الجينات)، وعلاقتها أيضًا بالدوائر العصبية المخية. فكل ما نشعر به من مشاعر إيجابية أو سلبية، روحية أو حسية، سامية أو وضيعة، إنما هو نتاج للناقلات الكيميائية والدوائر العصبية. لذلك ينبغى أن **نبحث عن همزة الوصل بين الذات الإنسانية (العقل - النفس - الروح) من جهة، وبين البيولوجيا من جهة أخرى**. ولن يكون المخرج هو إنكار ما يتوصل إليه العلم. وسيكون لنا عودة مرة أخرى إلى هذا الموقف الرافض فى الفصل الثامن.

ولا يُستكمل البحث حول علاقة المفاهيم الروحية والدينية بالبيولوجيا، دون محاولة الإجابة عن سؤال شديد الأهمية: هل للقلب علاقة بهذه المفاهيم. وهذا ما سنفرد له الفصل القادم.

الفصل السادس

الإيمان والبيولوجيا – ٢
القلب والتدين

احتل القلب مكانة محورية فى الفكر الدينى والأخلاقى **منذ فجر التاريخ**، حتى إن الأساطير تعتبره جوهر الإنسان، وتركز على دوره فى تبنى الخير والشر. لذلك اهتم المصريون القدماء بالقلب وحفظوه فى آنية خاصة بعد الموت بجوار الجسد الـمُحَـنَّط، فهو الذى سيتم وزنه فى العالم الآخر، ليتحدد مآل الإنسان إلى العذاب أو إلى النعيم.

وقد ذكرت بردية إبرز (عام ١٦٠٠ ق.م) فى الجزء الخاص بأمراض القلب، أن الشخصية والسلوك والأمراض العقلية **لها علاقة بلون القلب وحجمه**. وجاء فى هذه البردية ذِكْرُ القلب الأبيض والقلب الأسود والقلب الكبير. كما نُسبت الأمراض النفسية والعقلية إلى اعتلال «**الجهاز القلبى**»، لذلك عُولجت هذه الأمراض **باعتبارها أمراضًا جسمية**، ومن ثم لا يَصِمُ المريض ولا يُسىء إليه أن يشكو من هذه الأمراض؛ إذ ليس هناك تفرقة بين النفس والجسد.

وظل هذا الاهتمام بالقلب سائدًا عبر الزمان **فى جميع الحضارات**، حتى صرنا نسمع، بجميع لغات العالم، أن هذا الإنسان قلبه أبيض، وهذا قلبه أسود، وهذا قلبه كالحجر، وهذا قلبه منكسر، وهذا يتبع صوت قلبه... وهكذا.

وجاءت **الديانات السماوية** لتؤكد هذا المفهوم، فجاء فى **القرآن الكريم** ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]. كما جاء فى الحديث النبوى الصحيح «**ألا إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب**».

وكما اتخذ الماديون من **نظرية التطور لدارون** منطلقًا لمهاجمة الأديان، فإنهم **اتخذوا من محورية القلب فى الفكر الدينى والأخلاقى منطقًا آخر للهجوم**. إذ إن المفاهيم العلمية السائدة ترى أن جميع العمليات العقلية والمشاعر والأخلاق والسلوك يوجهها المخ/ العقل، وليس للقلب دور فيها.

وفى الوقت نفسه، كانت علوم التشريح ووظائف الأعضاء حتى ثلاثين عامًا مضت، **تنظر إلى قلب الإنسان باعتباره مضخة**، تجمع الدم من الجسم لتعيد ضخه من جديد بعد تحميله بالأكسجين. ويقوم المخ بتحديد قوة وعدد ضربات القلب فى الدقيقة بناءً على احتياجات الجسم[1].

وخلال الربع الأخير من القرن العشرين، حدث انفجار معرفى فى علوم القلب. فقد توالت الاكتشافات التى أظهرت **أن القلب ليس مجرد مضخة**، وأن علاقته بالمخ ليست علاقة العبد بالسَيِّد، بل إن السيادة تبادلية. إن الحقائق العلمية التى تكشفت **تبدو كشىء من الخيال العلمى** لغرابتها ومخالفتها للمفاهيم السائدة. وسنعرض فيما يلى بعضًا من هذه الحقائق حتى نكون قد استوفينا رحلة العقل حقها:

---

(١) يقوم المخ بتنظيم عمل القلب عن طريق عصب مُنَشِّط يُعرف بالعصب السيمبتاوى Sympathetic Nerve (الوُدِّى)، وعصب آخر يقوم بالدور المُهَدِّئ يُعرف بالعصب الجارسيمبتاوى Parasympathetic Nerve (نظير الوُدِّى)، ويشكل كلا العصبين ما يُعرف بالجهاز العصبى اللاإرادى Autonomic Nervous System ANS، إذ ليس للإنسان تحكم إرادى فيه.

وفى الحالات العادية، ينقبض القلب أكثر من مائة ألف مرة فى اليوم الواحد. وعندما يصبح عمر الإنسان سبعين سنة، يكون قلبه قد ضخ مليون برميل من الدم، وذلك فى شبكة من الأوعية الدموية يبلغ طولها مائة ألف كيلومتر!!

أولًا: القلب مغناطيس قوى ومُولِّد كهربائى فعَّال

تتكون عضلة القلب من مئات الآلاف من الخلايا العضلية المتشابكة التى تعمل كوحدة واحدة، تدفع الدم فى مسارات محددة عبر غُرَف القلب الأربع ليصل إلى البُطين الأيسر (الغرفة الأخيرة) الذى يدفعه إلى الشريان الأورطى ليغذى أجزاء الجسم المختلفة.

ولكل خلية من خلايا القلب العضلية **مجال كهرومغناطيسى**[1]، يمثل اللغة التى تتواصل بها مع الخلايا المحيطة. وتقوم الخلايا المستقبِلَة بفك شفرة هذه الرسالة الكهرومغناطيسية، والتجاوب معها بتحديد قوة واتجاه وتوقيت انقباضها. وينعكس ذلك فى الظروف الطبيعية على هيئة تغيرات غير ملحوظة فى معدل وانتظام ضربات القلب، وتظهر هذه التغيرات فى رسم القلب الكهربائى، وتُعرف **بتغيرات معدل ضربات القلب (HRV) Heart Rate Variability**[2].

ويمكن تسجيل النشاط الكهربائى لعضلة القلب من أى مكان من جلد الإنسان، باستخدام رَسَّام القلب الكهربائى ECG. **وتبلغ شدة هذا النشاط ستين ضعف شدة النشاط الكهربائى للمخ**، والذى يمكن تسجيله من الرأس فقط عن طريق رَسَّام المخ الكهربائى EEG.

وتؤدى التغيرات فى النشاط الكهربائى للقلب إلى توليد مجال مغناطيسى متغير حول القلب (كما تؤكد النظرية الكهرومغناطيسية لماكسويل). **وتبلغ قوة هذا المجال المغناطيسى ٥٠٠٠ ضعف قوة المجال المغناطيسى للمخ**، ويمكن رصد المجال على مسافة تصل إلى ٢-٣ أمتار حول جسم الإنسان[3].

---

(١) يتم التنسيق بين الخلايا العضلية للقلب عن طريق نظام توصيل Conducting System، يتكون من مراكز عصبية وشبكة عصبية هائلة، تنتقل خلالها الرسائل على هيئة نبضات كهربائية.

(2) **McCraty, R.,M. Atkinson, et al**. (1995). The effects of emotions on short term heart rate variability using power spectrum analysis American Journal of Cardiology 76: 1089-1093.
Umetani, K., D. H. Singer, et al. (1998). Twenty-four hours time domain heart rate variability and heart rate: relations to age and gender over nine decades. Journal of the American Collage of Cardiology 31(3): 593-601.

(3) **Damasio, A.R.** (1994). Descartes' Error, Emotion, Reason and the Human Brain. NY, G.p. Putnam's Sons.
Watkins, A. D. (1995). Perceptions, emotions and immunity: an integrated homeostatic network. Quarterly Journal of Medicine 88: 283-294.

وقد أثبتت التجارب أن المجال الكهرومغناطيسى للقلب يؤثر على (موجات ألفا) الكهربائية الصادرة من المخ، والتى تَنْشَط وقت الاسترخاء، ويمكن رصد ذلك باستخدام رَسَّام المخ الكهربائى[1].

كما ثبت حديثًا، باستخدام أجهزة رصد دقيقة، حدوث **تداخل بين المجالين الكهرومغناطيسيين لقلبى شخصين متجاورين**. ويؤدى هذا التداخل فى بعض الحالات إلى نوع من **التناغم**، كما يؤدى إلى **التشويش** فى بعض الحالات الأخرى![2].

وإذا كان الكثيرون من الباحثين يعترضون على نتائج هذه الدراسات، فإن حدوث التداخل بين المجالات الكهرومغناطيسية يعتبر **بديهية فيزيائية** نستشعرها جميعًا فى تشويش التليفونات المحمولة على الأجهزة الإلكترونية المحيطة بنا.

ماذا تقول قلوبنا؟

إذا نظرنا إلى أنواع الموجات المختلفة الصادرة من القلب، وجدناها تختلف سرعةً وبطئًا؛ فالأصوات التى يسمعها الأطباء بالسماعة موجاتها بطيئة، والنبض الذى يحسونه عند رسغ اليد تكون موجاته أبطأ، أما **الموجات الكهرومغناطيسية** فتكون شديدة السرعة، وتختلف فى سرعتها من حين لآخر كما نرصدها فى رسم القلب الكهربائى.

ولنتصور محتوى الرسائل التى تحملها الموجات المختلفة، قارن بين التأثير المهدئ الذى يحدثه **تربيت الأم على ظهر طفلها** الذى يبكى، وبين تأثير الإيقاع المرعب فى خلفية أحد **أفلام الإثارة**. ولاحظ كذلك تأثير كل من الموسيقى الهادئة والموسيقى الصاخبة على ضربات القلب وسرعة التنفس وعملية الهضم، وأيضًا على التركيز فى العمليات العقلية وعلى الحالة النفسية...

(1) **Gahery, Y. and D. Vigier** (1974). Inhibitory effects in the cuneate nucleus produced by vagoaortic afferent fibers. Brain Research 75: 241-246.
Mc Craty, R. and M. Atkinson (1999). Influence of afferent cardiovascular input on cognitive performance and alpha activity. Proceedings of the Annual Meeting of the Pavlovian Society, Tarrytown, NY.

(2) **Rein, G., M. Atkinson, et al.** (1995). The physiological and psychological effects of compassion and anger. Journal of Advancement in Medicine 8(2): 87-105.

وإذا كانت المجالات الكهرومغناطيسية المحيطة بنا تحمل ما لا حصر له من المعلومات[١]، فما نوع المعلومات التى يمكن أن تحملها الموجات الكهرومغناطيسية الصادرة من وإلى القلب؟

نُمهد للإجابة عن هذا السؤال، بمثال لتعامل جسم الإنسان مع الموجات الكهرومغناطيسية:

تبصر العين البشرية سبعة ألوان أساسية (ألوان الطيف)، تختلف فى ترددتها وأطوال موجاتها. وتحول شبكية العين هذه الموجات إلى شفرة كهربائية، ينقلها العصب البصرى إلى مراكز الإبصار، حتى تصل إلى القشرة المخية التى تقوم بفك هذه الشفرة وترجمتها إلى ألوان. ولا يقف الأمر عند هذا الحد، بل يتم المزج والتداخل بين موجات هذه الألوان السبعة، لتجعلنا نبصر عددًا لا حصر له من الألوان التى يبتدع الإنسان المزيد منها كل يوم[٢].

فى هذا المثال، يترجم المخ الموجات المتداخلة إلى ما لا نهاية له من ألوان، فما الموقف مع القلب؟ للإجابة عن هذا السؤال، نبدأ بعرض مفهوم شديد الأهمية، وهو مفهوم التوافق.

التوافــق Coherence [٣]

التوافق هو التعاون والتنسيق بين نظم متعددة تقوم بوظائف محددة، للخروج بوظيفة أكثر تعقيدًا [٤].

---

(١) حاول أن تتصور مقدار الضجيج الصامت الذى يملأ الهواء والفراغ خارج غلاف الأرض الجوى. تصور حوارات البشر عبر الهواتف المحمولة، وكذلك البث التليفزيونى عبر الأقمار الصناعية لعشرات الآلاف من القنوات التليفزيونية والفضائية. وتصور أيضًا ما يملأ الفضاء من معلومات تتبادلها عبر شبكة المعلومات (Net). كل هذه المعلومات تحملها الموجات الكهرومغناطيسية لتصل إلى الأجهزة القادرة على استقبالها وفك شفرتها (أجهزة الراديو والتليفزيون ومستقبل الدش والكمبيوتر...).

(٢) يحدث الشىء نفسه عند تذوقنا للطعام. فبراعم التذوق فى ألسنتنا تحس بأربعة مذاقات (الحامض - الحلو - المر - المالح)، وتترجم البراعم هذه المذاقات إلى نبضات كهربائية (تشفير) تصل إلى مراكز التذوق فى المخ، حيث يتم فك الشفرة. ويتم المزج والتداخل بين هذه المذاقات الأساسية لنحصل على ما لا نهاية له من مذاقات الأطعمة المختلفة التى يتناولها البشر جميعًا باختلاف عادات بلادهم الغذائية.

(٣) التوافق Coherence مفهوم نقابله فى حياتنا اليومية. فالتوافق فى الموسيقى هو تناسق النغمات وأداء الآلات الموسيقية، حتى يخرج اللحن متناغمًا وليس نشازًا. والتوافق فى الفيزياء هو اندماج أكثر من موجة لإصدار نمط منتظم، مثل اندماج فوتونات الضوء لإصدار أشعة الليزر.

(4) **McCraty, R.** (2000). Psychophysiological coherence: A link between positive emotions, stress reduction, performance and health. Proceedings of the Eleventh International Congress

وللتوافق فى جسم الإنسان ثلاثة مستويات. **فالتوافق الفسيولوجى** (الجسدى) يتمثل فى التعاون والتنسيق بين بعض أجهزة الجسم للقيام بمهمة معينة، كما يحدث بين عضلة القلب والجهاز التنفسى لإمداد جسم المتسابق باحتياجاته من الأكسجين أثناء العَدْو.

وعلى المستوى النفسى، يستخدم المهتمون بالمجال الكهرومغناطيسى للقلب اصطلاح «**حالة التوافق**» لوصف المشاعر الإيجابية، كالحب والتقدير وفرحة النجاح، ويستخدمون اصطلاح «**عدم التوافق**» لوصف المشاعر السلبية، كالكُرْه والغضب والضيق والإحباط.

وتؤدى حالة «**التوافق النفسى**» Psychological Coherence إلى «**توافق فسيولوجى**» Physiological Coherence، يتمثل فى انتظام ضربات القلب، واستقرار الجهاز العصبى اللاإرادى، وأداء سليم للمخ وباقى أجهزة الجسم. ويصحب ذلك أيضًا «**توافق عقلى**» Mental Coherence، يؤدى إلى صفاء الذهن وتحسن القدرة على القيام بالعمليات العقلية، وزيادة حدة الإبصار والسمع وردود الأفعال.

إذن، **فالتوافق يشمل الجوانب النفسية والعقلية والجسدية**، مما يؤدى إلى أداء عملى أفضل وتوتر أقل، وتحقيق الاستقرار النفسى والشعور بالرضا، وفوائد متعددة على المستويات الثلاثة.

وفى المقابل، تؤدى **حالة عدم التوافق النفسى Psychological incoherence** إلى حالة من عدم التوافق الفسيولوجى، يتمثل فى الاضطراب فى معدل وانتظام ضربات القلب، وزيادة نشاط الجهاز العصبى الودى (السيمبتاوى). ويؤدى ذلك إلى العديد من **الأمراض النفس ـ جسمية** Psycho-Somatic diseases، كقرحة المعدة والتهابات القولون والأمراض الروماتزمية وانخفاض المناعة، وكذلك ارتفاع ضغط الدم والذبحات الصدرية والجلطات القلبية، بل والموت الفجائى[1]. كما يصحب عدمَ التوافق النفسى **اختلالٌ فى التوافق العقلى**، على هيئة اضطراب وإجهاد ذهنى !

=on Stress, Mauna Lani Bay, Hawaii.

Childre, D. and B. Cryers (2000). From Chaos to Coherence: The Power to Change Performance. Boulder Creek, CA, Planetary.

Tiller, W., R. McCraty, et al. (1996) Cardiac coherence; A new non-invasive measure of autonomic system order. Alternative Therapies in Health and Medicine 2(1): 52-65.

(١) فى حالات عدم التوافق النفسى، لاحظ الباحثون:

أ- انخفاض الأجسام المضادة S-IgA التى تُعتبر خط الدفاع الأول فى مناعة الأجهزة التنفسية والهضمية والبولية.

ب- نقص نسبة هورمون DHEA المعروف بالهورمون المضاد للشيخوخة. ويؤدى ذلك إلى نقص المناعة وأمراض=

لذلك يخبرنا د. بول روش Paul Rosch (رئيس المعهد الأمريكى لعلاج التوتر) أن ٧٥ - ٩٠٪ من المرضى المترددين على العيادات الخارجية للفحص الأوَّلى يعانون من مشاكل ترجع إلى عدم التوافق النفسى. ويضيف د. روش: لقد **أصبح مفهوم الصحة يتجاوز الخلو من الأمراض، إنه الحياة فى توافق مع أنفسنا ومع الآخرين ومع البيئة.**

والآن، نعود إلى التساؤل عن ماذا تقول قلوبنا، **وكيف يتعامل القلب مع المجالات الكهرومغناطيسية، وما علاقة ذلك بالتوافق؟**

كيف تعلمت قلوبنا الكلام؟

يعود التداخل بين المجالات الكهرومغناطيسية لقلوب الأشخاص المتجاورين **إلى وقت أن كنا أجنة فى الأرحام**، حيث كنا مغمورين تمامًا فى المجال الكهرومغناطيسى لقلوب أمهاتنا. ويظهر ذلك على هيئة تزامن وتآلف موجات رسم المخ الكهربائى ورسم القلب الكهربائى لكل من الأم والجنين.

وأثناء **فترة الرضاعة**، حيث تحمل الأم طفلها قريبًا من قلبها[1]، أثبتت الدراسات أن المجال المغناطيسى لقلب الطفل يتم ضبطه ضبطًا دقيقًا ليستكمل تزامنه وتآلفه مع مجال الأم.

وخلال فترة الحمل والرضاعة **تنقل الأم الكثير من المعلومات لطفلها، عن طريق المجال الكهرومغناطيسى**، ومن أبسط هذه المعلومات الشعور بأنه طفل مرغوب فيه ومحبوب. وفى هذا المعنى يقول إيزاك كوخ Yetizhak Koch أستاذ الغدد الصماء بكاليفورنيا: إن لبن الأم ليس مجرد مصدر للغذاء، إنه طريق تنقل به الأم المعرفة لطفلها.

= القلب وارتفاع معدلات السرطان والألزهايمر.

جـ ارتفاع نسبة هورمون الكوتيزون (هورمون التوتر)، مما يؤدى إلى ارتفاع ضغط الدم وارتفاع نسبة السكر بالدم، ويؤدى إلى هشاشة العظام والألزهايمر وانخفاض المناعة وتأخر التئام الجروح.

وفى المقابل يؤدى التوافق النفسى إلى زيادة فى مستوى الهورمون المضاد للشيخوخة إلى الضعف، ونقص هورمون التوتر إلى النصف.

Grossarth-Maticek, R. and H. J. Eysenck (1995). Self-regulation and mortality from cancer, coronary heart disease and other causes: A prospective study. Personality and Individual Differences 19(6): 781-795.

(١) أثبتت الدراسة أن ٩٠٪ من الأمهات فى جميع الحضارات يحملن أطفالهن على جانبهن الأيسر، قريبًا من قلوبهن. ولا يرجع ذلك إلى رغبتهن فى تحرير أيديهن اليمنى ليستخدمنها فى الأعمال المختلفة؛ إذ يحدث الشىء نفسه مع الأمهات العُسر (اللاتى يستخدمن أيديهن اليسرى).

ويتعلم الطفل فك شفرة الموجات الكهرومغناطيسية لقلب الأم؛ إذ نشأ مغمورًا فيها، تمامًا كما نتعلم لغتنا الأم من الوسط الذى ننشأ فيه. لذلك **تظل قلوبنا قادرة على قراءة تلك اللغة والتأثر بها طوال حياتنا**، ويصبح القلب قابلًا للتأثر بكل المجالات الكهرومغناطيسية المحيطة.

معنى ذلك أن القلب يعمل كمستقبِل Reciever أو عضو إحساس Sense organ كالعين واللسان، إلا أنه لا يترجم الموجات الكهرومغناطيسية إلى ألوان ومذاقات، ولكن إلى مشاعر وانفعالات وأحاسيس، فتجدنا نشعر بالانقباض فى القلب تجاه موقف ما، وبالارتياح تجاه موقف آخر، وهكذا[1].

ويستجيب القلب للمعلومات الواردة إليه بإصدار رسائل وتعليمات إلى المخ وباقى أجزاء الجسم، على هيئة كيميائية (هورمونات يفرزها القلب) وعصبية (من خلال الجهاز العصبى اللاإرادى) وميكانيكية (على هيئة تعديلات فى معدل وانتظام ضربات القلب وتغيير فى ضغط الدم)، هذا بالتأكيد بجانب الرسائل الكهرومغناطيسية، وسنطرح هذه الآليات بعد قليل بشىء من التفصيل[2].

وللاستدلال على دور المجال الكهرومغناطيسى لقلب الإنسان فى إحداث التوافق النفسى والعقلى والجسدى، **يطرح المهتمون بهذه المجالات مستويات أخرى من التواصل تقوم بها هذه الموجات**، منها:

١- التواصل داخل جسم الإنسان:

ربما كان **العلاج بالإبر الصينية** Acupuncture من أقدم التطبيقات على المجالات الكهرومغناطيسية؛ إذ يرجع إلى ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد.

ويقوم هذا الفرع من الطب الصينى القديم على فكرة أن هناك **مسارات للطاقة (مجالات كهرومغناطيسية)** داخل جسم الإنسان، مسئولة عن الصحة والمرض، وأن هذه المسارات مُمَثَّلة

(1) **Paddison, S.** (1998). The Hidden Power of the Heart: Discovering an Unlimited Source of Intelligence. Boulder Creek, CA, Planetary Publications.

Fredrickson, B. (1998). What good are positive emotions? Review of General Psychology 2(3): 300-319.

(٢) الدكتور فؤاد يحيى أحمد (أستاذ التشريح بجامعة عين شمس) من المهتمين بآليات التواصل بين القلب والمخ، وله مفاهيم دقيقة فى هذا المجال.

فى أجزاء حساسة من الجسم، كالأذن والكف والقدم. لذلك يقوم المتخصصون بغرز إبر دقيقة فى نقاط معينة من هذه الأعضاء، لعلاج الآلام والكثير من الأمراض فى أماكن مختلفة من الجسم. ومن أكثر استخدامات الإبر الصينية إبهارًا، استخدامها بنجاح مقبول فى **تخدير المرضى لإجراء العمليات الجراحية**[1].

وحسمًا للحيرة التى تسيطر على الأوساط العلمية تجاه هذه التقنيات، أصدر المعهد القومى للصحة NIH بالولايات الأمريكية بيانًا لخص فيه الموقف، جاء فيه البيان: بالرغم من أنه **يصعب تفسير الطب الصينى التقليدى فى ضوء مفاهيمنا التشريحية والفسيولوجية، فسيظل للعلاج بالإبر الصينية دور كبير فى تشخيص وعلاج العديد من الحالات المرضية.**

٢- تواصل مع البشر

توصل العلماء إلى وجود **مواد كيميائية (تُعرف بالفيرومونات Pheromones)** تُفرَز فى عَرَق الإنسان ويشمها الآخرون (ولا يدركون رائحتها) فتُفَجِّر فيهم العديد من المشاعر مثل الأمومة والحب، ومثل العزوف عن زواج المحارم.

وقد اكتفى معظم البيولوجيين بهذه الآليات الكيميائية، ولم يتنبهوا لوجود **دور إضافى مهم للمجالات الكهرومغناطيسية**. وعندما اهتم بعض الباحثين مؤخرًا بهذه المجالات، توصلوا إلى نتائج مدهشة:

فإذا كان الشباب يتحدثون فى السنوات الأخيرة عن «الكيميا» (يقصدون الفيرومونات) لتفسير سر انجذابهم للطرف الآخر من أول نظرة، فقد استُخدِم اصطلاح «الجاذبية» منذ مئات السنين !! وقد أثبت الباحثون مؤخرًا حدوث التناغم بين المجالات الكهرومغناطيسية لقلوب من يأتلفون، سواء بين المحبين أو بين الأم وأطفالها !

كذلك تتبع د. جارى شوارتز Gary Schwartz (أستاذ الطب النفسى فى جامعة أريزونا)، أكثر من ٣٠٠ مريض أُجريت لهم **جراحات لزراعة القلب**، فلاحظ حدوث تغيرات نفسية وعقلية جذرية لجميع المرضى بعد الجراحة، خاصة هؤلاء الذين رُكِّبَت لهم قلوب صناعية! لكن الكثيرين من أطباء القلب والأمراض النفسية **رفضوا أن تُرجَع هذه التغيرات إلى أن للقلب**

(١) فسر الطب المعاصر نجاح هذه التقنية بما يعرف «بنظرية البوابة Gate Theory». وترى هذه النظرية أن الاهتزازات التى يحدثها المتخصصون فى هذه الإبر المغرسة فى الجسم، ترسل موجات تعترض البوابات التى تمر منها مسارات الألم، فلا يصل الألم إلى المخ.

وظيفة عقلية وشعورية، وفسروها بأن هؤلاء المرضى كانوا على شفا الموت وأنهم عانوا الكثير قبل الجراحة وأثناءها وبعدها، مما أدى إلى تغيرات كبيرة فى حالتهم النفسية والعقلية.

٣- تواصل مع النبات :

أظهرت الأبحاث المستفيضة التى أجراها عالم النبات الهندى د. بوس Jagadis C. Bose[١] أن **للنبات جهازًا عصبيًّا**، يشبه الجهاز العصبى للإنسان والحيوان إلى حد بعيد[٢]! ومن خلال هذا الجهاز، استطاع العلماء تفسير العديد من الظواهر التى يصعب تفسيرها بالآليات الكيميائية، كارتخاء أوراق نبات (الست المستحية) فور ملامستنا لها.

وقد ثبت أن **لهذا الجهاز العصبى مجالًا كهرومغناطيسيًّا يتفاعل مع المجالات المحيطة به**، ويفسر ذلك ذبول بعض النباتات فى منازلنا عند سفر من اعتادوا على الاعتناء بها!

٤- تواصل مع غير الأحياء:

من الأبحاث المذهلة فى هذا المجال، ما قام به العالم اليابانى ماسارو إيموتو Masaru Emoto على **قطرات الماء أثناء تجميدها**[٣].

وقد لاحظ إيموتو انتظام **بللورات الماء** فى أشكال متناسقة بديعة (أو عشوائية قبيحة) عند التلفظ أمامها بكلمات تعبر عن **مشاعر الود = التوافق (أو الكُرْه = عدم التوافق)** التى تحملها قلوب من يقومون بالتجربة !!

لا شك أن ما تمخضت عنه هذه التجارب من نتائج كانت فوق احتمال الكثيرين من العلماء، فهاجموا د. إيموتو واتهموه بعدم الموضوعية فى أبحاثه.

إن اعتبار القلب مغناطيسيًّا قويًّا ومولدًا كهربائيًّا فعالًا صار بمثابة الحقيقة العلمية، ويبدو أن **التواصل من خلال المجالات الكهرومغناطيسية لا يقف عند الإنسان والكائنات الحية الحيوانية والنباتية، ولكنه قد يمتد ليشمل الموجودات غير الحية أيضًا !**

(١) نشر نتائج أبحاثه فى كتابه The Nervous Mechanisms of plants.

(٢) يتكون الجهاز العصبى للنبات من خلايا ومراكز عصبية، وكذلك وصلات Synapses وألياف عصبية صادرة وواردة Afferent, Efferent nerve Fibers، وأيضًا أقواس عصبية انفعالية Reflex arc. تمامًا كالجهاز العصبى للإنسان والحيوانات.

(٣) نشر نتائج أبحاثه فى ستة كتب، أشهرها كتاب «الرسائل الخفية للماء The Hidden Massages in Water» صدر عام ٢٠٠١.

ثانيًا: المخ الصغير

قد يقول قائل: إن هؤلاء الكهرومغناطيسيين يتحدثون عن القلب وكأنه المخ. **فهل للقلب حقًّا مثل هذه القدرات الاستقبالية والإدراكية والإرسالية؟!**

فى عام ١٩٩٤م، فاجأ الدكتور آندرو آرمور[١] Andrew armour (من المؤسسين لعلم أعصاب القلب Neuro-cardiology) العالَم بطرح مفهوم فى غاية الأهمية. لقد توصل فى أبحاثه إلى أن **للقلب جهازًا عصبيًّا خاصًّا** Interinsic Nervous System، يستحق أن يُدْعى المخ الصغير The Little Brain، قياسًا على المخ الكبير الذى فى أدمغتنا !![٢].

ويتركب الجهاز العصبى للقلب من حوالى ٤٠,٠٠٠ خلية عصبية، بالإضافة إلى الأنواع المختلفة من الخلايا الداعمة التى تشبه مثيلتها فى المخ Glial Cells، ويستخدم نفس الناقلات العصبية الكيميائية والبروتينات التى يستخدمها المخ. ونتيجة لهذه المشابهة، ينظر البعض إلى هذا الجهاز باعتباره **جزيرة صغيرة انفصلت عن المخ الأم، واستقرت فى القلب!**

ويمكن لهذا **المخ الصغير أن يقوم بتنظيم أداء القلب بمعزل عن الجهاز العصبى**، وهذا ما يحدث فى المرضى الذين أُجرِيَت لهم جراحات نقل القلب، التى يتم فيها قطع الأعصاب التى يتواصل بها المخ مع القلب[٣] !

ولا يقف الأمر عند ذلك الحد، بل إن **هذا «المخ الصغير» يشارك فى توجيه المخ الكبير!** وقد أثبت الباحثون أن تنشيط العصب نظير الودى (الجارسيمبتاوى) فى القلب يؤدى إلى تهدأة النشاط الكهربائى للمخ بنسبة ٥٠٪ !![٤].

---

(١) آندرو آرمور: أستاذ أمراض القلب بجامعة مونتريال بكندا، والمشرف الرئيسى على مجلة Neuro Cardiology. وقد نشر آرمور نتائج أبحاثه فى كتابه «مخ القلب The Heart Brain».

(2) **Armour, J. A. and J. Ardell. Eds.** (1994) Neurocardiology. New York, NY, Oxford University Press.

(3) **Armour, J. A.** (1991). Anatomy and function of the intrathoracic neurons regulating the mammalian heart. In: I. H. Zucker and J. P. Gilmore, eds. Reflex Control of the Circulation. Boca Raton, FL, CRC Press. 1-37.

(4) **Sandman, C. A. B. B. Walker, et al.** (1982). Influence of afferent cardiovascular feedback on behavior and the cortical evoked potential. In: J. Cacioppo, J. T. and R. E. Petty, eds. Perspectives in Cardiovascular Psychophysiology. New York, The Guilford Press.

McCraty, R. W. A. Tiller, et al. (1996). Head-heart entrainment: A preliminary survey. Proceedings of the Brain-Mind Applied Neurophysiology EEG Neurofeedback Meeting, Key West, Florida.

ثالثًا: القلب كغدة صماء

من الحقائق العلمية المدهشة التى تكشفت حديثًا، دور القلب كغدة صماء! فقد ثبت (حتى الآن) أن القلب يفرز ستة هورمونات:

الهورمونات الثلاثة الأولى يُرمز إليها بالحروف ANH[١] – NPPC – [٢] BNP[٣].

وتقوم ثلاثتها بدور هام فى تنظيم كمية الماء وأملاح الصوديوم والبوتاسيوم بالجسم، لذلك يؤدى الخلل فيها إلى إصابة الإنسان بالعديد من الأمراض، وأهمها ارتفاع ضغط الدم.

كما تقوم هذه الهورمونات بدور هام فى **تنظيم عمل المخ** ! فهى تُحَسِّن من أداء منطقة تحت المهاد Hypothalamus والغدة النخامية Pituitary gland، المسئولتين عن العديد من الوظائف الحيوية لجسم الإنسان، كتنظيم درجة حرارته، وتنظيم ضغط الدم والتحكم فى نشاط جميع الغدد الصماء بالجسم. كذلك تُنَشِّط هذه الهورمونات تكوين بروتين[٤] مسئول عن **حماية الخلايا العصبية** مما تتعرض له من توترات، خاصة فى منطقة فرس البحر Hippocampus التى هى مركز الذاكرة الواعية.

والهورمون الرابع الذى يفرزه القلب هو **هورمون الأكسيتوسين Oxytocin**، الذى كان يُعتقد أنه يُفرز من الغدة النخامية بالمخ فقط، ثم ثبت أن مستواه فى الخلايا التى تفرزه فى القلب يصل إلى نفس تركيزه فى المخ !

ولهذا الهورمون (المعروف بدوره فى تنشيط عملية الولادة وإدرار اللبن) دور هام فى الأنشطة المعرفية والجنسية والسلوكية، وفى الشعور بالأمومة، كما يدعم قدرة الإنسان على تحمل التوترات والتأقلم معها. لذلك صار الأكسيتوسين يُعرف بأنه هورمون **الترابط والتوافق**.

وأخيرًا أثبت د. آرمور[٥] قيام القلب بإفراز **هورمونَىْ النورأدرينالين Noradrenalin**

(١) ANH: Atrial Natriuretic Hormone.

(٢) BNP: Brain Natriuretic Hormone كان يُعتقد قبلًا أنه يُفرَز من المخ.

(٣) NPPC: Natriuretic Peptide Precursor.

(٤) Beta amyloid Precursor Protein.

(٥) أثبت د. آرمور وجود خلايا تُعرف باسم ICA Intrinsic Cardiac Adrenergic Cells فى جدار عضلة القلب، وهى المسئولة عن إفراز هذين الهورمونين..

ذى الدور الكبير فى إعداد الجسم للتعامل مع التوتر، وكذلك **الدوبامين Dopamin** الناقل العصبى الذى يقوم بدور هام داخل المخ وخارجه.

يا الله... إنها لغة أخرى يتواصل بها القلب مع أجهزة الجسم المختلفة ويوجهها، وعلى رأس هذه الأجهزة السيد... المخ !

التواصل بين المخ والقلب

Heart -- Brain Entertainment

تحدثنا فى النقاط الثلاث السابقة عن الجديد فى مجال فسيولوجيا القلب. ربما كان بعض الحقائق العلمية المرتبطة بهذه المفاهيم معلومًا من قبل، لكن استكمال الأبحاث فى هذه المجالات والتوصل إلى أن للقلب دورًا فى المشاعر والأحاسيس، لم يتم إلا مؤخرًا.

وإذا كان المخ هو عضو الشعور والإحساس، وهو المسئول عما يدور بداخلنا من أفكار، فكيف يتم التواصل بين هذين العضوين الحيويين (المخ والقلب)؟

لقد ثبت أن التواصل يتم من خلال أربع آليات:

أولًا: آلية عصبية Nervous Mechanism

ذكرنا أن المخ يتحكم فى تنظيم عمل القلب من خلال الجهاز العصبى اللاإرادى ANS (بشقيه الوُدى والجار ودى)؛ إذ **تنقل أعصاب هذا الجهاز التعليمات من المخ إلى القلب.**

والذى ثبت حديثًا، أن هناك إشارات غزيرة تنطلق فى الاتجاه المعاكس (من القلب إلى المخ) عن طريق نفس الجهاز العصبى اللاإرادى. ولا تنتهى هذه الإشارات عند جذع المخ Brain Stem الذى هو مركز التحكم فى هذا الجهاز، بل تصعد إلى مراكز المخ الأعلى وتؤثر فى عملها، فتصل إلى:

- **لوزة المخ** Amygdala: وهى المركز المسئول عن وظائفنا الانفعالية وعن توجيه سلوكياتنا، بناءً على مشاعرنا.

- **المهاد** Thalamus: وهو المحطة الأولى للإشارات القادمة من أعضاء الحس المختلفة (العين، الأذن...). ومن المهاد تصدر الإشارات إلى مراكز القشرة المخية المسئولة عن الإدراك التفصيلى لهذه الأحاسيس.
- **قاع الفص الأمامى للمخ** Base of Frontal Lobe: وفيه يقع المركز المسئول عن التنسيق بين المشاعر والوظائف العقلية.

ومن التطبيقات الهامة وشديدة الدلالة على دور القلب فى توجيه نشاط المخ، ما يُعرف باسم «**تنشيط العصب الحائر Vagus Nerve Stimulation VNS**»[1]. وقد أقرت الهيئة الأمريكية للأغذية والعقاقير FDA استخدام هذه التقنية لعلاج حالات الصرع المستعصية عام ١٩٩٧، ولعلاج حالات الاكتئاب المستعصية عام ٢٠٠٥. وما زالت الإدارة تدرس استخدام هذه التقنية فى علاج حالات أخرى كالتوتر والألزهايمر والصداع النصفى.

ثانيًا: آلية كهرومغناطيسية Electro-Magnetic Mechanism

تحدثنا بإسهاب عن دور القلب كمغناطيس كبير ومولد للطاقة الكهربائية، وعلاقة ذلك بأداء المخ.

ثالثًا: آلية ميكانيكية Mechanical Mechanism

يحتوى الأذين الأيمن للقلب (الغرفة المسئولة عن استقبال الدم الراجع من الجسم إلى القلب)، وكذلك الجزء الأول من الشريان الأورطى (المسئول عن توزيع الدم المدفوع من القلب إلى الجسم) على **مستقبلات ميكانيكية** Baroreceptors، تشارك فى تحديد معدل ضربات القلب وكمية وضغط الدم المدفوعة منه، وتتحكم كذلك فى نشاط القلب الكهربائى. **وتؤثر هذه المتغيرات على النشاط الكهربائى للمخ (موجات ألفا)، ومن ثَمَّ تؤثر فى أداء مراكزه المختلفة.**

---

(١) يحمل العصب الحائر الإشارات العصبية المهدئة من المخ إلى القلب، كما يحمل الإشارات فى الاتجاه المعاكس.
وتعتمد هذه التقنية على لف سلك حول العصب الحائر الأيسر بالعنق وتوصيله ببطارية كمصدر للتيار الكهربائى. إن تنشيط العصب الحائر بهذا التيار الكهربائى يماثل إرسال القلب (فى الظروف العادية) لإشارات كهربائية للمخ عن طريق العصب نفسه لتنظيم عمل المخ.
وفى الحالتين (إشارات من القلب أو من البطارية) تؤدى النبضات الكهربائية إلى تعديل إفراز بعض الناقلات العصبية بالمخ كالنورأدرينالين والجابا GABA، مما يؤثر على النشاط الكهربائى للقشرة المخية.

رابعًا: آلية كيميائية Chemical Mechanism

تحدثنا عن إفراز القلب لستة هورمونات (على الأقل)، وذكرنا دورها فى توجيه العديد من نشاطات الجسم والمخ.

هكذا يتواصل القلب مع المخ، ويؤدى هذا التواصل إلى أن[1]:

للقلب دورًا فى الشعور !

للقلب دورًا فى التفكير !

فى كتاب «**القلب الذكى The Intelligent heart**»، يوضح مؤلفاه[2] دور القلب فى توجيه حياتنا الفكرية والشعورية، بأسلوب رشيق لا يحيد عن الدقة العلمية، فيقولان:

مع كل نبضة، لا يدفع القلب دفقة من الدم فقط، بل يبعث برسائل (عصبية - هورمونية - ميكانيكية - كهرومغناطيسية) إلى المخ، مُحَمَّلة بالكثير من المعلومات. **فإذا كانت نبضات القلب فى توافق عالٍ (من ناحية المعدل والتناغم) فسوف تصل هذه المعلومة إلى المخ فتتحسن وظائف القشرة المخية (الحسية والإدراكية والمعرفية والذهنية والنفسية)**. ويؤدى ذلك إلى صفاء عقلى ونفسى، مع قدرة أعلى على وزن الأمور واتخاذ القرار، فتتفجر القدرات الإبداعية للإنسان. ويؤدى ذلك كله إلى قدر عالٍ من التوافق العقلى والتوافق النفسى.

ويمكن النظر إلينا باعتبارنا **مغناطيسات متحركة، لها قوى جذب وتنافر تتفاعل مع المتشابهين والمخالفين**. وقد أكدت الدراسات تأثير الحب والحنان والرعاية التى يلقاها مرضى السرطان من قِبَل أهليهم وأطبائهم وممرضاتهم فى الحد من تقدم المرض، وذلك من خلال التحسن الملحوظ فى أداء الجهاز المناعى للمريض.

القارئ الكريم..

تَجَمَّع لنا من هذا الفصل، والفصل السابق له، الكثير من المعلومات، التى تؤكد وجود علاقة قوية بين المفاهيم الروحية والدينية وكذلك الشعور والتفكير، وبين بيولوجية جسم الإنسان.

---

(١) كان ثالوث الفلسفة اليونانية القديمة (سقراط - أفلاطون - أرسطو) يؤمنون أن كلًّا من العقل (مهمة المخ) والشعور (مهمة القلب) يمثلان جانبين متقابلين للروح الإنسانى، وليسا من وظائف الجسد المادى، وأنهما فى صراع دائم لتوجيه الإنسان. لذلك شبه أفلاطون المشاعر بالحصان البرى الجامح الذى يروضه العقل.

(٢) David Mc Arthur و Bruce Mc Arthur من الكتاب المهتمين بالذكاء الروحى وبالعلاقة بين الشعور والتفكير.

وقد ألزمنا التناول الأمين لهذه القضية طرح ما تم التوصل إليه، دون القفز إلى وضع تصور متكامل لهذه العلاقة.

لقد تبنى المهتمون بهذه المفاهيم عِدَّة مواقف:

تبنى **الملحدون** موقف الرفض، وهذا أمر طبيعى.

اتخذ **المتدينون** موقفًا من ثلاثة:

- هناك مَنْ هَرْوَلَ إلى وضع استنتاجات حاسمة، معتبرًا ما تم التوصل إليه من مفاهيم حقائق علمية متكاملة، واعتبرها البعض من أدلة الإعجاز العلمى القاطعة للقرآن الكريم.
- هناك من تحفظ بشدة، معتبرًا أن المشاعر الروحية والدينية من شئون الروح، وليس للجسد دخل فيها. ويخشى هذا الفريق أن يَردنا الطرح العلمى إلى الفكر المادى، ومن ثَمَّ إلى الإلحاد. وسنُفَصِّل هذا الموقف فى الفصل القادم.
- من المتدينين من يرى أن الله ﷻ جعل من هذه الآليات البيولوجية حلقة الوصل بين الروح والجسد، تمامًا كما جعل المخ آلة العقل فى الإنسان. ولا شك أن هذا هو الموقف الأصوب.

وككلمة أخيرة، نختم بها هذين الفصلين عن الدين والبيولوجيا، نقول:

إذا كانت النظرة العلمية التقليدية تؤكد انفراد المخ بالنشاط العقلى ومسئوليته عن الحالة النفسية، فقد تمخضت الأبحاث الحديثة الدقيقة عن نظرات ونظريات جريئة، ستكشف النقاب فى المستقبل عن **كيف يسلك الإنسان كمنظومة متصلة متكاملة من منظومات أصغر (الروح – العقل – النفس – الجسد) تقوم فيها الشفرة الوراثية والمخ، كما يقوم فيها القلب، بدور كبير.**

ولا شك أنه لن تمضى سوى عقود قليلة من الأعوام، حتى يكون العلم قد اقترب بشكل كبير من الإجابة عن تساؤلات كل من الماديين والمتدينين.

obeikan.com

الفصل السابع

حقيقة الذات الإنسانية

ماذا بعد البيولوجيا؟

انصَب استعراضُنا فى الفصلين السابقين (الإيمان والبيولوجيا) على الجينات، ومراكز المخ ودوائره العصبية، وعلى القلب وعلاقته بالمخ وبما حوله، أى على **الجانب المادى للإنسان**. **فهل تقف حقيقة الإنسان ككائن حى مفكر متدين** عند هذا الحد؟

عندما تصدى **البيولوجيون** لدراسة الظواهر المميِّزة للإنسان (الحياة وما يتبعها من تفكير ومشاعر وسلوك وتدين) استخدموا آليات العلم المادى المعاصر، وأساسها **المنهج المادى الاختزالى Reductionism**، الذى يُشَرِّح الكائن الحى إلى أعضاء، ثم إلى أنسجة، ثم إلى خلايا، ثم جزيئات، حتى يصل بعد ذلك إلى مستوى الذرات والمُكَوِّنات تحت الذرية وموجات الطاقة. ولا شك أن المنهج الاختزالى بذلك يكون قد اختزل الحياة (البيولوجيا) إلى المادة (الفيزياء). **وتكون ظاهرة الحياة التى يدرسها قد اختفت من الخلية أصلًا!!** فالحياة ليست هى الجزيئات أو الذرات أو الطاقة.

وسنطرح فى بداية هذا الفصل مثالين يُظهران قصور هذا المنهج الاختزالى: جزىء الدنا DNA وعلاقته بالحياة، ثم العلاقة بين المخ والعقل.

الدنا DNA

حين توصل العلماء إلى أهم اكتشاف بيولوجى فى القرن العشرين، وهو **اكتشاف تركيب جُزىء الدنا DNA وآلية عمله**[1]، ظن كثير من البيولوجيين أن العلم قد اكتشف سر الحياة.

وبعد خمسين عامًا من الأبحاث المُضنية زال الانبهار، وبدأ البيولوجيون يرون الحقيقة. وهى أن **الدنا DNA** مجرد جُزىء بيولوجى مُرَكَّب بطريقة مذهلة ويعمل بطريقة مُبهرة، بحيث يحتوى على المعلومات الكيميائية التى تحتاجها الخلية لتصنيع بروتيناتها، ولنقل صفاتها الوراثية[2]، ولكن **ليس ذلك هو سر الحياة**.

إن الدنا DNA كالكلمات المطبوعة على هذه الورقة التى بين يديك، **إن المعلومات لا تكمن فى الورقة ولا فى حبر الكلمات ولا فى كل كلمة منفردة**، ولكن فى المعانى التى تعبر عنها هذه الكلمات المطبوعة على الورقة. هذه المعلومات يمكن أن تُسَجَّل على شريط ممغنط كما فى جهاز التسجيل، ويمكن أن تُسَجَّل بمنظومة رقمية على أسطوانة مضغوطة CD، كل ذلك لا يهم، المهم هو المعلومات التى تُشفَّر لها هذه الرموز.

معضلة التشكيل Morphogenesis

يرى المفهوم السائد عند الماديين الاختزاليين Reductionists أن الدنا DNA (الذى تتكون منه جينات الخلية) يقوم بكل الدور فى بناء الكائن بصفاته الجسمية والنفسية والسلوكية. وقد تأكد أن هذه النظرة الاختزالية مفجعة فى قصورها؛ إذ ثبت للبيولوجيين حديثًا أن الدنا، وإن

---

(١) توصل جيمس واطسن وفرانسيس كريك وموريس ولكنز فى أوائل الخمسينيات إلى هذا الاكتشاف، وحصلوا من أجل ذلك على جائزة نوبل فى الطب عام ١٩٦٢.

(٢) **يتكون جزىء الدنا** من العديد من الحلقات التى تنتظم فى شكل سلسلتين تلتفان حول بعضهما على هيئة ضفيرة، وتلتف هذه الضفيرة حول نفسها بطريقة شديدة التعقيد داخل نواة الخلية. ويبلغ طول هذه الضفيرة إذا فَرَدْنا التفافاتها ٢,٠٤ متر لكل خلية. وإذا وَصَّلنا ضفائر الدنا الموجودة فى خلايا جسم إنسان واحد، لبلغت طولًا مذهلًا، يقطع المسافة من الأرض إلى الشمس أكثر من خمسة ملايين مرة !!

وتنقسم سلسلة الدنا DNA إلى وحدات، هى **الكروموسومات**، التى تتكون من وحدات أصغر هى الجينات. ويقوم كل جين بإعطاء الوصفة الكيميائية اللازمة لتصنيع بعض البروتينات. كما توجد أطوال شاسعة من الدنا ليس بها جينات (تعادل حوالى ٩٥٪ من طول السلسلة) أُطلِق عليها سابقًا اسم **سَقْط الدنا Gung DNA** (أى الدنا الذى لا دور له !)، ثم ثبت حديثًا أن لهذا الدنا الذى أُعتبر سقطًا دورًا أساسيًّا فى التحكم control فى تنشيط كل جين حسب برنامج زمانى ومكانى يعجز العقل عن تصوره، حتى صار يُنظر إليه باعتباره «مايسترو» الجينات، كما أن له وظائف أخرى لم يكتشف العلماء معظم أسرارها بعد.

كان يحدد الصفات، فإنه يعجز تمامًا عن تشكيل الكائن على هيئته morphogenesis (أى **تحويله من مجرد معلومات إلى وجود حقيقى**).

ويمكن أن نوضح مفهوم التشكيل بمثال يُقَرِّب لنا الصورة: كيف يمكن أن تتحول كلمات نخطها على أوراق، نَصِف فيها هيئة إنسان، مهما بلغت تفاصيلها ودقتها، إلى إنسان حقيقى (من لحم ودم) ! لقد أصبح من الضرورى الإقرار بأن هناك «**نظامًا ما**» هو المسئول عن هذا التشكيل. ولكن كيف؟ وما هو هذا النظام؟ لا ندرى حتى الآن.

المخ والعقل[1]

وبالمثل، عندما نختزل المخ المادى إلى مكوناته الجزيئية والذرية وتحت الذرية، هل يوصلنا ذلك إلى فهم **حقيقة العقل**؟ **وهل يرجع النشاط العقلى إلى كيمياء وكهرباء المخ**، التى هى فى النهاية أيونات صوديوم وبوتاسيوم فى حركة دائبة عبر جدار الخلية العصبية؟ كيف تُمكننا حركة هذه الأيونات من أن ندرك **المفاهيم المجردة Concepts** مثل قولنا «إن الإنسان هو ذلك الكائن السامى الباحث عن المَعنَى، المُحِب للجمال، المنبهر بالمجهول، والمتطلع إلى الحقيقة والحق والخير والعدل»؟!

إن المخ جهاز مادى يتكون من شبكات بالغة التعقيد من الخلايا العصبية[2]، تتعامل كلها بلغة واحدة وهى **النبضة الكهروكيميائية**، ويستحيل مهما بحثنا - حتى الآن - داخل المخ، أن نعثر على ما يشير إلى ملايين المشاعر والمفاهيم المُجَرَّدة والأفكار والأحاسيس العقلية.

إن الفرق بين المخ و العقل كالفرق بين نُطق الكلمة ومعنى الكلمة. فالنطق آليه من عالم الطبيعة المادية، إنه عبارة عن صوت مستمر تُخرجه الحنجرة على هيئة ذبذبات واهتزازات فى

(١) يُطلَق اصطلاح العقل على عدد من الوظائف العليا التى تمارسها القشرة المخية للنصفين الكرويين لمخ الإنسان، وتشمل هذه الوظائف: الشعور - التعلم - الذاكرة - اللغة - المنطق - القدرة على الحكم على الأشياء.

(٢) ينبغى أن نذكر هنا أن الخلايا العصبية Neurons التى تم التركيز على دراستها لمعرفة وظائف المخ تمثل حوالى ١٠٪ من خلايا المخ، بينما تمثل الخلايا الدبقية الداعمة Glial Cells حوالى ٩٠٪ من خلاياه، وقد ثبت حديثًا أن هذه الخلايا دورًا هامًّا فى وظائف المخ يتجاوز كثيرًا ما تم اكتشافه حتى الآن من وظائف داعمة. كذلك ذكرنا أن الدنا الذى أُعتبر سقطًا ولا وظيفة له (سقط الدنا) يمثل حوالى ٩٥٪ من بنية الدنا. إن ذلك يعنى أن العلماء بتركيزهم على الجينات الموجودة داخل الخلايا العصبية عند دراستهم لعمل المخ قد ركزوا على حوالى $\frac{1}{2}$٪ فقط من مادة المخ!! (١٠٪ × ٥٪) مما يعنى أن حوالى ٩٩,٥٪ من مادة المخ الوراثية لم تتم دراستها جيدًا بعد.

الهواء، ثم يُحدِث الحلق واللسان والشفتان تَقَطُّعات فى هذا الصوت المستمر لتُشَكِّله على هيئة حروف وكلمات، إن الأمر كله فيزياء، هذا هو نطق الكلمات. أما المعنى فهو شىء آخر، فقد يكون تعبيرًا عن الحب أو إعلانًا للحرب أو أى مفهوم آخر، إن معنى الكلمات شىء خارج عن هذه الآليات المادية وعن تركيب الكون المادى!

الإجابة عند الميتافيزيقيين

بدأ بعض كبار العلماء يتحدثون عن العجز الكامل عن فهم آلية التشكيل Morphogenesis اعتمادًا على الدنا فقط، ويتحدثون كذلك عن أن النشاط الكهروكيميائى لخلايا المخ يعجز وحده عن تفسير العقل والسلوك[1].

ويرى هؤلاء العلماء أنه **لا بد من توسيع تصوراتنا، لتشتمل على نوع ما من المجالات فوق المادية Supernatural Fields**، تكون هى المسئولة عن التشكيل، ومسئولة كذلك عن العقل والسلوك لكل كائن حى. لذلك يؤكد فرانكلين هارولد **أن الفكر المادى الطبيعى Naturalism قد فشل فى تفسير أو فهم الظواهر الثلاث الكلية وهى الكون - الحياة - العقل.**

وللفيلسوف دافيد شالمرز[2] David Chalmers بحث قيم بعنوان: **العقل ومكانته فى الطبيعة** «consciousness and its place in nature» استعرض فيه الأفكار المعاصرة التى تُطرَح حول حقيقة العقل، وتحاول تفسير كيف تنشأ الأحاسيس والمعانى والأفكار المجردة، وما مصدرها.

ويخبرنا شالمرز أنه قد تصدى لهذه القضية اتجاهان رئيسيان: **الاتجاه المادى الفيزيائى** الذى يَفْترض أن العقل ظاهرة مادية من نَتَاج المخ، وأن كهرباء وكيمياء المخ يمكن أن تُفَسِّر لنا العقل وما يمثله من وعى وإحساس وأفكار مجردة، ومن ثم **فليس هناك شىء آخر فوق المخ.**

أما **الاتجاه اللامادى اللافيزيائى**، فيرى أن العقل ظاهرة غير فيزيائية غير مادية، وإن كان على اتصال بالظواهر الفيزيائية. ويرى هذا الاتجاه **أن العقل والمخ يختلفان تمام الاختلاف،**

(١) انظر كتاب «مسار الخلية The way of the cell» (نشر عام ٢٠٠٣) تأليف فرانكلين هارولد Franklin Harold، أستاذ الكيمياء الحيوية والبيولوجيا الجزيئية بجامعة كلورادو.

(٢) أستاذ الفلسفة الشهير ومدير مركز أبحاث العقل فى أستراليا. والبحث المذكور نُشر لأول مرة فى كتاب فلسفة العقل (عام ٢٠٠٢). Phylosophy of mind, classical and contemporary readings.

وينتميان إلى عالَمَين مختلفين، المخ ينتمى إلى عالم المادة، بينما ينتمى العقل إلى عالم غير مادى لا ندرك حقيقته بتاتًا.

ظاهرة الرؤية المسبقة = ظاهرة الشعور بالألفة

ومن الأدلة القوية التى يقدمها أصحاب الاتجاه اللامادى **ظاهرة الرؤية المُسبَقة** Deja Vu Phenomenon. وهى ظاهرة معروفة فى علم النفس، بل عشناها كلنا أو معظمنا.

تعنى الرؤية المُسبَقة، أننا قد نَمُر فى حياتنا بموقف ما، ونشعر تجاهه بالألفة، وبأننا قد عايشنا هذا الموقف بملابساته وتفاصيله من قبل، بل نشعر أن عقلنا قد سبق واطَّلَع فى أحد أحلامنا على ما سوف يحدث من تفاصيل الموقف !!

لقد بَسَّطَ الماديون الأمر ليخرجوا من هذا المأزق، وعَللوه بأنه مجرد **تَوَهُّم Illusion** نشعر به فى لحظتها. كما قدموا تفسيرًا آخر للظاهرة، وهو **أن أحد نصفى المخ قد أدرك الموقف قبل النصف الآخر** بجزء ضئيل جدًّا من الثانية، وعندما أدرك النصف المُتأخر الموقف، شعر الإنسان بالأُلفة تجاه ما يرى.

وفى المقابل، هناك **العديد من المواقف التى سجلها المهتمون بدراسة هذه الظاهرة**، والتى تدفع تمامًا هذه التفسيرات المادية. من هذه المواقف ما رواه لى صديق من أنه رأى فى أحد أحلامه أن الجزء الأيمن من مؤخرة رأس ابنه حليق. بعدها بيومين، كنت وصديقى عائِدَين إلى المستشفى التى نعمل بها، فإذا بالصبى فى غرفة الاستقبال، والأطباء يخيطون له جرحًا أصابه فى رأسه، وقد حلقوا له بالتحديد هذا الجزء من فروة الرأس! **كذلك يقوم البعض، ومنهم كاتب هذه السطور، بتدوين أحلامهم المُفَصَّلة**، حتى إذا مر بهم موقف استشعروا فيه وجود «رؤية مُسبَقة»، رجعوا إلى ما دَوَّنُوه سابقًا، ليجدوا تطابقًا كاملًا بين بعض هذه المواقف التى يَحيونها وبين إحدى الرؤى المُدَوَّنَة.

إن هذه الظاهرة تَردُّ الاتجاه المادى تمامًا؛ إذ كيف يُدرك المخ المادى أمرًا لم يحدث بعد، بتفاصيله !

كان طبيعيًّا ألا يقف **العلم التجريبى** فى موقف المتفرج تجاه قضية «العقل وحقيقة الذات».

ومن العلماء الكبار الذين اهتموا بهذه القضية د. جارى شوارتز Gary Schwartz[1].

ومجال اهتمام د. شوارتز هو **ما وراء النفس (الباراسيكولوجى Parapsychology)**، لذلك فإن هدف مركز أبحاث الطاقة البشرية الذى يُشرِف عليه بقسم الطب النفسى بجامعة أريزونا، هو إثبات **أن المخ البشرى يعمل كمستقبل Antenna-Receiver للذات الإنسانية**، وليس كمصدر للذات Creator، وكذلك اختبار **فرضية Hypothesis أن جوهر الإنسان يبقى بعد موت الجسد.**

وتعتمد دراسات د. شوارتز على أسلوب معروف فى الباراسيكولوجى، وهو **اتصال بعض الأشخاص الوسطاء Mediums بأشخاص ماتوا.** ويؤكد د. شوارتز أن هذه هى الوسيلة الأفضل (حتى الآن) لدراسة هذه القضية، بشرط الالتزام بالمنهج العلمى فى التأكد من مصداقية الوسطاء، وفى تحليل النتائج.

وينطلق د. شوارتز فى نظريته عن الذات الإنسانية من مفاهيم فيزيائية ومنطقية. **فجميع أفعال الإنسان كالكلام والحركة تنطلق فى الفضاء على هيئة موجات كهرومغناطيسية** ولا تفنى، فنحن باقون، تمامًا كالضوء الذى يأتينا من النجوم البعيدة، التى ربما تكون قد انفجرت وتلاشى وجودها المادى منذ ملايين السنين!

ويؤكد د. شوارتز أنه إذا كان العلم هو الوسيلة لمعرفة كيف يفكر الإله[2]، فإنه أيضًا الوسيلة لمعرفة حقيقة «الذات الإنسانية»، التى يطلق عليها المتدينون اسم «الروح». ويعلن أنه لم يصل ـ حتى الآن ـ إلى الأدلة العلمية القاطعة على حياة الذات الإنسانية بعد الموت. ولكنه

(١) حصل جارى شوارتز على الدكتوراه من جامعة هارفارد، ويشغل الآن منصب أستاذ الطب النفسى بجامعة أريزونا، بعد أن كان أستاذًا للطب النفسى والأمراض العصبية ومديرًا لمركز الطب النفسى بجامعة ييل بالولايات المتحدة. وله عدة مؤلفات حول حقيقة الذات، منها «الأدلة العلمية على الحياة بعد الموت Breakthrough Scientific Evidence of Life After Death» و«الطاقة الحية فى الكون The Living Energy in Universe».

تعمدت أن أُعَرِّف بدكتور شوارتز بالتفصيل، لنعرف قدر الرجل الذى يواجه معارضة كبيرة من الكثير فى الأوساط العلمية، التى تعتبر أن الخوض فى هذه الأمور من العلم الزائف Pseudoscience.

(٢) استخدم أينشتين هذا الاصطلاح، ويقصد به إدراك القوانين الطبيعية التى تحكم الكون والإنسان.

متأكد من أن العلم (فى زمن قريب) سيتجاوز فكرة فناء الإنسان بموت الجسد، تمامًا كما تجاوز فكرة أن الأرض مستوية.

الذات والمخ التابع لها

وللإجابة على التساؤل حول حقيقة الذات الإنسانية، وضع كارل بوبر[1] Karl Popper فيلسوف العلوم الأشهر، مع سير جون إكلز John Eccles[2]، كتابًا فى أكثر من خمسمائة صفحة، يشى عنوانه بأبعاد القضية. وعنوان الكتاب «الذات والمخ التابع لها[3]» The Self and its Brain، أى أن لكل منا ذاتًا حقيقية تستعمل المخ كأداة و كآلة. وهذا هو نفس المعنى الذى تحدث عنه د. شوارتز من أن المخ يعمل كمستقبل للذات الإنسانية.

ويمكن، انطلاقًا من عنوان هذا الكتاب، أن نُلَخِّص القضية التى نطرحها فى هذا الفصل، والتى طالما حَيَّرت العلماء والفلاسفة، وإن كانت قد حُسمت عند المتدينين، فى تساؤل واحد: **هل حقيقة الإنسان تكمن فى «الذات والمخ التابع لها» أم «المخ والذات المنبثقة منه»؟**

القارئ الكريم...

كان هدفى عند كتابة هذا الفصل **أن أزعزع (بالتناول العلمى) يقين الماديين بأن المخ هو مصدر الذات الإنسانية، وأن أبين للمتدينين أن قضية الروح قضية علمية يمكن أن تخضع للبرهان العقلى بل والبحث العلمى**[4].

لذلك اكتفيت فى طرحى السابق **بعرض مختصر (غير مخل)** للتناول الفلسفى والعلمى للذات الإنسانية، واستشهدت بالقليل من الكتب والأبحاث كنموذج لآلاف الدراسات

(١) أستاذ الاقتصاد بجامعة لندن. ومن أشهر علماء فلاسفة العلوم فى القرن العشرين.

(٢) عالم بيولوجيا المخ والأعصاب الكبير، والحاصل على جائزة نوبل فى وظائف الأعضاء عام ١٩٦٣.

(٣) طُبع لأول مرة عام ١٩٧٧، وصدرت طبعته الخامسة عام ٢٠٠٣.

(٤) يظن البعض أن القرآن الكريم ينهى عن البحث فى الروح، لقول الحق ﷻ: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[الإسراء: ٨٥]

إن الآية لا تعنى النهى، لكن تشير إلى عِظَم أمر الروح، وإلى أن ما سنحصله عن حقيقتها بعد البحث لن يكون إلا القليل، وهذا القليل هو ما نبحث فيه. وقد أدرك السلف الصالح هذا المعنى، فأخرج لنا الإمام ابن القيم كتابه الأشهر «الروح».

حول الموضوع. وأعتقد أن فيما عرضت الكفاية للإلمام بالخطوط الرئيسية للقضية. لكن يبدو أن القضية أبت إلا أن تطرح نفسها عليك (قارئى الكريم) بقوة وبمزيد من التفصيل.

فبينما الكتاب ماثلًا للطبع، دار حوار ثرى بين **ثلاثة من المهتمين بالعلاقة بين المخ والذات الإنسانية**. وقد رأيت أن أضم ذلك الحوار إلى هذا الفصل، لاعتقادى أنه **سيثرى القضية، ويدفع بها خطوات إلى الأمام، ويضع النقاط فوق الحروف** كما يقولون.

وأول الثلاثة المشاركين فى الحوار، الصحفى والإعلامى الأمريكى الشهير «لى ستروبيل» Lee Stroble، الذى كان يتبنى الفكر الإلحادى لسنوات ثم فارقه إلى الإيمان والقول بالإله. وأعرض تساؤلاته باعتباره **ممثلًا للفكر المادى**، وسأرمز إليه باسم «**زوبعة**» !

والثانى هو د. موريلاند J.P.Moreland أستاذ الفلسفة الأمريكى المهتم بفلسفة العقل وعلم الأديان. والثالث هو «أنا»، مؤلف الكتاب الذى بين يديك. وأُمثل مع د. موريلاند **وجهة النظر الدينية**، وسأرمز إلينا باسم «**راسخ**» !

وقد اخترت للحوار عنوان:

الوعى والعقل والذات الإنسانية

أثار «زوبعة» الحوار، بأن سأل «راسخًا»:

يتميز الإنسان على سائر الكائنات بالعقل Mind، الذى يُعتَبر «**الوعى**» Consciousness أهم مظاهره، فكيف يمكننا **تعريف الوعى؟**

أجاب راسخ: إن الوعى هو القدرة على التأمل فيما حولنا وفيما بداخلنا. إنه يقف وراء الأحاسيس والأفكار والمشاعر والرغبات والمعتقدات وحرية الاختيار؛ إنه ما يجعلنا نشعر بأننا أحياء.

إن الوعى ببساطة هو **الفرق بين الإنسان المستيقظ والإنسان النائم**. عندما تستيقظ من النوم، ألا تشعر أنك كنت غائبًا أو معدومًا، ثم بدأت تدرك ما حولك: تتعرف على من يوقظك، أين أنت، فيم كنت تفكر قبل النوم، الالتزامات التى عليك القيام بها هذا الصباح. لقد عدت إلى مسرح الحياة، لقد أصبحت واعيًا.

ويمكن تشبيه الوعى **بالتيار الكهربائى الذى لا يعمل الكمبيوتر إلا به**؛ إذ تتلاشى قدرات الكمبيوتر إذا تم فصل التيار الكهربائى عنه.

قال زوبعة: يعتبر كثير من البيولوجيين أن العقل Mind المسئول عن الوعى **نتاج مباشر للمخ المادى Brain، تمامًا كما تنتج الكليتان البول**. لذلك يعتقد أنصار التطور الداروينى، أن ما أن وصل المخ إلى حجمه الحالى وتعقيده المذهل حتى بزغ العقل تلقائيًا كخطوة تطورية.

لِأَكُنْ أمينًا معك. **لا يمكننى أن أتصور أن التطور العشوائى قادر على تشكيل العقل الإنسانى** بكل ملكاته، فما رأيك أنت؟

أجاب راسخ: لست وحدك الذى تجد صعوبة فى ذلك، انظر إلى ما يقول أستاذ الفلسفة البريطانى بجامعة أكسفورد، كولن ماك جن Colin Mc Ginn:

لا أستطيع أن أتصور أن المادة يمكن بأية آلية بيولوجية أن تكتسب العقل. **إن العقل كالحياة، ضيف جديد تمامًا على الكون، إنه قفزة هائلة من نوع مختلف**. ولا ينبغى أن يتهرب البيولوجيون التطوريون من المشكلة بأن يغضوا النظر عنها !!

وأضاف راسخ: إن القائلين ببزوغ العقل من المخ المادى يواجهون أربع مشكلات:

أولًا: إن قولهم هذا، يعنى أن **المادة تتميز بعقل كامن فيها**، وعند وصول المادة إلى درجة معينة من تعقيد البنية، تتفجر وتظهر هذه القدرات الكامنة!

لقد أَضْفَوا على المادة صفات تخالف تمامًا المفاهيم المادية، **إنها صفات أقرب لمنظور المتدينين من منظور الماديين**.

ثانيًا: إذا انبثق العقل من المادة، دون استمداد من ذكاء مطلق أعلى، **فكيف نثق فى أحكامه؟**

من باب التشبيه، إذا قام شخص متخلف عقليًّا ببرمجة الكمبيوتر، هل تثق فيما نحصل عليه من مُخرَجات الكمبيوتر! فما أدراك لو لم يكن لهذا المبرمِج عقلًا بالمرة ؟!

ثالثًا: تؤمن عقولنا **بالعديد من المفاهيم البديهية**[1] التى لا نطلب دليلًا عليها، وأولها اعتقادنا فى سلامة عقولنا وأحكامنا، فمن أين أتت هذه المفاهيم التى نبنى عليها كل أمور حياتنا

(١) من المفاهيم البديهية أن الجزء أصغر من الكل، وأن وراء كل نتيجة سببًا.

وكل أفكارنا ومفاهيمنا؟ وكيف تكون إفرازًا مباشرًا للنشاط الكهروكيميائى لخلايا المخ؟ وكيف يجعلنا المخ نثق فى هذه المفاهيم البديهية بهذا اليقين.

رابعًا: إن بزوغ العقل من **المادة يتطلب خضوعه لقوانينها الكيميائية والفيزيائية، وما تتسم به من حتمية**. إن افتراض الحتمية يتنافى مع ما يتمتع به الإنسان من حرية الاختيار، فأنت تستطيع أن تستكمل قراءة هذا الفصل، أو أن تغلق الكتاب.

قاطع زوبعة مُلِحًّا: أسألك أن تتماشى معى. لو افترضنا أن العقل انبثاق مباشر من المخ كما يعتقد الماديون، فماذا يترتب على ذلك؟

أجاب راسخ: لن يمكننى أن أتماشى معك كثيرًا، **فلو صدق هذا المنظور لَـمـا وُجد العقل الإنسانى أصلًا !!**

فإذا كان العقل نتاجًا مباشرًا للمادة (المخ)، لَتَبَنَّى جميع البشر رأيًا واحدًا فى كل قضية؛ **إذ إن النظرة المادية واحدة** كما نجد فى العلوم الطبيعية. معنى ذلك أن **تختفى النظرة النسبية للأمور، والتى هى أهم سمات العقل الإنسانى**.

قال زوبعة: لقد طرحت العوائق المنطقية أمام فكرة انبثاق العقل من المخ المادى، واستنتجت من وجود هذه العوائق أن العقل ليس من نتاج المخ. إن مثل هذا الدليل يُعتبر عند علماء المنطق **دليلًا سلبيًّا**، فهل لديك **دليل إيجابى** على ذلك؟

أجاب راسخ: سأقدم لك **أدلة تجريبية**. ولا شك أن الدليل التجريبى هو أقوى الأدلة العلمية.

لقد أجرى د. ويلدر بنفيلد Wilder Penfield (مؤسس علم جراحة الأعصاب الحديث) أكثر من ألف عملية جراحية لمرضى الصرع الذين لا يستجيبون للعلاج، وقد حاول أثناء إجرائه للجراحات أن يتوصل إلى **موضع العقل داخل المخ البشرى**، وذلك عن طريق التنشيط الكهربائى لمراكز القشرة المخية المختلفة، فى الوقت الذى يكون فيه المريض تحت التخدير الموضعى.

وعند تنشيط منطقة معينة، كانت يد المريض تتحرك، فيحاول المريض أن يمنعها عن الحركة بيده الأخرى. وعندما ناقش بنفيلد مرضاه، أجابوا بأنه هو الذى يحركها، وأنهم لا يستطيعون منعها.

معنى ذلك، أنه بينما كانت إحدى يدى المريض تحت التحكم المباشر للنشاط الكهربائى للقشرة المخية، كانت إرادة المريض تحاول أن تمنعها باستخدام اليد الأخرى. إن ذلك يؤكد أن **للإنسان إرادة منفصلة عن النشاط الكهروكيميائى للمخ**.

وبالرغم من أن د. بنفيلد كان يهدف من أبحاثه إلى إثبات أن مخ الإنسان هو كل شىء، وليس وراءه شىء آخر، فإنه **أقر فى النهاية بأن كلًّا من المخ والعقل يمثل وجودًا مستقلًّا، وذوطبيعة مختلفة!**

كذلك أكد د. روجر سبيرى Roger Sperry (حصل على جائزة نوبل لأبحاثه حول اختلاف وظائف كل من نصفى المخ) بعد تجاربه وأبحاثه المستفيضة على المخ البشرى، **أن الوظائف العقلية لا تعتمد على نشاطات المخ المادى، وإن كانت تستعمله كآلة**.

قال زوبعة: لا شك أن قضية مصدر العقل الإنسانى من أهم القضايا فى حياتنا، وإن لم تثر اهتمام العامة. فهل هناك المزيد من الأدلة على أن العقل شىء والمخ شىء آخر؟

قال راسخ كأنه يقاطع زوبعة:

أستمحيك عذرًا... لدى موعد لزيارة الطبيب لإجراء بعض الفحوصات المعملية والإشعاعية ليطمئننى على وظائف قلبى ورئتى ومخى. ولا مانع من أن أجرى بعض الفحوصات وكذلك رسم المخ الكهربائى للاطمئنان على صحة أو خطأ أفكارى ومشاعرى! ها.. ها.. ها.

لا شك أن أية فحوصات تُجرى على المخ لن تستطيع أن تَطَّلع على أفكارنا، وتُقَوِّم صحتها أو خطأها. إن ما يدور فى عقولنا أمر شديد الخصوصية.

قاطع زوبعة راسخًا قائلًا: لقد أثبت العلم إمكانية الاطلاع على نشاطاتنا العقلية، فالأطباء يستطيعون الآن عن طريق تسجيل نشاط المخ الكهربائى وملاحظة حركات العينين أثناء نومنا، أن **يحددوا متى نحلم**.

قال راسخ: هل تستطيع حركات العين ونشاط المخ الكهربائى أن **يُخبرانا بمحتوى أحلامنا؟** لا بد أن نوقظ الشخص ليخبرنا عن مضمون حلمه.

إن النشاط الكهربائى الذى نسجله أثناء أحلامنا يعنى أن هناك تلازمًا بين نشاطنا العقلى وبين نشاط المخ الكهربائى، لكن ذلك **لا يحدد أيهما السبب وأيهما النتيجة**.

وقف زوبعة متحفزًا وقال لراسخ:

لدَّى دليل علمى قوى، لا أحسبك قادرًا على دفعه، يؤكد أن المخ هو مصدر العقل، بل ومصدر الشعور بالذات.

لقد استطاع الإنسان، منذ قديم الزمان، **التحكم فى درجة وعيه وحِدة عقله وشعوره بذاته، عن طريق العقاقير المخدرة والمهلوِسة والخمور:**

تارة يقل وعى الإنسان وشعوره بذاته؛ أنا فين !

وتارة تتشوش فكرته عن نفسه؛ أنا جدع !

وتارة ينفصل عن الوجود، وينتقل إلى عوالم أخرى!

وتارة يُحجَب عن عقله!

كذلك استطاع **أطباء الأمراض النفسية**، عن طريق العقاقير التى تُعَدِّل فى كيمياء المخ، أن يغيروا من مشاعر الإنسان، بل ويغيروا من نظرته لذاته وللوجود. لقد استطاعوا عن طريق العقاقير أن يصلحوا الكثير مما يصيب الوعى والعقل والنفس.

ألا يثبت ذلك كله، **أن كيمياء المخ وراء كل شىء**، ومن ثَمَّ فإن الوعى والعقل والشعور بالذات تنبثق جميعها من المخ؟

أجاب راسخ مبتسمًا:

من التشبيهات التى تُستخدم كثيرًا وتُعَبِّر جيدًا عن العلاقة بين عقل الإنسان ومخه هو تشبيهها بالعلاقة بين الموجات الكهرومغناطيسية التى تحمل **البث التليفزيونى (العقل)** وأجهزة التليفزيون المستقبِلة **(المخ)**. ولا شك أننا نستطيع عن طريق التحكم فى أجهزة التليفزيون **أن نغير الكثير من مواصفات البث الذى نستقبله**.

فنحن نستطيع أن نجعل الصورة ملونة أو غير ملونة، زاهية أو معتمة، نجعلها صافية أو مشوشة، نرفع من شدة الصوت أو نخفضها، بل ونستطيع أن نقوى من قدرة الجهاز على

الاستقبال، كل ذلك والبث التليفزيونى لا يتغير. هذا ما تفعله تمامًا العقاقير المخدرة والمهلوِسة والخمور والعقاقير الطبية فى جهاز التليفزيون، أقصد فى المخ.

قال زوبعة: لقد أُثْبِتَّ لى تجريبيًّا ومنطقيًّا أن عقل الإنسان ظاهرة غير مادية، وليس نتاجًا للمخ البشرى المادى. **فهل العقل هو حقيقة الإنسان وذاته وجوهره؟**

أجاب راسخ: لا، فإذا كان الوعى من وظائف العقل، فإن العقل من مظاهر الذات الإنسانية.

تساءل زوبعة: وما هى الذات الإنسانية؟ ولم لا تقبل فكرة أن العقل هو آخر المطاف، وأنه هو ذات الإنسان؟

قال راسخ:

دعنى أروى لك حكاية حقيقية مؤلمة، لكنها تبين بوضوح ما أقصد:

تعرضت إحدى طالباتى فى الجامعة لحادث شديد أثناء شهر العسل، **فقدت على إثْره «الوعى» لعدة أيام.** وعندما استعادت وعيها، كانت تعانى من **فقدان جزئى «للذاكرة»** أنساها أنها متزوجة. كما كانت تعانى من **تغير فى «شخصيتها وسلوكها»**.

وكخطوة علاجية عرضوا عليها تسجيلًا لحفل زفافها، فأدركت تدريجيًّا أنها متزوجة من ذلك الرجل، كما استعادت تدريجيًّا شخصيتها وطبيعتها.

لقد كانت سوزى طوال فترة غيابها عن وعيها **هى هى سوزى** بالنسبة لنا. كما **كانت تدرك طوال فترة فقدانها الجزئى للذاكرة وتغير شخصيتها أنها سوزى!**

ألا يثبت ذلك أن لنا وجودًا حقيقيًّا، مختلفًا عن وعينا وذاكرتنا وشخصيتنا.

إننا نظل «نحن»، حتى وإن غبنا عن وعينا ووهنت ذاكرتنا وتشوهت شخصيتنا وطبيعتنا.

إذا شَرَّحنا مخ الإنسان جزءًا جزءًا، وإذا استطعنا أن ننظر داخل كل خلية من خلاياه، فلن نضع أيدينا على موضع الذات الإنسانية.

نحن لا نعرف شخصية الإنسان عن طريق الفحوصات المعملية والإشعاعية، ولكن عن طريق معرفة كيف يشعر هذا الإنسان؟ فيم يفكر؟ ما هى طموحاته؟ ما هى نظرته للوجود؟ وهكذا.

الخلاصة أن حقيقة الإنسان تتجاوز جسمه ومخه وعقله ووعيه، إنه الجوهر الذى يشعر أنه وجود واحد متكامل، يقول عن نفسه «أنا».

لذلك أعلن سير جون إكلز John C. Eccles عند تسلمه لجائزة نوبل فى الطب (عن أبحاثه فى بيولوجيا المخ): **أجدنى مضطرًّا إلى القول بطبيعة غير مادية لذاتى وعقلى، طبيعة تتفق مع ما يسميه المتدينون «الروح».**

كذلك أعلن سير شيرنجتون[1] Charles Sherington قبل وفاته بخمسة أيام، أن **«الروح هو جوهر الإنسان الذى لا يفنى بالموت».**

اندفع زوبعة قائلًا: لقد قفز شيرنجتون **قفزة كبيرة** بحديثه عن خلود جوهر الإنسان، فما دليله العلمى على ذلك؟

أجابه راسخ:

لعلك سمعت عن **خبرات الذين اقتربوا من الموت** Near Death Experiences.

لقد أظهر العديد من الدراسات الموثَّقة حول هذا الموضوع **أن إدراك الإنسان يمتد إلى ما بعد توقف المخ عن العمل.**

اشتملت إحدى أهم هذه الدراسات[2] على ٦٣ مريضًا، أُصيبوا بنوبات قلبية شديدة، أُعلن إثرها وفاتهم إكلينيكيًّا، لكنهم تماثلوا للشفاء، وحكى بعضهم أمورًا عجيبة. ذكر بعضهم أنهم شعروا أنهم مفارقون لأجسادهم، ويطوفون فوقها، ويشاهدون الأطباء والممرضات وهم يتعاملون مع جسدهم المُسَجَّى، ثم إذا بهم يهبطون ليدخلوا مرة أخرى فى أجسادهم! وذكر بعضهم أنه شاهد نفقًا طويلًا مظلمًا، ورأى آخره دائرة من النور. وذكر أحدهم أنه رأى حذاءً للتنس ملقى فوق سطح المستشفى، وقد ثبت صحة ذلك.

لقد ذكروا **أمورًا شاهدوها وانطبعت فى ذاكرتهم**، وتجاوز بعضها قدرات حواسهم على الإدراك، فى فترة **انقطع فيها الأكسجين عن المخ!**

(١) أستاذ وظائف الأعضاء بجامعة أكسفورد، والذى وصفته اللجنة المانحة لجائزة نوبل بأنه العبقرى الذى توصل إلى أسس عمل المخ والحبل الشوكى.

(٢) **نُشرت هذه الدراسة فى المجلة العلمية المحترمة Resuscitation. وقُدمت نتائج الدراسة عام ٢٠٠١ أمام اجتماع علماء المخ والأعصاب والرعاية المركزة فى The California Institute of Technology.**

ألا يعنى ذلك أن هناك **ذاتًا مستقلة عن المخ**، لها قدرات إدراكية عالية، وهى مصدر الشعور بالذات ومصدر العقل، وأن هذه الذات تظل على وعيها عندما يكاد عمل المخ أن يتوقف.

وإذا كان هذا الاستنتاج غير مقبول عند **الماديين**، فإن المنصفين منهم **يُقِرُّون بعجزهم عن تفسير كيف تنبثق القدرات العقلية عن المخ المادى**.

وقد أثار هذا المفهوم اهتمام العديد من علماء النفس، فقام بعضهم بالتواصل مع بعض هذه الذوات غير المادية الباقية بعد موت أصحابها، ولم يكن هناك من سبيل لذلك إلا عن طريق **الوسطاء الروحانيين!**

وقد حرص الجادون من العلماء على **تطبيق الشروط الصارمة للبحث العلمى فى مثل هذه التجارب**، لكن الأوساط العلمية ما زالت تنظر بريبة لنتائج هذه الأبحاث، لِما لهذا التواصل الروحانى من **سمعة سيئة**، إذ يَدَّعى تحقيقه الحواة والدجَّالون كما تعلم.

وأخيرًا، أقدم لك **دليلًا دينيًّا على أن العقل ليس موجودًا قائمًا بذاته، ولكنه نشاط للذات الإنسانية**. فالقرآن الكريم يحدثنا عن الجسد وعن القلب وعن النفس وعن الروح، لكن **لا يحدثنا عن العقل!** بالرغم من أن عملية التعقل وردت ٤٩ مرة بألفاظ مختلفة فى القرآن الكريم. ألا يعنى ذلك **أن التعقل عملية يقوم بها الإنسان وليس لها مُكَوِّن قائم بذاته؟**

هدأ زوبعة وأوشك على الاستسلام، وسأل: **هل يمكن أن نعتبر أن الذات الإنسانية هى الروح فى منظور المتدينين؟**

وافقه راسخ قائلًا: تشير الأديان السماوية إلى أن الروح هو الجوهر غير المادى للإنسان. فالإنسان روح وجسد، لذلك يمكن وصفنا بأننا **أرواح متجسدة أو أجساد متروحنة**.

إن **ثنائية الروح والجسد** Dualism موجودة فى جميع الحضارات، عبر التاريخ وعبر الجغرافيا، وكما تعلم فإن هذه الثنائية كانت محور حياة المصريين القدماء.

وللفظ الروح فى منظور الإسلام مسميان[1]، الأول يُطلق عليه اسم **الروح الحيوانى**، ويُقصد به **الحياة**، وهو **سمة مميِّزة لجميع الكائنات الحية**. وهو المحرك لجميع العمليات الحيوية كالتنفس وعمل القلب والكليتين والهضم، فى اليقظة وأثناء النوم. وهو موجود فى الإنسان منذ أن كان بويضة وحيوانًا منويًّا، **وإذا فارق الروح الحيوانى الجسد يموت الإنسان**.

(١) هذا المفهوم يطرحه الإمام أبو حامد الغزالى فى الجزء الأول من كتاب «إحياء علوم الدين»، باب «العلم».

والمسمى الآخر للروح هو **الروح المدرِك**، وهو **الخاصية المميِّزة للإنسان**، وهو المقصود بقول الله ﷻ: ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ [الإسراء: ٨٥]. وهو **المسئول عن نشاطاته العقلية**، كما أنه المُخاطَب والمُكَلَّف والمُحَاسَب من قِبَل الله ﷻ. ويفارق الروح المدرك الجسد عند النوم، فيغيب الإنسان عن وعيه وإدراكه. **والروح المدرك خالد لا يفنى**، لكنه يفارق الجسم عند الموت، ويُرَد إليه مرة أخرى عند البعث[١].

ويعتقد الكثيرون أن الروح المدرك هو وحده ذات الإنسان. وأن الجسد ليس إلا دابة للروح. والصواب أن الإنسان **كائن متوحد تمتزج فيه الروح والجسد**، فتصبح هذه الثنائية هى ذات الإنسان وجوهره[٢].

هدأ زوبعة واطمأنت نفسه، فقد وضع يده على البراهين العقلية والعلمية التى كان يسعى وراءها منذ زمن طويل فى قضية الذات الإنسانية. عند ذلك أضاف راسخ قائلًا:

لى كلمة أخيرة فى هذا الموضوع، أستهِلها بقول تشارلس دارون:

«إذا عجز التطور عن تفسير أية ظاهرة، فينبغى اللجوء إلى التفسير الآخر، وهو مفهوم الخلق الخاص الذى يقف وراءه الإله».

إذا قسنا قضيتنا على هذه القاعدة نقول: لقد وصلنا إلى مفترق طرق، وأصبح علينا **إما أن نُقر بأن الذات الإنسانية، وما تمارسه من تفكير وشعور وسلوك وتَدَّين، يستحيل اختزالها إلى الكيمياء والفيزياء، ومن ثَمَّ نطرق أبواب المعارف الدينية التى تحل لنا هذا اللغز، وتجعل نظرتنا أوسع وأشمل وأعمق، وإما أن ينقلب العِلم إلى وسيلة لإثبات أفكار مادية مُسبقة، بدلًا من أن يصبح هدفه هو البحث عن الحقيقة.**

إن العلم **لا ينبغى أن يتبنى ما قاله أحدهم بحكمة خَفيَّة:**

I made up my mind, don't bother me with facts

لقد حَسَمْتُ قناعاتى ولملمتُ أوراقى، فلا تزعجنى بحقائق جديدة.

---

(١) ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الزمر: ٤٢].

(٢) انظر هذا المفهوم فى الفصل الثامن تحت عنوان «التشدد يتهم العلم».

الفصل الثامن

العلم بين
استغلال الملحدين، واتهام المتشددين

إلحاد فى أسوأ حالاته

أثناء مراجعة أحد أصدقائى المثقفين لبعض فصول الكتاب، قال لى:

إن المصريين (مسلمين ومسيحيين) **شعب متدين بطبعه** منذ عهد الفراعنة. ولا شك أن هذا التاريخ الطويل من التدين، قد ترك بصمته على فطرتهم.

وبالرغم من ذلك، أستشعر من أسلوبك وطريقة عرضك للكتاب **كأنك تخاطب قومًا من الملاحدة**. واستطرد متسائلًا، هل هناك حاجة لما تبذل من وقت وجهد فى تأليف ونشر هذا الكتاب؟ إنى أعتقد أن عرض قضية الدين بهذا الأسلوب لا يعنينا كثيرًا.

أجبت صديقى قائلًا: لا شك أن المصريين يولدون بميل قوى للتدين، ثم تتولى الأسرة والمجتمع رعاية هذه البذرة (الفطرة) وتنميتها وصقلها. أى أن العوامل البيولوجية وعوامل التنشئة مسئولة ـ إلى حدٍّ بعيد ـ عن تشكيل الفكر الدينى لكل منا.

لكن لا ينبغى أن يتوقف الإنسان (القادر عقليًا) عند ذلك الحد، بل عليه أن يرقى بتدينه من إيمان الميلاد والتنشئة، إلى «اليقين» العقلى والعلمى، وقد حَفَل القرآن الكريم بالآيات

التى تنبه إلى ذلك، فجاءت **الدعوة إلى التَعَقُّل** أكثر من خمسين مرة، مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[الرعد:٤]. وجاءت **الدعوة إلى التَفَكُّر** أكثر من عشرين مرة، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الرعد:٣] كما جاء **مدح الحكمة** أكثر من عشرين مرة، مثل قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة: ٢٦٩]. وعلى الإنسان الامتثال لهذه الدعوة حتى يصل إلى مرتبة ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨]. **وأحسب أن كتاب «رحلة عقل» خطوة فى هذا الطريق.**

ثم أضفت: إن أفضل طريق لأن يدرك الإنسان قيمة الحق الذى عنده، هو أن يقارنه بما عند الآخرين. وهذا هو المقصود بقول الإمام على بن أبى طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **من لم يعرف الكفر لم يعرف الإيمان. وأحسب كذلك أن كتاب «رحلة عقل» خطوة فى هذا الطريق.**

وبالرغم من إدراكى لذلك كله فإن كلمات صديقى جعلتنى أُمسك عن الكتابة، لأراجع مدى احتياج القارئ المصرى والعربى لهذا الكتاب، وترددت مرارًا بين التوقف والاستمرار.

وبعد بضعة أيام، مررت بهذه **التجربة التى أعادت إلىَّ حماسى لاستكمال الكتاب، وأعادتنى إلى الكتابة:**

القارئ الكريم...

دُعيتُ إلى المشاركة فى ندوة عُقدت بالإسكندرية بمناسبة مرور مائتى عام على مولد تشارلس دارون (صاحب نظرية التطور)، وشارك فى الندوة أستاذان من أساتذة كليات الطب المصرية، الذين أنفقا سنوات عديدة من أعمارهما، وقد تجاوز كل منهما السبعين عامًا، فى دراسات حول دارون ونظرية التطور.

قام الأستاذان، بهدوء، بعرض **تصورهما لمفهوم التطور العشوائى، وعَرَضا جهودهما الحثيثة فى طرح أفكار دارون.**

كذلك صَرَّحا بأنه **ينبغى ألا نمزج بين العلم والدين، فلكل مجاله،** لذلك ينبغى ألا ينكر رجال أحد المجالين على ما عند الآخرين، ولا أن يتحفظ على أفكارهم. ومن ثَمَّ ينبغى ألا نعترض (باسم الدين) على العشوائية التى هى محور أفكار الدَرَاونة.

أما مساهمتى فى الندوة، فكانت **عرض مفهوم التصميم الذكى والتطور المُوَجَّه،** الذى يرى أن التطور حقيقة بيولوجية، لكن العشوائية والصدفة لا تستطيع أن توجه قاطرة التطور نحو

إخراج هذا الكم الهائل من الكائنات الحية التى تسكن الأرض، لذلك ليس هناك مخرج من القول بوجود المصمم الذكى وراء توجيه التطور.

بعد الندوة، دَعَا منظم الندوة ومديرها (وهو أستاذ بإحدى كليات الطب، ومن كبار مثقفى مصر) ثلاثتنا لتناول العشاء فى جلسة خاصة امتدت أكثر من ثلاث ساعات، اتجه فيها الحوار حول «**الخالق والخلق والدين والتطور**» اتجاهًا آخر، فسقط حجاب المسالمة، وبدا العداء سافرًا. **وأبدأ بعرض ما طرحه أستاذا الطب من أفكار:**

١- **ما «حاجتنا العملية» إلى القول بمصمم ذكى أو القول بوجود إله؟** خاصة أن حياتنا تسير، سواء آمَنَّا أو أَلحدنا، كذلك لن يغير القول بالإله شيئًا من نظرياتنا العلمية التطبيقية. وسألنى أحدهما إن كان الإيمان بالله سيغير شيئًا من برنامجى اليومى!

٢- إن القول بالمصمم الذكى إنما هو **محاولات توفيقية وتلفيقية بين الدين والعلم**، ومحاولة للإمساك بالعصا من المنتصف، فى مجتمعات تخشى حرية الفكر.

٣- إذا كان العلم لم يقدم تفسيرًا لكثير من الأمور حتى الآن (كنشأة الكون من العدم، ونشأة الحياة من المادة غير الحية) فإن **العلم سيكتشف تفسيرات لهذه الأمور فى المستقبل**.

٤- **لا ينبغى أن نقفز إلى القول بوجود الإله بناءً على نقص فى المعرفة العلمية**، فالعقيدة لا ينبغى أن تنبنى على الجهل.

٥- إن القول بوجود الإله يخالف العلم، **فنحن لا نستطيع أن ندركه بحواسنا أو نرصده فى معاملنا**.

٦- كيف يسمح الإله بما تسببه الحروب من **تقتيل وإبادة للبشر**؟ وكيف يُنزل الإله بالبشر الكوارث الطبيعية المُهْلِكة؟ (إنها نفس معضلة الشر والألم التى دفعت أنتونى فلو إلى الإلحاد).

٧- كيف تكون **ذات الإله، الموجود خارج الزمان وخارج المكان؟**

٨- إذا كان كل موجود له موجد، **فمن أوجد الإله؟**

وكانا سعيدين جدًّا بتسائلهما هذا، وأخذا يتنافسان فى السخرية!

٩- يطرح بعض الفلاسفة المحدثين مفهومًا يُعرف «**بالفوضى الخَلاَّقة Creative Chaos**» التى

تعنى أن الفوضى التى أعقبت الانفجار الكونى يمكن أن ينشأ عنها «تلقائيًّا» الانتظام Order الموجود فى الكون الآن. بل ربما كانت هذه الفوضى انتظامًا من البداية، ولكننا لا ندرك قوانينه.

١٠- إن **التزام الإنسان بالقيم العليا والمثل والأخلاق لا يحتاج لأديان سماوية**، إنه جزء خَلْقى من بنية الإنسان.

١١- **لا ينبغى أن نُلَقِّن أبناءنا أمورًا وردت فى الكتب السماوية ولا يوجد عليها دليل**، مثل القول بوجود بعض الأنبياء كإبراهيم ﷺ، فليس هناك دليل على وجود هذه الشخصيات فى التاريخ.

قارئى الكريم، لعلك لاحظت أن ما طرحه الأستاذان **ليس فيه جديد، وأنها نفس حجج الملاحدة البالية منذ مئات السنين**. وقد **تصديت ومُضَيِّفُنا للرد على ما طرح الأستاذان من أفكار، وتَلَخَّصَت ردودنا فيما يلى:**

أولًا: إن ما دفعنا للقول بالمصمم الذكى ليس محاولات التلفيق أو إمساك العصا من المنتصف، ولكنه **التفكير العلمى المجرد والاستنتاج المباشر**. فقد أثبت العلم أن للكون بداية، وأثبت فى الوقت نفسه عجز قوانين الطبيعة عن تفسير نشأة الوجود من العدم. وهذا ما عبر عنه العلم بقانون بقاء المادة (المادة لا تفنى ولا تُستحدث) وكذلك قانون السببية (أن لكل موجودٍ حادثٍ سببًا). فلم يبقَ أمامنا إلا القول بقوة قادرة على الإيجاد من عدم، ولن تكون هذه القوة إلا الإله.

ثانيًا: ما طرحناه من تساؤلات عن نشأة الكون والحياة ولم يُجِب عنها العلم حتى الآن، إنما هى **تساؤلات معرفية Ontological، سبق أن أَخْبَرَنا العلم بعجزه عن تقديم أجوبة عنها الآن وفى المستقبل**، بل أخبرنا العلماء أن هذه التساؤلات تقع خارج نطاق العلم كليةً، وأنها ينبغى أن تُترَك للدين والفلسفة.

فقد أخبرنا علماء الكونيات أن علمهم يبدأ عند الانفجار الكونى الكبير، كما أخبرنا علماء الحياة أن بداية بحثهم هى وجود جزيئات الرنا والدنا والبروتينات، وربما يبحثون فى كيفية تكوين هذه المواد من وجهة النظر البنائية والوظيفية، أما كيف دبت فيها الحياة فذلك خارج نطاق العلم.

ثالثًا: إن أقصى ما طرحه العلم ويقبله العقل، هو أن **الفوضى الخَلَّاقة يمكن أن تُنتج انتظامًا Order**، مثل تراص ذرات وجزيئات بعض المواد على هيئة بللورات، أو الخطوط المنتظمة التى ترسمها الأمواج على رمال شاطئ البحر. أى أنها يمكن أن توجه بعض العمليات الكيميائية والفيزيائية.

أما **تكوين منظومات بيولوجية Systems** كالشفرة الوراثية فى الكائنات الحية، أو حتى رسم حصان على حائط، ففوق طاقة الفوضى الخلاقة، لما يتطلبه ذلك من مواصفات معقدة Specifications.

رابعًا: عندما أجاب الأستاذان عن السؤال عن كيف تَحَوَّلَت فوضى الانفجار الكونى إلى انتظام، بأن الانتظام ربما كان موجودًا منذ البداية لكننا لا ندركه. فإنهما التزما الصمت عندما سألتهما عن **مصدر هذا الانتظام**.

كذلك عندما فَسَّرَا التزام الإنسان بالقيم العليا والمُثل والأخلاق بأنه لا يحتاج لأديان سماوية إذ إنه أمر خِلقى، فإنهما التزما الصمت عندما سألتهما عن **مصدر هذه الفطرة**.

خامسًا: ليس الغرض من القول بالإله تدبير حياتنا العلميةً أو تعديل نظرياتنا التطبيقية (كما قال الأستاذان)، وإنما هو إقرار بحقيقة أصبح العلم يطرحها الآن بقوة.

ثم أَضَفْت، ما العمل إذا كانت الألوهية والربوبية والرسالات السماوية حقائق واقعة، وبناءً على ذلك طُلب من المنكرين الامتثال للحساب والجزاء فى حياة آخرة؟

سادسًا: قلت للأستاذين: ذكرتما فى الندوة أنه ينبغى ألا نمزج بين العلم والدين، وأنه ينبغى ألاَّ يُنكر أحدهما على الآخر. والآن **تطلبان ألا نُعَلِّم أولادنا أمورًا دينية لم يثبتها العلم والتاريخ**.

إن قصة خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام بالتحديد من الأمور التى وثَّقها علمُ التاريخ. فالكعبة التى تخبرنا الأديان السماوية أن نبى الله قد قام ببنائها ما زالت بين ظهرانينا. كما أن محققى الأنساب يعرفون بالتواتر والسند الممتد الأجيالَ، بل وأسماء السلف من ذرية إبراهيم عليه السلام فردًا فردًا، إلى زماننا هذا.

وأضفت، إذا كنتما تطالبوننا بالصبر، عسى أن يتوصل العلم إلى أجوبة عن تساؤلات معرفية خارج نطاقه، فلم لا تصبروا حتى يتوصل المؤرخون إلى وجود الشخصيات التى تُحدثنا عنها الكتب السماوية، ولم يسجلوها حتى الآن؟!

سابعًا: أما عن بعض النقاط الأخرى التى طرحها الأستاذان، **فيمكن الرجوع إلى ما أجبت به** من خلال **فصول كتاب أنتونى فلو وفصل البرهان الكونى فى الميزان**، مثل:

- معضلة الشر والألم.
- من أوجد الإله؟
- عَجْزنا عن إدراك ذات الإله لا ينفى وجوده (الفرق بين التصور والتَعَقُّل).

والنقاط الثلاث الأخيرة أعرض فيها **مفاهيم أساسية** طرحتها على الأستاذين، واخترت أن أختم بها عرضى لأهميتها ولاحتياجها لعرض مُفَصَّل.

ثامنًا: وافقت الأستاذين على أنه «**ينبغى ألا نتخذ من الجهل بشىء دليلًا لإثبات وجود شىء آخر**»، فالتعلل بالقدرة الإلهية كلما عجز العقل عن تفسير أمر ما، قد يؤدى إلى إيقاف العقل وتعطيله، ومن ثم تتوقف مسيرة العلم. فالموت - مثلًا - لا يمكن تفسيره علميًّا بأنه إرادة الله، فبذلك يتوقف بحث العلماء فى الأمراض ومسبباتها وطرق علاجها، ولتوقف الطب عند مرحلة ما قبل أبقراط.

ولكن ينبغى هنا أن «**نفرق بين إنكار الشىء عن علم، وبين إنكاره جهلًا به**». وضربتُ على ذلك مثالين:

إذا اجتمع بعض علماء التشريح وعلماء وظائف الأعضاء، وبعد نقاش أعلنوا أن الإنسان لا يمكنه الطيران دون عون من آلية خارجية. لذلك لو رأينا **إنسانًا يطير** فلا بد أنه يستخدم آلية تعينه على ذلك، كطائرة أو منطاد مثلًا، أو ربما استخدم جهازًا يلغى تأثير الجاذبية الأرضية على جسمه. هل نقول لهؤلاء العلماء ربما يكون الإنسان قادرًا على الطيران وأنتم لا تعلمون، وأنه لا ينبغى أن تتخذوا من جهلكم بهذه القدرة حجة لإثبات استعانة الإنسان بآلية خارجية! إن هذا ليس إنكارًا عن جهل ولكنه إنكار عن علم.

كذلك إذا قرأنا فى الصحف أن صبيًّا ممن يعانون أشد درجات التخلف العقلى ولا يتجاوز معادل ذكائه (I.Q) ٢٥ درجة، قد توصل إلى «**نظرية التوحيد الكبرى** Grand Unification Theory»

(وهى نظرية تربط بين قوى الطبيعة الأربع[1]) التى مات أينشتين وهو عاجز عن التوصل إليها، هل نقول ربما يكون هذا الصبى (الذى لا يستطيع العناية بأمور حياته اليومية) قد تمكن من التوصل لهذه النظرية بطريقة أو بأخرى ونحن لا ندرى؟ أم نقول بيقين أن هذا الخبر لا أساس له من الصحة؟ أكرر مرة أخرى، أن إنكار الشىء عن جهل يختلف عن إنكاره عن علم.

نحن نعلم بيقين أن الطبيعة ليس لها عقل جبار يستطيع أن يبتكر ما تعجز أذكى العقول البشرية عن مجرد فهمه، كالخلق من عدم ونشأة الحياة والعقل، **فهل عدم قبولنا لأن تكون الطبيعة هى الخالقة والمُدَبِّرة يُعتبر من باب جهلنا بقدرات الطبيعة، أم يكون إنكارنا منطلِقًا من علم بقدراتها، يدفعنا إلى الاعتراف بأمر لا فكاك منه، ألا وهو إثبات وجود الخالق المدبر.**

وقد لخص عالم الطبيعة الأمريكى الكبير جورج إيرل ديفيس ذلك الأمر حين قال: «لو كان للكون أن يخلق نفسه، فإن ذلك يعنى أنه يتمتع بصفات الخالق، وفى هذه الحالة سنؤمن بأن الكون هو الإله... وهكذا ننتهى إلى التسليم بوجود (الإله)، ولكن إلهنا هذا سوف يكون أعجوبة: إلهًا غيبيًّا وماديًّا فى آن واحد !! **إننى أُفضل أن أؤمن بذلك الإله الذى خلق العالم المادى، وهو ليس بجزء من هذا الكون، بل هو حاكمه ومديره ومدبره، بدلًا من أن أتبنى مثل هذه الخزعبلات**».

تاسعًا: قلت للأستاذين: إن أهم أسباب ما أنتما فيه من التباس، هو الخلط بين العالم المادى المحسوس وعالم الغيب. إن **للإيمان بقضايا الغيب (كالألوهية) منهجًا يختلف تمامًا عن الاقتناع بحقائق العلم.**

فالعلم يقدم الدليل Proof الذى توصل إليه من خلال المنهج التجريبى، أو المنهج العقلى الذى تمثل الرياضيات جزءًا هامًّا منه.

أما **قضايا الغيب فنستدل عليها بالشواهد Evidences**، وكلما تأمل الإنسان وتَفَكَّر يتعمق الإيمان، نتيجة لتزايد دلالة الشواهد حتى تكاد تصل فى يقينها إلى مستوى الدليل العلمى، ولكنها لن تصل، وإلا لانتفت قضية الإيمان بالغيب الذى هو محور الأديان السماوية.

عاشرًا: قال الأستاذان: إن ما سقتَ من أدلة على وجود إله خالق لهذا الكون، يُعتبر من **الأدلة السلبية**، التى تعتمد على استبعاد أن تكون الطبيعة هى الخالقة، أى أنه إله سد

(١) القوة النووية القوية، والقوة النووية الضعيفة، وقوة الجاذبية، والقوة الكهرومغناطيسية.

الثغرات[1]، ونحن نريد **دليلًا إيجابيًّا**، فالعقيدة يجب أن تُبنى على يقين، وليس على جهل. وكلما طرحتُ عليهما دليلًا، قالا إنه دليل سلبى، نريد دليلًا إيجابيًّا !

قلت لهما: إنكما بقولكما هذا قد جعلتما من العلم «إله سد الثغرات»! فكل ما يعجز الماديون عن تفسيره، **تعتبران** أن العلم سيتوصل إليه فيما بعد!

ثم أضفت: **دلونا على الدليل الذى تريدونه، وتعتبرونه إيجابيًّا، ونحن سنسوقه لكم.**

إن الملحدين عبر الزمان، لم يكتفوا بالمعجزات المحسوسة الإيجابية التى ساقها لهم أنبياؤهم، ولا الأدلة العقلية المنطقية. إنهم يقصدون بالدليل الإيجابى هو **أن يدركوا الإله بحواسهم**، إنه عين ما قال قوم موسى لنبيهم عليه السلام، كما جاء فى القرآن الكريم:

﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [البقرة: ٥٥].

وكذلك قولهم ﴿ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [النساء: ١٥٣].

كنت أظن، حتى وقت قريب، أن الملحدين المعاصرين فى المجتمعات المسلمة يستحيون من قولها، لكن الأستاذين قالاها، بل قالا ما هو أسوأ منها.

ليت الملحدين يدركون قول عالم الطبيعة جورج ديفيس، الذى استشهدنا به، وهو **أن الإله مغاير لهذا الكون، فلا يُستدل عليه بحواسنا**، إنه:

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى:١١].

لذلك **ينزه الله** عز وجل **ذاته الشريفة عن إدراك الحواس**، فيقول عن ذاته عز وجل:

﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

وينزه نفسه كذلك فيقول: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الصافات: ١٨٠].

لقد حدد الله المنهج الذى يُستدل به على وجوده وعلى قدرته، إنه «**منهج النظر والتفكر فى آياته، وليس منهج الإدراك المباشر**»:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣].

(١) إله سد الثغرات God of the Gaps: اصطلاح يستخدمه الملحدون، ويعنى أننا كلما عجزنا عن تفسير شىء لم يتوصل العلم إلى تفسيره، سارعنا إلى القول بأن ذلك من فعل الإله.

أى أن الكون وآياته والأنفس وآياتها، هى **كتاب الله المنظور**، كما أن القرآن الكريم وآياته هو **كتاب الله المقروء**.

وهذه الآيات التى تملؤنا وتملأ الوجود من حولنا، تمثل برهانًا باقيًا إلى يوم القيامة ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان:٢٧].

﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الكهف: ١٠٩].

لم يكتفِ الخالق ﷻ بذلك، فليس البشر جميعًا مثل أنتونى فلو، يستطيعون التوصل من خلال «رحلة عقل» استغرقت أكثر من ستين عامًا إلى القول بوجود الإله؛ لذلك **خاطب الله ﷻ العقول والقلوب عن طريق الأنبياء والرسل**:

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر:٢٤].

وبذلك يكون الوحى عونًا للعقل فى تذكرة الإنسان بما جُبِلَ عليه من **وعى فطرى بوجود الله**. لقد قام الله ﷻ، بذاته، بغرس الإدراك الفطرى بربوبيته فى الإنسان، دون وساطة من مَلَك مُكَرَّم أو نبى مُرْسَل:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وكما فطر الله الإنسان على الإيمان بالإله الواحد، فقد فطره على **المنظومة الأخلاقية**، فجعل الخير واضحًا والشر واضحًا أمام النفس البشرية.

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾ [الشمس: ٧-٨].

كما أودع فى فطرته «**قانون الخلاص**»:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [الشمس: ٩-١٠].

انتهيتُ ومضيفنا على العشاء من الرد على اعتراضات الأستاذين الملحدين، كما انتهيت من عرض منهج الإسلام للتعامل مع قضايا الألوهية والدين والمنظومة الأخلاقية. ويبدو أن ردودنا كانت جديدة تمامًا عليهما، فقد صرحا بأنهما ما كانا يتوقعان هذه الدقة العلمية والفلسفية

والدينية، فقد اعتادا على الطرح السطحى من قِبَل المتدينين! مما كان يزيدهما تمسكًا بمفاهيمهما. ولا أدعى أنهما قد عدلا عن الإلحاد، **فالكِبْر لا ينزل من علیائه بسهولة، لكنى أحسب أننى قد نجحت فى إثارة الماء الراكد.**

عقب هذا العَشَاء العاصف، عدت إلى الفندق، وأنا أضرب كَفًّا بكف، وبت ليلتى أَرِقًا أتساءل:

كم من مثل هذين الملحدين موجود بين ظهرانينا؟ ليتهما من الباحثين عن الحقيقة. ليتهما من أصحاب الحجج المعقولة. ليتهما يطبقان ما يَدَّعيان من أن للعلم مجاله وللدين مجاله. ليتهما يتوقفان عن السخرية.

كم من شبابنا يمكن أن يخدعه هذا المنطق الفاسد؟ ألا يحتاج شبابنا إلى تحصين عقلى، يرفع من مناعته الإيمانية.

استقبلتُ الفجر ونسماته، والعزم يملؤنى على أن استكمل الإبحار فى رحلة العقل.

التشدد يتهم العلم

القارئ الكريم...

بعد أن شرعتُ بهمة ونشاط فى استكمال رحلة العقل، وحين قارَبَت الرحلة الانتهاء، التقيت بعقبة جديدة تختلف عن سابقتيها. فهى ليست **كالتصور بأننا مؤمنون وأن إيماننا (تمام التمام وعال العال)**، وليست **كعقبة الإلحاد المتشح بالعلم**، ولكنها العقبة التى كَبَّلت مسيرة الحضارة الإسلامية على مدى قرون عديدة مضت، وحتى الآن !! إنها **عقبة تهميش العلم والعقل** تمامًا؟ كما حدث فى أوروبا فى العصور الوسطى.

فبينما كنت أناقش الفصول الخاصة بالعلاقة بين الدين والبيولوجيا مع صديق له منظور دينى خاص، ومن أصحاب الثقافة العلمية الواسعة، تحول صديقى إلى إعصار مدمر يجتث المفاهيم التى عرضتها فى فَصْلى الدين والبيولوجيا من جذورها ويبعثرها أشلاء !!

كانت بؤرة إعصار صديقى **أن كلًّا من الجسد والروح ينتمى إلى وجود يختلف عن الآخر**، وبالتالى **يستحيل تخيل علاقة بين الجسد وبين المشاعر الروحية**. لذلك فإن ما أعرضه من مفاهيم

علمية هو منتهى آمال الملاحدة؛ إذ إنه يثبت أن المشاعر تنشأ من الجسد، ومن ثَمَّ ينمحى عالم الغيب كلية (الله - الروح).

امتدت المناقشات الساخنة بيننا طويلًا، من خلال اللقاءات المباشرة، وعبر الهاتف والمراسلات. ولا شك أنك قارئى الكريم فى شغف لمعرفة كيف دار الحوار، وإلى ماذا انتهى:

بدأ صديقى هجومه قائلًا:

لا شك أنه يستحيل إقامة / فهم / تخيل علاقة سببية Causal بين الجسديات والروحانيات. فبالرغم من أن هناك **علاقة تفاعلية** Interaction بين الذات الإنسانية[1] والجسم، تتلقى الذات من خلالها كل المعطيات الكونية Inputs من ضوء وصوت وكيمياء (الشم) وميكانيكا (اللمس)... إلخ، وتتفاعل معها، إلا أن الادعاء بأن **الروحانيات / الشعوريات مصدرها الجسد، فهذا محض هراء** لا دليل عليه، ويستحيل مجرد تخيله.

إن تفجير المشاعر الروحية عند الإنسان يقتضى الإرادة والعزم والتصميم وجهاد النفس، مع إدراك لصفات الله، ومقتضيات الربوبية والعبودية. ولن تستطيع كيمياء النظام الجينى وكيمياء وكهرباء المخ، القيام بذلك.

بل لقد ثبت أن هناك هوة سحيقة بين كيمياء الشفرة الوراثية وبنية المخ المادية، وبين الصفات العليا للإنسان، وأنه **يستحيل وجود قنطرة للاتصال بينهما** Bridging the gap.

قلت لصديقى:

لقد استخدمت فى عرضك اصطلاحات قاطعة جازمة. مثل «ثبت» «ويستحيل»، مع عدم وجود دليل علمى أو دينى على الثبوت أو الاستحالة. **لقد انطلقت من مسلمات تفتقر إلى الدليل**، وهاجمت من خلالها العلم والعلماء (كما سنرى فيما بعد).

كذلك لا يُشْتَمُّ مما طرحناه فى الفصول الخامس والسادس والسابع، أن من استشهدنا بأقوالهم من العلماء يَدَّعون أن الجسد هو مصدر الروحانيات / الشعوريات. إن كل ما نقلناه عنهم هو **بحث فى العلاقة التفاعلية Interaction بين الذات الإنسانية والجسد**، تلك العلاقة التى أقررتَ فى اعتراضك بوجودها، ثم عدتَ لتؤكد استحالة وجود اتصال بينهما !

(١) يستخدم علماء النفس اصطلاح «الذات الإنسانية» كمرادف لمفهوم «الروح المدرك والنفس والعقل» الذى تستخدمه الديانات.

لذلك هناك نقطة جوهرية (ربما هى محور الخلاف كله) ينبغى أن نوضحها، إنها **منزلة الجسد بالنسبة للإنسان، من منظور الإسلام:**

هل الجسد **شىء مُدَنَّس مُنتَقَص**، لا يحقق الإنسان العروج الروحى إلا بإذلاله أو تجاوزه، أم هو **دابة الروح** (كما يقول الإمام الغزالى)، أم هو **أكثر من ذلك؟** هذه ثلاث مراتب للجسد ينبغى أن نختار من بينها.

لا شك أن كثيرًا من المتدينين يعتقدون فى الفهم الأول أو الثانى، مما يتطلب تصحيح فهمهم وتعديله بشكل جذرى، لذلك نُذَكِّر بأن:

١- كانت **رحلة المعراج لرسول الله ﷺ بالجسد والروح** (فى الرأى الأرجح). والمقصود بذلك ليس إظهار قدرة الله ﷻ، ولا تعظيمه لمنزلة رسوله الكريم فقط، لكنى أرى فى ذلك إشارة إلى أن حقيقة الإنسان هى الجسد والروح معًا، وأن الجسد يمكن أن يرقى إلى مراقى الروح، وأن ينفذ إلى عوالمها غير المادية.

٢- لا ينبغى أن نَرُد على النقطة السابقة بأن هذه خصوصية لرسول الله ﷺ؛ إذ إن **كل إنسان منا يحقق العروج الروحى عن طريق سجود الجسد والروح / النفس فى الصلاة التى هى معراج المؤمن** ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴾ [العلق: ١٩].

٣- عندما أراد الله ﷻ أخذ **ميثاق** ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ ﴾ [الأعراف: ١٧٢] من بنى آدم، فقد **خاطب الأرواح / الأنفس من خلال الأجساد**، بعد أن أخرج البشرية جميعًا من ظهر آدم فى أجساد دقيقة كالذر وأَخَذَ عليها الميثاق، ويمكن تفسير آية الميثاق على أن **العهد قد وُضِعَ فى نُطف (الحيوانات المنوية والبويضات) كل إنسان فى زمانه**. إن ذلك يعنى أن الفطرة قد وُضعت فى الجسد، بالرغم من أن المخاطب بالعهد هو الروح / النفس.

٤- تأمل قول الله ﷻ فى سورة النحل: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل: ٧٨].

إن الإنسان يأتى إلى الدنيا بجسده ونفسه وروحه لا يعلم شيئًا، ثم يبدأ فى **اكتساب العلوم والمعارف من خلال حواس الجسد، فتتعلم أمورًا عن عالم الغيب** ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [النحل: ٧٧] **وأمورًا عن عالم الشهادة** ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل: ٧٩].

ليس ذلك فقط، بل إن **الإنسان يتذكر العهد الذى قطعه الله على الروح/ النفس** ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:١٧٢] **من خلال حواس الجسد أيضًا** ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى﴾ [فصلت:٥٣]..

٥- **فى العبادات كلها** (الصلاة والصوم والزكاة والحج) يقوم كل من الجسد والروح / النفس بدوره. وتصح العبادة من الناحية الشرعية إذا أديناها بالجسد، وإن قَصَّرَت الروح والنفس، أما العكس فغير صحيح !

٦- لا شك أن **المنفعة تبادلية بين النفس والجسد. فالنفس ترقى بمجاهدات يشارك فيها الجسد،** كقيام الليل والصيام. كذلك **يحقق السمو النفسى للجسد فوائد جمة،** من خلال رفع مستوى المناعة، وخفض معدل النوبات القلبية والمخية، وتأخير الشيخوخة.

٧- بعد موت الإنسان ومفارقة الروح له، **تحدد لنا الشريعة كيف نقوم بمعاملة الجسد معاملة تكريم وإعداد للحياة الأخرى.** فيتم تغسيله ليكون على طهارة، ويُلَف فى كفن أبيض نظيف، ويُصلَّى عليه، ويُدعى للمتوفَّى بالرحمة فى حضور الجسد، ثم يُسَجَّى مواجهًا للقبلة.

٨- عند البعث، **يُحشر الإنسان بروحه ونفسه وجسده، ليتم محاسبته على معاصى النفس ومعاصى الجوارح. ويجازى الإنسان ككائن متكامل، بالنعيم أو بالعذاب.**

تؤكد هذه النقط الثمانى، وغيرها كثير، التواصل بين الجسد والروح، ليس فقط من خلال علاقة سببية، بل لأن **الجسد هو مظهر الروح،** التى لا نعلم عنها شيئًا: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥] حتى يمكننا القول: **إن كل ما يعتمل فى الروح يطفح على الجسد.**

﴿لِتَقْرَأَهُۥ.. إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء: ١٠٧].

﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٩].

سبحان ربى ﷻ !

إذا كان القرآن الكريم يتحدث فى بعض المواضع عن الجسد وعن الروح وعن النفس **بشكل منفصل:**

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴾[ص:٧١].

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴾ [الشمس:٧].

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾ [الإسراء: ٨٥].

إلا أن الله ﷻ عندما يتحدث عن الإنسان، أو يوجه له الخطاب، ينظر إليه باعتباره **كلًّا متكاملًا**، منذ يوم «ألستُ بربكم»، وحتى نلقى الله ونحيا خالدين فى الحياة الأخرى.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴾ [الانشقاق: ٦]

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾ [البلد: ٤]

إن الفصل بين مكونات الإنسان، واعتبار أن بعضها جوهرى (الروح) وبعضها ثانوى (الجسد) وبعضها واسطة بين الاثنين (النفس)، هو مصدر الالتباس. لذلك **ينبغى أن نعيد صياغة نظرتنا للإنسان باعتباره كُلًّا متكاملًا**. إذا أدركنا ذلك سنكون قادرين على تصور التواصل بين بيولوجيا الجسد وبين الروحانيات والشعوريات والسلوكيات، فى سهولة ويسر.

لا شك أن **الإسلام يَتَفَرَّد بهذه النظرة المتكاملة. فاليهودية والمسيحية**، التى بين أيدينا، تنظر إلى الجسد ورغباته باحتقار، وترى أن الخلاص فى الحياة الأخرى لن يكتمل للروح إلا بعد أن يُبَدَّل الجسد المرتكب للمعاصى بجسد خالٍ من الرغبات المادية. كذلك ترى **الهندوسية وديانات الشرق الأقصى** أن حقيقة الإنسان هى الروح فقط، لذلك ترى السعادة الكبرى فى تحرر الروح من الجسدية المدنسة، والتحاقها بالروح الكلى، كما تعود قطرة الماء إلى البحر المحيط.

قال صديقى:

ذكرت فى الفصل السابع (حقيقة الذات الإنسانية) أن العلماء والفلاسفة المؤمنين يؤكدون أن **اللغة الكهروكيميائية التى تتواصل بها خلايا المخ**، لا تستطيع أن تُخرِج لنا المشاعر الإنسانية والروحية، وكذلك السلوك، واستنتجوا من ذلك أنه ينبغى أن يكون للمشاعر والسلوك مصدر

غير مادى. **فكيف نقبل أن تكون بضع قطرات من مادة كيميائية (كالسيروتونين أو الدوبامين) مسئولة عن مشاعرنا الروحية، لمجرد أنها نَشَّطت بعض الدوائر الكهربائية فى المخ؟**

أجبت صديقى قائلًا:

أوافقك على أن الناقلات الكيميائية والدوائر الكهروكيميائية بالمخ ليست هى المصدر الأعلى للمشاعر والسلوك.

إن دراسة العلم للعلاقة بين البيولوجيا والتدين، لا تعنى البحث عن المصدر الأعلى (الذات الإنسانية)، فهذا دور علم النفس والفلاسفة والدين، لكننا **نبحث عن همزة الوصل بين الذات الإنسانية (النفس / الروح) وبين الجسد**؛ إذ إن المشاعر والمفاهيم الكامنة فى الذات، لا بد أن يتم ترجمتها من خلال المخ، ليستشعرها الإنسان.

ونلاحظ ذلك فى المرضى **الذين يصابون بغيبوبة** لسبب أو لآخر، فعند إفاقتهم لا يتذكرون ما لم تدركه حواسهم أثناء الغيبوبة. بل إن ما يُعرَف «**بخبرات العائدين من الموت**»تتركز فى الفترات القريبة من الدخول والخروج من الغيبوبة، أى الفترات التى يكون المخ فيها على درجة من الإدراك.

وأضاف صديقى:

إذا كان هناك احتمالية لوجود منظومة من الجينات Genetic Networks عند بعض الأشخاص، تجعل أجسادهم قادرة على التواصل مع أرواحهم، فسيكون ذلك **عند الأنبياء والأولياء**؛ فإن أجسام هؤلاء تكون مختلفة عن عامة الناس! ليكونوا جاهزين للتواصل مع عوالم الغيب.

قلت لصديقى:

لا شك أن أجساد الأنبياء والأولياء تتمتع بقدرة أعلى على التواصل مع عوالم الغيب. وقد أثبتت الأبحاث العلمية ذلك فى التجارب التى ذكرناها، والتى أجريت على الرهبان والعُبَّاد. كما تذكر كتب السيرة ثِقَل الوحى (تواصل الذات الإنسانية مع عالم الغيب) على جسد المصطفى ﷺ.

لكن هذا لا ينفى أن التواصل بين «الذات الإنسانية غير المادية» وبين الجسد الإنسانى موجود عند كل البشر.

اعترض صديقى قائلًا:

لماذا نبحث فى العلاقة بين البيولوجيا المادية وبين المشاعر والروحانيات؟! **أليس الله وحده هو الفاعل الحقيقى من وراء ستار الأسباب؟! ألم يُجمع علماء الأمة على أن الله يخلق الفعل فى كل مرة دون سبب**، وعَبَّروا عن ذلك بقولهم أن السكين لا تقطع، لكن الله يُحدث القطع عند حد السكين فى كل مرة، أليست هذه هى عقيدتنا؟!

إن ذلك يعنى أن وجود همزة وصل بين الجسد وبين الروح / النفس غير مطلوب. فالله القادر على أن يخلق الفعل دون وسائط، قادر أيضًا على تفجير المشاعر فى الإنسان دون وسائط.

وأضاف صديقى:

لقد سمعتك مرة تؤكد حتمية الربط بين الأسباب والنتائج، وتهاجم الفصل بينهما، وتقول أن ذلك يجعلنا أضحوكة العالم المتقدم، وقتها أحزننى ذلك منك كثيرًا، لذلك أنتهز هذا الحوار، لأؤكد أن **ذلك العالم شديد التأخر بالمقاييس الإنسانية والدينية**، ولا ينبغى أن نهتم برأيه، بل **يجب أن نتخلص من عقدة النقص هذه، والتى نعانى منها منذ قرون !**

هدَّأت من انفعال صديقى، ثم قلت له:

بعد أن استمعت إلى كلامك هذا، أصبحتُ على يقين **أن مكمن داء أمتنا هو إهمال الربط بين الأسباب والنتائج، بالرغم من تأكيد الإسلام على احترام السنن الكونية**. لقد تقاعَسَ المسلمون عن الأخذ بالأسباب بحجة أن الله هو الفاعل فى الحقيقة. فكانت النتيجة الحال السيئ الذى وصل إليه العالم الإسلامى.

وعندما تَعَرَّض الإمام أبو حامد الغزالى لقضية فاعلية الأسباب (وهو حجة الإسلام الأصولى الصوفى الفقيه) أكد **أن الله ﷻ قد وضع فى الأسباب القدرة على الفعل، حتى صار الصواب أن نؤمن بأن السكين تقطع، بالرغم من أن القطع يتم بقدرة الله فى كل مرة.**

وبالرغم من ذلك، فإن بعض علماء العقيدة فى عصرنا، بعد أن يذكروا رأى الأمام الغزالى، ويستحسنونه، ويرون أنه يتمشى مع العقل ومع الواقع، يعودون فيؤكدون أن عقيدة أهل السنة والجماعة، هى **أن الأسباب لا تعمل!! وأن السكين لا تقطع**، معتقدين أن القول بغير ذلك ينقص من طلاقة القدرة والفعل الإلهى، ومن ثَمَّ ينتقص من كمال التوحيد وكمال التنزيه لله!

ومن اهتمام الله ﷻ بالأسباب، جعلها وسيلة تنفيذ أمره الإلهى «كن»لخلق كل شىء. فالحياة فى كوكب الأرض مخلوقة بكلمة كن، وقد تطلب ذلك إعداد الأرض (من خلال قوانين الطبيعة) لاستقبال الحياة، على مدى ثمانية مليارات عام.

كما خلق الله ﷻ كل إنسان منا بكلمة «كن»، وتم تنفيذ هذا الأمر الإلهى من خلال تزاوج أمهاتنا وآبائنا، ثم بقائنا فى الأرحام لمدة تسعة أشهر.

بل إن الله ﷻ يخبرنا أنه يستخدم الأسباب فى إدارة شئون الكون: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَـٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّـٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴾[ق: ٩]

أى أن الله ينبت الزرع بالماء وليس **عند الماء** (كما يقول البعض)، بالرغم من أنه قادر على الإنبات دون أسباب.

وأضفت قائلًا لصديقى:

إن إنكار فاعلية الأسباب التى وضعها الله ﷻ **يشبه موقف فيلسوف الإلحاد الكبير ديفيد هيوم** فى بعض الجوانب؛ فهذا الملحد يأبى أن يكون هناك نظامًا للكون، ويرى أنه لا يخضع لقوانين، ويعتبر أن ما نراه من التزام الكون بنظام معين إنما هو من حكم العادة! وهذا تمامًا ما يقوله بعض علماء العقيدة!

وأنهى حديثى حول هذه النقطة، بأن أشير إلى موقف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عندما سأل رجلًا عن أمر ما، فأجاب الرجل مُظهرًا التقوى والخشوع: الله أعلم. فضربه عمر بعصًا فى يده، وقال له: **لا أسألك عن علم الله، لكنى أسألك عن علمك أنت.**

وهذا هو حالنا، فعند دراستنا لقوانين الكون ينبغى أن نلتزم بالعلم الذى علمه الله لنا، ولا نتخذ من مشيئة الله وقدرته المطلقة تُكَأة لإنكار السنن الكونية. كما لا ينبغى فى محاولتنا لتنزيه

الله ﷻ أن نتنكر للأسباب والقوانين الطبيعية، معتقدين أن ذلك من كمال التنزيه، بل ينبغى أن يكون **مصدرنا فى جميع الأمور الغيبية هو القرآن الكريم والسنة الصحيحة.**

أضاف صديقى:

كذلك **أرفض قولك بأن الله يضع فينا الاستعداد لتقبل المفاهيم الدينية**، وأن هذا الاستعداد قد يختلف فى قوته من إنسان لآخر. كما **أرفض قولك أن للتنشئة دورًا فى تبنى هذه المفاهيم**، وأؤكد لك أنه لا فرق بين أن يُنَشَّأ الإنسان فى عائلة ملتزمة أو فى عائلة غير ملتزمة. إن الإيمان هبة إلهيه محضة، يهبها الله لمن يتوجه (مجرد توجه) إلى الحق والحقيقة.

إن قولك هذا يقدح فى العدل الإلهى، ويمثل خللًا شديدًا فى العقيدة !

قلت لصديقى، بعد أن سألت الله ﷻ أن يحفظ علينا العقيدة الصحيحة:

ذكرنا أن الله ﷻ وضع فينا فطرة التدين، واستشهدنا على ذلك بأدلة الدين والعلم، كذلك فإن دور التنشئة والتربية فى التمسك بالمفاهيم الدينية لا ينكره منصف.

وأعتقد أن كل إنسان إذا تأمل من يعرف من العائلات الملتزمة دينيًّا وغير الملتزمة، فسيتأكد من صدق هذه المفاهيم البيولوجية والتربوية، حتى صار القول الذى يُنسب لرسول الله ﷺ: «تخيروا لنطفكم فإن العرق دَسَّاس»بمثابة الأثر المحترم والحكمة الحكيمة عند العرب، حتى وإن لم يصح تخريجه عند رجال الحديث[1].

وأضفت، **إن التفاوت فى استعداداتنا الوراثية والبيئية لتَقَبُّل المفاهيم الدينية، لا يتعارض مع العدل الإلهى.** فالخالق ﷻ أعلم منا باستعداداتنا، ولا شك أن هذا الاستعداد يؤخذ فى الاعتبار عند الحساب، **فالعدل الإلهى ليس فى معاملة البشر جميعًا بنفس المقاييس، ولكن فى محاسبة كل منا تبعًا لظروفه التى خلقه الله فيها.**

بعد أن انتهى صديقى من طرح اعتراضاته الخاصة بالعقيدة، انتقل إلى **الهجوم على العلماء المهتمين بالعلاقة بين المشاعر الروحية وبين البيولوجيا، وإلى الهجوم على من ينقل عنهم**، فقال:

(١) أورده الديلمى وصححه ابن الجوزى، وقد رواه عن عمر وابن عمر وأنس وعائشة.

١- تعلم يقينًا أن العلماء الماديين الملحدين لا يعترفون بأية قيم أخلاقية! لذلك يمارسون **الغش والدجل**، ويتجاهلون الصدق والأمانة والشرف فى أبحاثهم العلمية.

٢- **ينطلق هؤلاء المهرجون من أساسيات يؤمنون بها**، منها أن التطور الداروينى حقيقة، وأن المخ المادى هو ذات الإنسان. والصواب أن ينطلقوا فى بحثهم متجردين من أى مفاهيم مسبقة.

٣- يقوم هؤلاء الماديون بالبحث فى الأصول المادية للمشاعر والعقائد، قاصدين أن يثبتوا أن الإنسان ليس إلا المادة فقط. ولا مانع لديهم من لَىِّ المفاهيم التى يتوصلون إليها، **ويقيمون فوق هذه النواة الصغيرة بناءً شاهقًا من الخداع والدجل والغش**، ليؤيدوا آراءهم المادية المسبقة، ثم يخاطبوننا من خلال كتبهم كما لو كنا قطيعًا من الأنعام، لا نفهم ولا نميز.

٤- إن التعامل مع كتابات هؤلاء، **لا يكون بالتحليل والنقد**، وموافقتهم فيما يقولون من صواب، ورد ما نراه خطأً. إن الأسلوب الصحيح هو الرفض التام لادعاءاتهم المادية، ثم البرهنة على هذا الرفض، ثم محاولة تقديم التفسير الأصح. ولا ينبغى أن نعيد صياغة ما يقولون، أو نضيف إليه، من أجل تصحيح صورتهم.

٥- أظنك توافقنى على أن الروح هو المتحكم فى الجسد؛ لذلك ينبغى أن يبدأ البحث العلمى من الروح. أما هؤلاء الدجالون فيخالفون المبدأ العلمى، **ويبدءون بحثهم من أسفل لأعلى**، من المادة (البيولوجيا) إلى الروح، وأنَّى لهم باجتياز الهوة بين الاثنين. لذلك فالصواب أن يترك العلم قضية المشاعر الروحية للدين، وألا يقترب من هذه المنطقة المحرمة.

أجبت صديقى قائلًا:

١- إن النقاط التى ذكرتها، تحتم عَلَىَّ أن أوضح مبدأً محوريًا فى منهج التفكير العلمى، عسى أن يزيل ذلك الكثير من اللبس:

يجب أن نُفَرِّق **بين ما يتمخض عنه البحث العلمى من إثبات أو نفى لبعض المفاهيم المطروحة للدراسة، وبين تأويل هذه النتائج ووضعها فى سياقها الفكرى.**

أوضح هذا بمثال: لقد أثبت العلم أن **التواصل بين المراكز العصبية المختلفة فى مخ المرأة أغزر من التواصل بين هذه المراكز فى مخ الرجل**. هذه حقيقة علمية، تبناها دعاة تفوق المرأة على الرجل Feminists، واستنتجوا أن التواصل بين مراكز اتخاذ القرارات وبين المراكز الشعورية يجعل المرأة تضع الاعتبارات الإنسانية فى الحسبان عند اتخاذ أى قرار، أى أن نظرة المرأة تكون أكثر شمولية من نظرة الرجل. أما دعاة تفوق الرجل على المرأة Musculinists فيستنتجون من الحقيقة العلمية نفسها أن العواطف والانفعالات تُشَوِّش على اتخاذ القرار عند المرأة، وتجعل قراراتها غير صائبة.

سبحان الله! **نفس الحقيقة العلمية تم استغلالها لإثبات وجهتى نظر متضادتين.**

إذا عدنا إلى قضيتنا الأساسية، وجدنا أن العلم قد أثبت عددًا من المفاهيم والعلاقات بين الإيمان والبيولوجيا (عرضناها فى الفصلين الخامس والسادس)، وقد تبنى الباحثون تجاه هذه المفاهيم، أحد موقفين متضادين:

- اعتبرها الماديون دليلًا على أن **المادة هى الذات الإنسانية**، وأننا لسنا بحاجة إلى وجود غيبى (كالروح) لتفسير المشاعر الروحية والإنسانية والمنظومة الأخلاقية، وأَلَّفوا فى ذلك الكتب.
- واعتبرها المتدينون دليلًا على أن الله ﷻ قد وضع الفطرة الدينية والأخلاقية فى مخ الإنسان وفى شفرته الوراثية، واعتبروا هذه المفاهيم **همزة الوصل بين الروح والجسد**. وأَلَّفوا فى ذلك الكتب.

لذلك لا ينبغى للباحث المنصف أن يرفض المفاهيم العلمية إذا لم تتماشى مع عقيدته، ولكن ينبغى عليه دراسة هذه المفاهيم ووضعها فى سياقها الفكرى المناسب.

٢- إذا كان بعض الماديين ينطلقون من مفاهيم مسبقة، فإن هذه ليست سِمَتَهم جميعًا، فهذا أنتونى فلو يتبع البرهان إلى حيث يقوده، وقد قاده بالفعل إلى أن هناك إلـهًا.

بل يؤسفنى أن أقول **أن الانطلاق من المفاهيم المسبقة التى قد تخالف ما عليه الدين والعلم قد أصبح سمة غالبة عند الكثيرين من المتدينين!** ومن هذه المفاهيم، قولكم إنه يستحيل إقامة/ فهم/ تخيل علاقة سببية بين الجسديات والروحانيات. وكذلك قولكم: إن تفاوت استعداد الناس لتقبل المفاهيم الدينية يتنافى مع العدل الإلهى.

ومن هذه المفاهيم المسبقة أيضًا اعتبار أن الملحدين جميعًا عديمو الشرف والصدق، وأنهم غشاشون ودجالون، بالرغم من اتفاقنا أن المنظومة الأخلاقية منظومة فطرية، سبق وجودُها الديانات، ومن ثَمَّ لا ينبغى أن نعتبر أن الملحدين يحيون فى خواء أخلاقى!

٣- أتفق معك فى أن الذات الإنسانية هى الموجِّهة للجسد، لكن هذا لا يعنى أن البحث العلمى ينبغى أن يبدأ من الذات فقط. بل **إن المنهج العلمى يسمح بأن يتجه البحث من الأعلى إلى الأدنى، وكذلك من الأدنى إلى الأعلى**. وقد اشتملت الكتب الثلاث التى عرضناها تحت عنوان (مراكز التدين فى المخ) على كلا المنهجين فى البحث.

صديقى العزيز...

أرجو ألا تثير ردودى الضيق لديكم.

أعلم مقدار ما تحملونه من رفض لمفاهيم الماديين، وأعرف أسبابه، لكن **ينبغى ألا ننزلق إلى القذف والتشهير والهجوم الشخصى**، خاصة أن هذا الأسلوب يفقدنا الكثير من حجية براهيننا؛ لذلك ينبغى أن نتمسك بالأسلوب الأمثل الذى حدده القرآن الكريم:

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾[النحل:١٢٥].

إن فى هذه الفترة من عصر العلم فرصة ذهبية لتعريف الناس بربهم. فالعالَم يموج بالاهتمام بالعلم، حتى أن كتابًا مثل «تاريخ موجز للزمن» تأليف ستيفن هوكنج، الذى يتحدث عن خلق الكون، أصبح أكثر الكتب مبيعًا فى التاريخ، فقد بيع بمعدل نسخة لكل ٥٠٠ إنسان يحيون على الأرض. كما كان البرنامج التليفزيونى (الكون) الذى أعده كارل ساجان، أكثر البرامج مشاهدة فى التاريخ. كذلك أصبحت الكتب التى تتحدث عن علاقة الدين بالجينات وبالمخ من أكثر الكتب مبيعًا The Best Sellers.

إن العلم هو اللغة التى يفهمها إنسان القرن الحادى والعشرين فى جميع دول العالم، وسبحان من أخبرنا بهذا منذ أربعة عشر قرنًا:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[فصلت:٥٣]

ويأتى ما نقلناه عن مجلة التيم الأمريكية فى تعليقها فى تغير موقف أنتونى فلو، كأنه استجابة مباشرة لهذه الآية. قالت المجلة: «**على رأس الاكتشافات المبهرة التى توصل إليها العلم الحديث، يأتى اكتشاف أن هناك إلـهًا**».

صديقى...

لا ينبغى أن يكون موقف المتدينين تجاه ما يتوصل إليه العلم، هو **الرفض، والرفض فقط**، لكل ما يخالف فهمهم، خاصة وأننا فى هذا الطور الحضارى **مقصرون فى تحصيل العلم والمعرفة**.

وإذا كان المسلمون يمتلكون النص المقدس المعصوم (القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة)، فهذه **مسئولية كبرى فى أعناقهم**، تحتم عليهم أن يُعملوا عقولهم للفهم عن الله لنصوص قُصد منها أن تتجاوب بسلاسة ويسر مع المستجدات العلمية والحضارية، حتى تدرك البشرية من خلال هذه المستجدات أن الله حق.

وإذا كنا فى العصر الحديث، قد عجزنا (مع استطاعتنا) عن أن نقود الإنسانية فى طريق العلم، فليس أقل من أن ننهل مما يَتكَشَّف من المعارف، **فالحكمة ضالة المؤمن أَنَّى وجدها فهو أولى الناس بها**.

إن آيات القرآن الكريم، **كالرحيق فى الزهرة**، ينبغى على النحل بذل الجهد الكبير حتى يحوله إلى عسل صاف فيه شفاء للناس. **أما ادعاء الاستئثار بالمعرفة**، لمجرد أننا نمتلك النص المقدس دون بذل الجهد للفهم والتفاعل الحضارى فخطأ فادح. كذلك أن **نوصد الباب أمام العقل باعتبار أن كل ما نقول أمورًا من العقيدة** التى لا ينبغى النظر فيها، وهى ليست كذلك، فهو خطأ أكبر.

لا ينبغى فى هذا العصر أن نضفى القداسة على ما قاله المسلمون السابقون، **كما فعلت الكنيسة فى العصور الوسطى**، وأن نعتبره الحق المطلق، ونردده فى مجالسنا ومنتدياتنا و«حَضَرَاتنا»، و«نمصمص الشفاة» سعداء بأقوال تحتاج إلى إعادة نظر وإعادة فهم.

إننا بهذا الأسلوب نخاطب أنفسنا وننتشى لما نقول، بينما العالم والعلم يتجاوزوننا، ولا يلقون إلى معارفنا بالًا. هذه المعارف التى يحتاجها الإنسان كاحتياجه للطعام والشراب، لكننا قد كَدَّرنا المنهل ولَوَّثنا المشْرَب، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الفصل التاسع

الوجود الإنسانى
المصدر- المسار- المنتهى

مدخل...

قال لى المفكر الكبير، الذى أعتز بآرائه كثيرًا، بعد أن راجع فصول الكتاب وأثنى عليها:

أراك فى عرضك لأفكار «رحلة عقل» تحلق بين القمم السامقة للفلسفة والعلم، ثم أجدك تربط بينها وبين المفاهيم الدينية، **فأستحضر أسلوب بعض خطباء المساجد** الذين يتحدثون فى قضايا عامة أو قضايا علمية، ويرصعون ما يقولون ببعض آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية، بأسلوب فيه ما فيه من تحريف للعلم وإنكار لبديهات العقل. **لقد أصاب هذا المنهج الكثيرين بالملل وجعلهم يعزفون عن الدين.**

ولا يقف هذا الطرح عند الوعاظ فى المساجد وفى الإعلام. هل تعلم أن من بين أفضل ثلاثين مقالًا علميًّا عالميًّا تم اختيارها عام ٢٠٠٧، كان مقالًا بعنوان «**العلم والإسلام فى صراع**» Science and Islam in Conflict.

وجاء فى مقدمة المقال الذى نُشر فى Discover Magazine.

obeikandl.com

«**فى جميع دول العالم، على اختلاف ثقافاتها ولغاتها، يتحرك العلم بناءً على المفاهيم والأسس العلمية، باستثناء العالم الإسلامى، حيث يتحكم القرآن فى العلم!**».

ويدور المقال حول **الأصوليين الإسلاميين المهتمين بالإعجاز العلمى فى القرآن الكريم**، ويبين بالأمثلة الصارخة كيف يلوون الحقائق العلمية لتتمشى مع بعض **مفاهيمهم السطحية للدين**. ولا مانع من تعديل أو رفض النظريات العلمية أو ابتكار نظريات جديدة فى ضوء هذا الفهم. وعندما سأل مندوب المجلة العلمية أحد هؤلاء الأعلام عن مصدر أحد تصوراته العلمية، أجاب: القرآن.

لقد جعل هذا الأسلوب الكثيرين من المفكرين الجادين والباحثين الصادقين عن الحقيقة **يفقدون الثقة فى الفكر الدينى**، فيلقون ما يقرءون جانبًا إذا وجدوا فيه أى استشهادات دينية، حتى وإن كان دراسة علمية أو فلسفية عميقة، بل ويعتبرون أن الكاتب يتحايل ليبيع لهم فهمه السطحى للدين.

إننى لا أعترض على البحث فى الإعجاز العلمى للقرآن الكريم، لكن أطالب بأن يتحرى الباحثون الدقة العلمية والدقة الدينية فيما يعرضون.

أخشى أننا **نكرر مأساة الكنيسة فى العصور الوسطى فى أوروبا**، ونكرر ما حدث لفرانسس كريك (الحائز على جائزة نوبل فى الطب) حين وجد تعارضًا بين شروح التوراة وحقائق العلم، **فآثر العلم وتبنى الإلحاد**.

وافقت المفكر الكبير فى كل ما قال، فأنا أعيش الأزمة التى وضَعَنا فيها هذا التناول القاصر للدين. لكن... هل **يعنى ذلك أن نطوى صفحة الدين ونضعه وراء ظهورنا**، كما يفعل من فقدوا الثقة فى الفكر الدينى؟

لا بأس من هذا الحل لنريح أدمغتنا، لو كان الدين رفاهية فكرية أو قضية فلسفية نظرية، أما إذا كانت **الإلوهية حقيقة واقعة** وكان **الدين منهج حياة نُحاسَب فى ضوئه فى حياة أخرى بعد الموت**، فالأمر يختلف.

قاطعنى المفكر الكبير قائلًا:

إنك تطالب الناس بأن يتخذوا الدين منهجًا حياتيًّا لأنهم سيُبعثون ويحاسبون بعد الموت. إن المشكلة أن الكثيرين من المفكرين لا يؤمنون بقضايا الغيب، أو على الأقل ينحونها جانبًا،

ولو اهتموا بها لانتهى الأمر. **إن الإيمان بالغيب ينبغى أن يسبق الالتزام، إنك بهذا تضع العربة قبل الحصان.**

قلت لمحاورى القدير، لم يعد أمام هؤلاء خيار، لقد **زالت الحواجز بين العلم الحديث وبين قضية الإلوهية والدين،** حتى لقد أعلن الفيزيائى العظيم نيلزبور[1] بشجاعة «**أن الفيزياء الحديثة أصبحت تعيش فى تخوم الميتافيزياء**».

لقد أعلن علماء الكونيات أن علمهم يبدأ من الانفجار الكونى الأعظم، أما ما قبل ذلك فخارج مجالهم. كما أعلن البيولوجيون أن علمهم يبدأ من دراسة المركبات العضوية والتفاعلات الكيميائية الحيوية، أما حقيقة الحياة وكيف دبت فى المادة غير الحية فذلك **يتجاوز نطاق علمهم.**

هل نقبل تفسيرات الملحدين لنشأة الكون من العدم بأنها من الأشياء النادرة التى يمكن أن تحدث تلقائيًا من حين لآخر! هل نقبل تفسيراتهم بأن الحياة قد ظهرت عندما بزغ فجأة جزىء الدنا السحرى! هل نقبل تهرب ريتشارد دوكنز عندما سُئل عن كيف ظهر العقل الإنسانى؟ فقال لا أدرى، إلقوا الكرة فى ملعب غيرى! **هل تكتفى عقولنا بهذه التفسيرات ثم ندعى أننا علميون؟ أم ندعو القادر على الإدلاء بدلوه إلى أن ينزل إلى الساحة؟**

لقد أحالنا العلماء المنصفون إلى **الفلسفة والدين** لنطرق أبوابهما للوصول إلى هذه المعارف، وأيضًا لوصول إلى التفسيرات الغائية للوجود، بعد أن قَصَرَ العلماء علومهم الطبيعية على التفسيرات الآلية للظواهر.

أجابنى المفكر الكبير: إذا كان الأمر بين الفلسفة والدين، فإن الكثيرين من الباحثين عن الحقيقة **يفضلون طريق الفلسفة،** لأن عقولهم تثق فى استدلالاتها، **ويعزفون عن الدين** الذى يرون براهينه كالثوب البالى الذى خَلِق من كثرة الاستعمال، وكاللحن الممل الذى يعزفه من تنقصهم المهارة ولا يُقَدرون خطورة ما يقولون.

---

(١) من مؤسسى فيزياء الكم والحاصل على جائزة نوبل.

قلت لمحاورى الكبير...

إذا أقررنا بأن تلك المفاهيم الغيبية أمر واقع بحكم العقل، وهى فى الوقت نفسه فوق طاقة الفلسفة. فلا مفر من أن يبحث العقلاء من الناس عمن يرسم لهم الطريق إلى عوالم الغيب التى سينتقلون إليها حتمًا، **ولم يعد أمامهم لهذه المهمة إلا الدين. هذا هو حكم العقل.**

لذلك لا ينبغى لمن يملكون القدرة أن يتهربوا من القيام بدورهم لينفضوا على الدين ما تراكم عليه من الجهل والتعصب، ودَفَع الكثيرين بعيدًا عنه. إن على المتدينين المستنيرين وبصفة خاصة المهتمين بالعلم والفلسفة أن ينزلوا إلى الميدان **ليتحملوا كامل مسئولياتهم فى الثورة التى تهدف إلى «تجديد الخطاب الدينى»**. ولن يكون ذلك إلا **بوضع الدين فى موضعه، ووضع العلم فى موضعه، ووضع العقل فى موضعه، وإظهار التلاقى حيث يوجد التلاقى.**

سيدى... فى هذا الإطار، **يأتى استشهادنا بآيات القرآن الكريم فى كتابنا، إنه استكمال وإتمام «لرحلة العقل»، وليس استشهادًا منفصلًا عنها أو دخيلًا عليها.**

وقد دارت وتدور استشهاداتنا حول محورين:

المحور الأول: التنبيه إلى أن **العقل هو المدخل إلى «معرفة الله»** ثم الإحالة إلى الفطرة والدين لاستكمال المعرفة.

المحور الثانى: **«معرفة مصدر ومسار ومآل الإنسان»**، وهى **قضية تقتصر مصادرها على الدين ولا عطاء للدين والفلسفة فيها. وبالرغم من ذلك فهى المرحلة المتممة لرحلة العقل؛ إذ يمكن من خلال المنهج العلمى التأكد من جميع أحداثها**، كما سنبين فى هذا الفصل الذى يعتمد على النصوص الدينية:

الإنسان على مسرح الوجود

لقد توصل أنتونى فلو (وغيره من أنصار الديانة الطبيعية) من خلال البراهين العقلية (العلمية والفلسفية) إلى وجود الإله الخالق للوجود، وإلى بعض صفاته، وإلى أن الإله قد وضع القوانين التى تُسَيِّر الكون.

هل يكتفى الباحثون عن الحقيقة بهذا **الهَدْى الفلسفى**، ويقبلون **أن الله قد اعتزل الوجود**، وتركه للقوانين الطبيعية، وأنه لا يتواصل مع الإنسان؟ ألا ترى ذلك تصورًا مُنَافيًا للمنطق؟

فإذا كان هؤلاء قد توصلوا إلى أن خالق الوجود **إله «حكيم»**، فأية حكمة وراء خلق كائن ذكى تعصف به التساؤلات، وفى الوقت نفسه لا يمكنه التواصل مع خالقه، ليُعَرِّفه الغاية من خلقه؟ هل خلقه الإله الحكيم ليتسلى به ويلهو، كما فعل الإله زيوس؟!

وإذا كان هؤلاء ينسبون إلى الإله كل **صفات الكمال، ومنها العدل**، ألا ينبغى أن يُحاسَب الظالم على ما اقترفه فى حق المظلوم؟ وإذا كان العقاب لا يتم فى كثير من الأحيان فى هذه الحياة، ألا يقتضى ذلك حياة بعد الموت يتم فيها الحساب والجزاء؟

لذلك اهتمت جميع الأديان بهذه القضايا الغيبية، ويتفرد الإسلام عن باقى أديان التوحيد والديانات الأخرى بالاهتمام بتفاصيل قضية **الوجود الإنسانى: المصدر - المسار - المنتَهَى**[1]. ويؤكد هذا الاهتمام أن الإسلام هو **الدين الحق**؛ إذ إن غاية الغايات من الدين أن يوضح مراد الله ﷻ من مخلوقاته.

وإذا كانت قضية الوجود الإنسانى قضية غيبية، فإنه **يمكن التثبت من صحتها وصدقها من خلال المنهج العلمى**. ذلك أن أغلب أجزاء هذه القصة يقع فى **المنظور الحسى المباشر للإنسان**، أما الجزء الغيبى منها فيمكن التحقق من صدقه من خلال **الاستنتاج العقلى**، أى أن القصة كلها خاضعة للملاحظة والتحقيق، وسنثبت ذلك فى كل مرحلة من مراحلها.

وتجرى قصة وجودنا الإنسانى، فى المنظور الإسلامى، على النسق التالى:

١- الخلافة على الأرض

تبدأ قصة الوجود الإنسانى بأن يخبر المولى ﷻ الملائكة، أنه سيجعل من أحد مخلوقاته خليفة له فى الأرض. معنى ذلك أن هذا المخلوق **سوف يتصرف فى الأرض بقدْر من الحرية والاقتدار**، يحدده المولى ﷻ:

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً مَن .. ﴾ [البقرة: ٣٠].

(١) عن كتاب المهندس الدكتور محمد الحسينى إسماعيل: الدين والعلم وقصور الفكر البشرى. عام ١٩٩٩ - مكتبة وهبة.

لم ترَ الملائكة فى هذا الكائن إلا مخلوقًا بدائيًّا يُفْسِد فى الأرض، بل وتمنوا أن يحوزوا هذه المنزلة. **فتعجبوا قائلين:**

﴿مَن ..قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ ...﴾ [البقرة: ٣٠].

فيجيب المولى ﷻ الملائكة:

﴿... قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

ويُخبرنا الله ﷻ **أن الإنسان قَبِل الخلافة بمحض إرادته:**

﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

قَبِل الإنسان الأمانة (الخلافة – التكليف بأوامر الله ونواهيه – حرية الاختيار...)، لكنه **كان جهولًا** لأنه لم يولِ هذه القضية الاهتمام الكافى، **وكان ظلومًا** لنفسه لأنه لم يقبل الهداية والعون الإلهى للقيام بها على مدار حياته.

وخير دليل مادى على قبول الإنسان القيام بالخلافة فى الأرض، هو إقباله على ممارسة مهامها بحرية واقتدار.

٢- الإنسان كائن متكامل، ثنائى التكوين

جسد مادى وروح نورانى

﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [ص: ٧١-٧٢].

ولا شك أن طبيعة الروح وكنهها بعيدة عن إدراك العقل، لذا استأثر الله بعلمها:

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٥﴾﴾

[الإسراء: ٨٥].

ليس معنى الثنائية أن الروح هى جوهر الإنسان، وأن الجسد يمثل عَرَضًا زائدًا. بل **إن الذات الإنسانية هى الشقين معًا**. وقد برهنا على هذا الأمر فى الفصل السابق بالأدلة العلمية والعقلية والدينية.

٣- كائن يتميز بالعلم والتفكير

وتبدأ رحلة **إعداد هذا الكائن البدائى للخلافة بالتعليم**، الذى ميزه به الله على الملائكة:

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [البقرة: ٣١-٣٣].

وآدم فى هذه الآية الكريمة، يمكن أن **يشير إلى البشرية جمعاء**. وتعليمه الأسماء، يشير إلى **تعريفه بالأشياء كلها**.

ثم تأتى **مرحلة أخرى من التعليم**:

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ﴾ [الرحمن: ٣-٤].

والبيان هو النطق مع إدراك العلاقة بين الأشياء بعضها ببعض، وذلك هو **التفكير**.

٤- كائن على وعى فطرى بوجود الله

قام الله ﷻ بذاته **بغرس الإدراك الفطرى بربوبيته فى الإنسان**، دون وساطة من مَلَك مُكَرَّم أو نبى مُرْسَل:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وسواء يحدث ذلك حين يكون كل إنسان من البشر فى طور النطفة (البويضات والحيوانات المنوية)، أو فى يوم أخرج الله ﷻ فيه **ذرية آدم كلها قبل الخلق وأشهدهم على ربوبيته**، فقد أصبح من خصائص النفس البشرية الوعى الفطرى بوجود الإله الخالق.

٥- ويسعى نحو العبادة

كذلك **يؤهل المولى ﷻ الإنسان للعبادة، ويجعلها ميلًا فطريًّا لديه:**

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

لكن الإنسان لا يدرى ماذا يعبد، ولا كيف يعبد، لذلك تتباين صور العبادات إلى حد كبير. فهؤلاء يعبدون الأصنام والأشجار والحيوانات والأسلاف، وهؤلاء يعبدون الله تبعًا لمفاهيم قد حُرِّفت، **حتى ينتهى الإنسان إلى العبادة الصحيحة** طبقًا لدين الإسلام.

ولا ينافى ذلك عدم عبادة الملاحدة لإله، فوجود الفطرة لدى الإنسان لا يُلزم أن يتجاوب الإنسان معها، فقد يطمسها كِبر أو عناد أو جهل. لكن خضوعًا للفطرة يمارس هؤلاء «**العبادة المستترة**» فى شكل اهتمام مبالَغ فيه بفلسفة أو علم أو رياضة...

٦- كائن يملك الفطرة الأخلاقية

وحتى يعيننا الله على فعل الخير ونبذ الشر لم يتركنا لتفكيرنا، بل **جعل الخير واضحًا والشر واضحًا أمام النفس البشرية.**

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾ [الشمس: ٧-٨].

٧- كما أودَع فى فطرته «قانون الخلاص»

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [الشمس:٩-١٠].

يدور **قانون الخلاص حول «حرية الاختيار»**، المبدأ المحورى فى الإسلام، والذى يتنكر له بعض **الجبرية المنحرفين** الذين يُسقطون مسئولية الإنسان عن أفعاله، ومن ثم يعفونه من الجزاء! ومن بديهيات العقل أن يطالبنا الخالق لفطرتنا الأخلاقية بالالتزام بها.

٨- وعَرَّفه طبيعة الحياة الإنسانية فى هذا الكون المادى

لقد جعل الله ﷻ الإنسان فى هذه الحياة الدنيا **على حال من المشقة والمعاناة:**

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ ﴾ [البلد: ٤].

ولا شك أن الكَبَد **سمة من سمات الوجود الإنسانى، فالمؤمن يعانى والكافر يعانى:**

﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ ﴾ [النساء: ١٠٤].

والطريق لتخفيف هذه المعاناة وتحقيق السعادة، هو **اتباع الإنسان لهدى الله:**

﴿ ... فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [طه: ١٢٣-١٢٦].

ولا شك أن **من المصائب ما هو قَدَرىٌّ**، لهذا ينبغى الاعتدال فى كل الانفعالات، وألا نترك هموم الحياة تعتصرنا:

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣].

أليس فى هذا الفهم البسيط الواضح **لطبيعة الوجود الإنسانى فى كوننا المادى تفسير لمعضلة الشر والألم**، التى قادت الكثير من الفلاسفة إلى الإلحاد؟

٩- لا فضل!

لا شك أن قوة ووضوح الدوافع الفطرية السابقة كافٍ لأن تجعل الإنسان يَقْبل أى دين تربى على اعتناقه ! ما دام أنه يُشبع فيه هذه الفطرات، حتى وإن كانت نصوصه مليئة بالخرافات والوثنيات الفكرية والأساطير !

إن ذلك يعنى أن الإنسان **مستعد لأن يضحى بعقله ومنطقه، عن أن يضحى بالدين والعبادة التى نشأ عليها**، والتى تغذيها عمليات غسيل المخ طويلة المدى التى يقوم بها الكهنة ورجال الدين فى جماعته.

والمدهش أن معظم علماء الأديان والنفس والأجناس (الأنثروبولوجيا) يتنكرون لهذه

الفطرات السابقة، ثم يلجأون إلى وضع فرضيات خاطئة حول دوافع الإنسان الذاتية لتبنى العقائد الدينية وقيامه بالعبادة على نحو أو آخر !

١٠- غاية الغايات من الخلق

لكن الفطرة غير كافية لأن يدرك الإنسان كل غايات وجوده. هنا يبرز دور **العقل الذى يخاطبه الله** ﷻ ليحدد له مقاصده وغاياته من خلقه، والتى تتلخص فى قوله تعالى:

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ... ﴾ [الإسراء: ٢٣].

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

والغاية القصوى من العبادة هى **معرفة الله** ﷻ **حق المعرفة**.

ويقوم الله ﷻ **بإخبار الإنسان بالغايات من خلقه عن طريق الأنبياء والرسل** الذين يصطفيهم من عباده، والذين قامت على صدقهم الأدلة التاريخية بجانب الأدلة الدينية.

﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾[النساء: ١٦٥].

١١- التكليف والاختبار فى حدود قدرات الإنسان

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [النساء: ٢٨].

بل عندما استشعر المسلمون مشقة بعض التكاليف، أنزل الله ﷻ حكمه بالتخفيف ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

١٢- اختبار ينتهى بالموت، ومن دور واحد

والاختبار هو **تعريض الإنسان للخير وتعريضه للشر** أثناء حياته الدنيا، ليرى الله ﷻ كيف نسلك:

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

[الأنبياء: ٣٥].

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾ [الملك: ٢].

وليس هناك مجال لفرصة أخرى.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠].

مرة أخرى: **إن إدراك الغايات من خلق الإنسان** وابتلائه بالشر، **يحل معضلة الشر والألم التى حيرت الفلاسفة**، ودفعت الكثيرين منهم إلى الإلحاد.

١٣- الخلاص الإنسانى

إن حياة الإنسان **وجود متصل خالد، فلا موت بالمعنى المألوف**، بل انتقال من وجود إلى وجود، تفصل بينهما لحظة الموت. وهذا شعور فطرى آخر! تجمع عليه الأديان، ويتمثل فى رفض النفس البشرية أن يكون مآلها إلى العدم.

﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ ﴾ [الواقعة: ٨٣-٩٤].

١٤- المُنْتَهى

ويَجِّد الإنسانُ فى السير إلى الله ﷻ، بفعل الخير ونبذ الشر، فهذا هو **طريق الخلاص والوصول إلى الله**، وهذه هى النتيجة الحتمية لمراحل الرحلة السابقة.

﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ ﴾ [النجم: ٤٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ ﴾ [الانشقاق: ٦].

ويؤكد الله ﷻ أن الإنسان فى تقلباته بين السراء والضراء، إنما هو سائر فى الطريق إليه، سواء وعى ذلك أم لم يعِ. إن من لم يعِ يعتقد أنه يفعل الخير استجابة للفطرة الأخلاقية فقط.

إنها قصة الوجود الإنسانى كما يعرضها القرآن الكريم، والتى **تصبح بجوانبها المشهودة والغيبية فى منزلة الحقيقة العلمية المطلقة**. وقد رأينا **الدليل المادى والبرهان العقلى على كل مرحلة من مراحلها**.

القارئ الكريم...

يدور حديثنا عن رؤية الإسلام للعلاقة بين الإنسان والدين حول فطرية الشعور بوجود الله، ثم يأتى الوحى مخاطبًا العقل، ليؤكد ويُفَصِّل هذه الحقيقة أولًا، ثم ليُبَيِّن للإنسان دوره فى هذا الوجود.

مع سورة النور:

ولعل من أفضل ما قيل عن تلاقى الوحى والفطرة، ما ذكره الدكتور فاروق الدسوقى فى كتابه «القضاء والقدر فى الإسلام[1]»، الذى ننقل لك بعضًا منه فى معنى الآية ٣٥ من سورة النور:

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ [النور: ٣٥].

يقول د. الدسوقى مسترشدًا بما قاله أُبي بن كعب[2]: بدأ الله بنور ذاته، ثم ذكر **النور الذى أودعه فى قلب المؤمن، وشبهه بالمصباح** فى قنديل من الزجاج الصافى داخل مشكاة (كُوَّة فى الحائط، تُجَمِّع الضوء).

---

(١) أعد الدكتور فاروق الدسوقى هذه الدراسة توطئة للحصول على ماجستير الفلسفة الإسلامية عام ١٩٧١، ثم طُبعت عام ١٩٨٤ فى كتاب من ثلاثة أجزاء. وقد حصل الكتاب على جائزة الملك فيصل العالمية.
وقد شغل د. فاروق الدسوقى منصب أستاذ الفلسفة الإسلامية بجامعة الإسكندرية، وأستاذ العقيدة والثقافة الإسلامية بجامعة الملك سعود.

(٢) ابن قيم الجوزية: مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ص ٣٦٦.

ويضيف د. فاروق الدسوقى: أن هذا النور ليس آتيًا من خارج، فزيته المضىء من زيتونة من عالم خارج عالمنا ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾، إنه نور الفطرة التى أودعها الله ﷻ فى قلب الإنسان يوم الإشهاد. إن نور الفطرة كافٍ وحده لهداية الإنسان لرب الكون ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ﴾ حتى ولو لم تأته الرسالات السماوية ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾. فإذا ما جاء الوحى، وهو نور تطابقت معرفته وحقائقه مع معرفة وحقائق الفطرة، أضحى ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾، وحصل فى النفس اليقين الذى لا يدانيه يقين.

مع أبى الأنبياء...

وفى ضوء هذا المفهوم، يقف د. فاروق الدسوقى متأملًا موقف أبى الأنبياء إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ كما ورد فى سورة الأنعام:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: ٧٤-٧٩].

كان إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ منكرًا للأصنام ومؤمنًا بفطرته (دون برهان أو استدلال) بوجود خالق عظيم مدبر لهذا الكون، ومن ثَمَّ شرع فى البحث عن معرفته، وكلما دله عقله على شىء ليتخذه ربًّا وإلـهًا، عاد ورفضه بالفطرة والعقل، فاستبعد الكواكب ثم القمر ثم الشمس. وكانت نتيجة محاولة الوصول إلى الله بالدليل والعقل الفشل والتسليم بالعجز، فرجع من حيث بدأ، وعاد إلى فطرته، وهى الإيمان بوجود خالق له وللكون، مع العجز عن الوصول إلى أكثر من هذه المعرفة العامة الشاملة المُبْهمة.

عندئذ فَرَّ إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى ربه ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ وأعلن ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾. لقد عجز عن الوصول إلى المعرفة الكاملة

بالعقل، وأدرك احتياجه إلى إمداد من ربه ليُعَرِّفه بأسمائه وصفاته، وليُعَرِّفه حقائق الكون، والحكمة من الخلق، وحقائق الغيب، وكيفية التقرب إلى الله وعبادته.

لذلك عاد إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ مسرعًا إلى فطرته التى بدأ منها، مفضلًا ذلك على الركون إلى ضلالات قومه التى توقعه فى الشرك ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، وصبر حتى جاءته هداية الله فيما بعد عن طريق الوحى.

ونستكمل الرحلة: المنهج...

إذا كان أبو الأنبياء، إبراهيم عليه الصلاة والسلام، عانى الكثير فى رحلته إلى الله، فنحن نبدأ من حيث انتهى.

لقد شاءت إرادة الله ﷻ، أن نأتى إلى الدنيا بعد أن أضاءها نور الوحى. لقد **أصبح دورنا إعمال العقل فيما لدينا من آيات:**

آيات كتاب الله المقروء: القرآن الكريم.

آيات كتاب الله المنظور: الآفاق والأنفس.

وقد بَيَّنَا فى الفصل الثامن، تحت عنوان (إلحاد فى أسوأ حالاته – عاشرًا)، المنهج الذى نستطيع عن طريقه الوصول إلى الله، الذى لا تدركه الأبصار، والذى ليس كمثله شىء.

إنها **ثلاث كلمات فيها النجاة: الفطرة – العقل – الوحى.**

فسبحان الذى هدانا لنوره...

فاجتمع نورٌ على نورٍ... على نور.

الفصل العاشر

بين وحيين

حيّ بن يقظان

تُعتبر قصة حى بن يقظان من أشهر القصص التى شغلت العقل العربى المُسلم؛ إذ إن للقصة رواجًا كبيرًا بين الفلاسفة والمتصوفة وعاشقى الأدب العربى[١].

ترجع قصة حى بن يقظان التى كتبها الفيلسوف الأندلسى ابن طفيل[٢] إلى القرن الثانى عشر الميلادى، أى **تسبق رحلة أنتونى فلو العقلية بأكثر من ثمانية قرون**.

وإذا كان أنتونى فلو يصف رحلته من الإلحاد، إلى القول بوجود الإله الخالق، بأنها «رحلة عقل»، فكذلك كانت قصة «حى بن يقظان». ففى القصة يعرض ابن طفيل **كيف تمكن العقل الفلسفى المسلم من التوصل إلى وجود الإله الخالق وإلى بعض صفاته**. وزاد على ما توصل إليه أنتونى فلو بأن **حدد كيف تكون العلاقة بين الله وبين الإنسان**. كما **تقارن القصة بين ما توصل إليه العقل المُنَزَّه عن الهوى وبين ما أتى به الوحى السماوى**.

(١) كُتبت القصة (بتناول مختلف) أربع مرات. كان أولها ما كتبه الشيخ الطبيب الفيلسوف ابن سينا (المتوفى عام ٤٢٨هـ). ثم كتبها الصوفى المتفلسف شهاب الدين السهروردى (المقتول عام ٥٨٧هـ). وبعدها بقرابة قرن من الزمان كتبها الفيلسوف الطبيب ابن النفيس (المتوفى عام ٦٨٧هـ). والصياغة الرابعة (وهى أشهرها) التى نتناولها فى هذا الفصل.

(٢) أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن طفيل، الفيلسوف الأندلسى (٥٠٤ - ٥٨١ هـ)=(١١٠٥-١١٨٥م).

obeikan.com

وأعرض القصة هنا **تلخيصًا وتبسيطًا عن كتاب «قصة الإيمان» للشيخ الفيلسوف نديم الجسر** مفتى طرابلس بلبنان. ويدور الكتاب على هيئة حوار بين الشيخ «الموزون» (الذى يشير فى الحقيقة إلى مؤلف الكتاب) وبين تلميذه الباحث عن الحقيقة «حيران بن الأضعف»[1].

يقول الشيخ الموزون لتلميذه حيران بن الأضعف

ليس فى قصة (حى بن يقظان) يا حيران من الخيال إلا اسم البَطَل ومسرح الأحداث. ولو أبدلت عنوان القصة بكلمة (**العقل**)، واعتبرت أن الجزيرة النائية التى تدور فيها الأحداث هى عالمنا الذى نعيش فيه، **لانقلبت القصة واقعًا صحيحًا، ليس فيه أثر للخيال.**

حيران: وكيف ذلك يا مولاى؟

الشيخ: إن القصة هى «**رحلة العقل**» **فى أى مكان وأى زمان، عندما يترقى فى مسالك المعرفة ومراتب الفلسفة، حتى يعرف الله والحق والخير والجمال.**

وقبل أن أحكى لك القصة يا حيران، أضع أمام عينيك أهم المفاهيم التى أراد ابن طفيل أن يبسطها فى ثنايا قصته، لتدرك ما بين السطور من مقاصد وأفكار.

لقد أراد ابن طفيل أن يبين فى قصته المفاهيم الآتية:

أ- **يتدرج العقل الإنسانى، فى سلم المعرفة،** من (المحسوسات الجزئية) حولنا، إلى (الأفكار الكلية). كأن يدرك العقل من خلال مواقف متعددة تقابلنا فى الحياة حقيقة «هناك إله».

ب- العقل الإنسانى **قادر، من غير تعليم ولا إرشاد على إدراك وجود الله، من خلال آثاره فى** الوجود، وقادر على إقامة الأدلة الصادقة على ذلك.

---

(١) الأسماء فى قصة «حى بن يقظان» وفى «قصة الإيمان» ذات دلالات رمزية.
فبطل القصة الأولى، يشير اسمه «حى بن يقظان» إلى القلب الحى والعقل اليقظ.
كما تَظهر شخصية «أبسال» قرب نهاية القصة. من البسالة والجرأة فى الغوص وراء المعانى فى القرآن الكريم عند البحث عن الحقيقة.
كما يرمز اسم الشيخ «الموزون»، بطل قصة الإيمان، إلى التزام الطريق الوسط الذى يجمع بين الشريعة والحقيقة. بينما يرمز اسم تلميذه «حيران بن الأضعف» إلى ما يعانيه الباحث عن الحقيقة من حيرة وانكسار حتى يصل إلى غايته.

جـ- أن هذا العقل **قد يعتريه العجز عندما يريد «تصور» بعض المفاهيم**، مثل الأزلية المطلقة، والعدم المطلق واللانهاية والزمان والقِدَم والحدوث. وإن كان العقل يستطيع من خلال الأدلة المنطقية «إدراك» هذه المفاهيم. وهذا ما يسميه الفلاسفة: **الفرق بين «التَصَوُّر» «والتَعَقُّل أو الإدراك»**.

د- سواء تَرَجَّح لدى العقل **قِدَم العالم** (أزلى لا بداية له) **أو حدوثه** (له بداية)، فإن **كلا الاعتقادين يشير إلى وجود الله** ﷻ.

هـ- **أن الإنسان قادر، بعقله، على إدراك أسس الفضائل وأصول الأخلاق العملية والاجتماعية**. وقادر كذلك على إخضاع شهواته الجسدية لحكم العقل، من غير إهمال لحق الجسد أو إفراط فيه.

و- **يلتقى ما يدركه العقل السليم (بدون وحى سماوى) مع منهج الإسلام** عند نقاط واحدة بلا خلاف.

ثم يبدأ الشيخ الموزون فى حكاية القصة لتلميذه حيران

يصور لنا ابن طفيل **طفلًا رضيعًا أسماه (حىّ بن يقظان)**، أُلقِىَ به فى جزيرة خالية من الناس، فحَنَّت عليه ظبية فقدت صغيرها، فأرضعته وتعهَدَّته، حتى كبر وتعلم أصوات الحيوانات.

ورأى الطفل الظبية كاسية مسلحة وهو عار أعزل، فاتخذ من الورق والريش سِترًا وكساءً، ومن العصىَ سلاحًا.

ثم ماتت الظبية، فهاله سكوتُها وسكونُها، **وأراد أن يعرف عِلَّتها**. وعندما تأملها لم يجد فى ظاهرها تغيرًا، فرَجَّحَ أن العِلَّة فى عضو محجوب عن بصره. فشق صدرها حتى وصل إلى قلبها، فلم يجد فى ظاهره آفة، فلما شَقَّه وجد الغرفة اليسرى من القلب خالية، فمال إلى أن الشىء الذى كان فى هذه الغرفة وارتحل عنها هو الذى أفقد الظبية حياتها. فأدرك أن **حقيقة الظبية هى ذلك الشىء المرتحل، وما جسدها إلا آلة**، وزاده يقينًا بهذا أنه رأى الجسد يُنتِن. ثم رأى غرابًا يوارى أخاه الميت، فوارى هو الظبية فى التراب.

ثم **اكتشف النار**، واستخدمها فى الإضاءة والتدفئة، وفى شىٍّ اللحوم وإنضاجها... وازداد تعجبه من هذه النار التى لها قدرات كثيرة. وخطر بباله أن الشىء الذى ارتحل من قلب الظبية وأدى إلى موتها قد يكون من جنس النار، فأخذ يبحث عن آثار النار بتشريح الحيوانات، فعرف الكثير من وظائف أعضائها.

وعندما بلغ العام الحادى والعشرين من عمره، أخذ يتأمل فى الكون، وما فيه من حيوانات ونباتات وجمادات، فرأى لها أوصافًا كثيرة وأفعالًا مختلفة، **فتكونت عنده فكرة (الكثرة)**. ثم رَأى أن الثلاثة **تتفق فى صفة (الوجود) وفى (الجسمية)** وإن اختلفت فى (الصورة)، فاعتقد أن **الكل شىء واحد، وإن عَمَّته الكثرة**، كما تكونت عنده فكرة **(حقيقة الشىء وصورته)**.

ثم عاد إلى الأجسام البسيطة، فرأى صورها تتغير. فالماء يكون ماءً، وقد يصبح بخارًا أو ثلجًا، ثم يرجع ماءً، فأدرك معنى **اختلاف الصور فى الشىء الواحد**. فأشرف بذلك على تخوم العالم العقلى.

ولاح له أن **روح الحيوانات شىء زائد على الجسمية**، وتتميز به على النباتات والجمادات، وأنه هو الذى يوجه سلوكها، ويفهم ما بداخل الحيوان وما حوله، فعظُم فى عينه أمر (الروح)، وعلم أنها أعظم وأسمى من الجسد الفانى.

ثم أخذ **يفكر فى أصل الأشياء**، فلاحظ أن أبسطها هى التراب والماء والهواء والنار. فَرَجَّح أن هذه العناصر الأربعة هى أصل الوجود.

وأدرك من كل ما مر به أن كل حادث لا بد له من مُحدِث. ومن ثم فإن الأفعال المنسوبة إلى الأشياء، ليست فى الحقيقة لها، وإنما هى لفاعل يفعل بها. واشتاق إلى معرفة هذا الفاعل، فأخذ يبحث عنه بين المحسوسات، **فوجد أن جميعها حادثة وتحتاج إلى مُوجد، فأهملها كلها**.

وانتقل إلى الأَجرام، وتفكر فيها وتساءل: هل أى منها ممتد إلى ما لا نهاية، فى الزمان وفى المكان؟ ثم لاحظ أنها تأفل فى النهار وأنها محدودة مكانًا، فأدرك أن جسمًا لا نهاية له زمانًا ومكانًا شىء غير ممكن ولا يُعْقل[1].

(١) يخبرنا المتخصصون فى الفنون الجميلة أن أى جسم لا بد أن يحيط به فراغ من أجل أن نكون قادرين على إدراكه ورؤيته. ومن ثم، لا يمكن أن يمتد جسم إلى ما لا نهاية.

ثم فكر فى العالم بجملته، هل هو شىء حدث بعد أن لم يكن، وأنه خرج إلى الوجود بعد العدم، أم كان موجودًا أزلًا ولم يسبقه العدم؟ ولم يترجح عنده أى الحُكْمين.

فالقِدَم مستبعد لاستحالة وجود موجود لا بداية له.

وكذلك (الحدوث) مستبعد، لأن نشأة الوجود بعد أن لم يكن، يتطلب وجود زمان يسبقه، والزمان جزء من الوجود فلا يمكن أن يتقدمه. وترجيح الحدوث يطرح تساؤلًا صعبًا: لِمَ أوجد المُحدِثُ الوجودَ الآن، ولم يوجده قبل ذلك؟ أَلِطارئ طرأ على المُحدِث؟ كيف ذلك ولم يكن هنالك شىء يمكن أن يطرأ.

وأخذ (حىٌّ) يفكر، ما الذى يلزم عن كل واحد من الاعتقادين؟ فرأى أن **حدوث العالم يلزمه وجود فاعل يُخرجه من العدم إلى الوجود**. ولا ينبغى أن يكون الفاعل جسمًا، لأنه لو كان جسمًا لاحتاج إلى مُحدِث، ولو كان المحدِث الثانى جسمًا، لاحتاج إلى مُحدِث ثالث، والثالث إلى رابع، ويتسلسل ذلك إلى غير نهاية، وهذا مستحيل.

وإن اعتقد قِدَم العالم، فمعنى ذلك أن حركته قديمة، وكل حركة لا بد لها من قوة تحدثها، والقوة تسرى (أو تؤثر عن بعد) فى الأجسام، لذلك **لا بد أن يكون مصدر القوة بريئًا عن المادية وعن صفات الأجسام**، وأن يكون سابقًا عليها، وألا يكون فى حاجة إلى مُحدِث.

انتهى نظر (حى بن يقظان) إلى أنه **سواء كان العالم قديمًا أو مُحدَثًا، فإنه يتطلب وجود مُحدِث أو محرك قديم أزلى. وأنه يتوجب، عقلًا، لهذا الخالق العظيم جميع صفات الكمال**، من علم وقدرة وإرادة واختيار ورحمة وحكمة.

ولما حصلت له المعرفة بهذا الخالق العظيم، أراد أن يعرف بأى شىء عرفه، فلم يجد فى الحواس وسيلة لإدراكه؛ إذ إنها تدرك الأجسام، وهو برىء من صفات الأجسام، فتبين له أن **ذاته التى أدرك بها الخالق ليست بجسم**.

ثم رجَّح أن هذه الذات البريئة من الجسمية لا يعتريها الفناء، **وأنها ستبقى فى حياة خالدة**، مُنَعَّمة أو معذبة، بحسب ما كان لها من الإقبال على ملاحظة خالقها ومراقبته فى الحياة قبل الموت، فبدأ يفكر فى طريقة ينظم بها حياته لينصرف إلى التأمل فى هذا الخالق العظيم.

ولما نظر إلى نفسه، وجد فيها شيئًا من **صفات الحيوان**، وهو الجسد المادى، الذى يطالبه بالمتع الحسية. وعلم أن هذا الجسد لم يُخلق له عبثًا، وأنه يجب عليه أن يُصلح من شأنه. ورأى أنه

يشبه، **من جهة ثانية، الكواكب**، من حيث أن لها أجسامًا، وشعر أنها قريبة فى السماء من الخالق. ورأى من جهة ثالثة أنه بجزئه الأشرف، الذى عرف به (**الخالق واجب الوجود**) **فيه شبه ما منه**، فصمم على التشبه بهذه الثلاثة (الحيوانات – الكواكب – الله).

فأخذ **يتشبه بالحيوانات**، بفعل ما يضمن صلاح جسده وبقاءه بقدر الضرورة والكفاية. فاقتصر على التغذى بالنباتات، وإن لم يجدها أكل من الحيوانات، على شرط أن يحافظ على بذور النبات، وأن يختار من الحيوانات أكثرها وجودًا، حتى لا يستأصلها.

كما أخذ **يتشبه بالأجرام السماوية**، من حيث إنها شفافة ومنيرة وطاهرة، ومن حيث إنها تعطى ما حولها النور والحرارة، ومن حيث كونها قريبة من (واجب الوجود)، وتتصرف بحكمته، ولا تتحرك إلا بمشيئته. فألزم نفسه بالطهارة والنظافة فى جسده ولباسه. وألزم نفسه ألا يرى ذا حاجة أو عاهة أو مَضَرَّة، من الحيوان والنبات، إلا وسعى فى إزالتها، فمتى وقع بصره على نبات قد حجبه عن الشمس حاجب، أو تعلق به نبات آخر يؤذيه، أو عطش عطشًا يكاد يفسده؛ أزال عنه ذلك. ومتى وقع بصره على حيوان قد أرهقه سَبع، أو تعلق به شوك، أو مسه ظمأ أو جوع؛ تكفل بإزالة ذلك. ومتى وقع نظره على ماء يسيل إلى سقى نبات أو حيوان، وقد عاقه عن مساره عائق؛ أزاله.

كذلك ألزم نفسه **التحرك فى حركات دائرية** مثل الكواكب، فكان يطوف بالجزيرة ويدور على ساحلها أو فى بيته دورات متعددة، إما مشيًا أو هرولة. وأثناء ذلك يستغرق فى التفكير فى واجب الوجود، ويحاول أن ينقطع عن عالم المحسوس، مستعينًا على ذلك بسد حواسه، ليتمكن من مشاهدة الموجود الواجب الوجود.

وللتشبه بالله، رأى حى بن يقظان أنه **ينبغى أن يكتسب من صفات الله صفة العلم**، وأعلى مستوياتها أن يعرف الله ولا يشرك به شيئًا. كما رأى أنه ينبغى أن يتنزه عن الجسمية، فانقطع عن الطعام والشراب فترات طويلة، يظل خلالها منقطعًا إلى التفكير فى الله، فكانت تمضى أيام وهو مستسلم فى هذه الحالة التى تشبه الغيبوبة.

ثم ينتقل ابن طفيل، فى القصة، إلى **وصف جزيرة قريبة من جزيرة حى بن يقظان**، فيها قوم يدين بعضهم بالإسلام، وكان من المؤمنين بهذا الدين والساعين للتفقه فيه فتى يُدعى (**أَبْسال**).

ارتحل (أبسال) إلى الجزيرة التى فيها حى بن يقظان، ليعتزل الناس وينقطع إلى العبادة، فلما سمع (حيٌّ) قراءة أبسال للقرآن، ورأى صلاته وتسبيحه ودعاءه، **أدرك أنه من العارفين بالله**، وإنْ لم يفهم ما يقول.

وعَلَّم (أبسال) حيًّا النطق والكلام. وأخبر (حيٌّ) صديقه الجديد بتاريخ حياته، وكيف أنه ترقى بالتفكير حتى انتهى إلى معرفة الله تعالى. فلما سمع منه (أبسال) وصفه لذات الحق، لم يَشُك فى أن **جميع الأمور التى وردت فى عقيدته، هى نفس ما عرفه حيُّ بن يقظان وأدركه بعقله ومجاهدته**.

ولما أخبر (أبسال) صديقه (حيًّا) بما ورد فى عقيدته، لم يرَ (حيٌّ) فيه شيئًا على خلاف ما شاهده وعَرِفه بنفسه وأدرك **أن الذى جاء بهذا الدين رسول صادق من عند ربه**، فآمن به وصَدَّقه وشهد برسالته. ثم تعلم ما جاء به هذا الرسول من أمر ونهى والتزم العمل به.

وبقى (حيٌّ) مع صاحبه (أَبسال) فى الجزيرة المعزولة يعبدان الله تعالى، حتى أتاهما اليقين.

القارئ الكريم...

هكذا اهتدى حى بن يقظان بفطرته وعقله إلى وجود الله ﷻ، وأنه خالق للكون، وأنه يتوجب له ـ عقلًا ـ كل صفات الكمال، وتعلم ـ بقدر المستطاع ـ كيف يتقرب إلى الله ﷻ.

ثم يجد (حيٌّ) ذلك مطابقًا للدين الذى جاء به الرسول ﷺ، **فتطابق عنده المعقول والمنقول، واجتمع عنده الوحيان: وحى العقل ووحى السماء**.

وبذلك اكتملت رحلة (حيٌّ) إلى الله، وأيقن بالرسالات، وما تطرحه من غيبيات، كالبعث والحساب والجزاء. وهو ما لم يستطع أنتونى فلو وغيره من أنصار الدين الطبيعى الوصول إليه.

إنه نور على نور: الوحى والعقل

وفى قصة خليل الله إبراهيم عليه السلام

نور على نور: الوحى والفطرة

ويعطينا الله ﷻ فى هذا العصر نور العلم

لتصبح رحلة الإيمان فى كمالها

نورٌ على نورٍ على نورٍ على نور.

obeikan.com

حصاد الرحلة

لا شك أن «رحلة عقل» مع الإلحاد والإلوهية والأديان، مع الفطرة والوحى والبرهان، **هى رحلة كل إنسان يُعمل عقله، متفكرًا فى مصدره وحياته ومآله.**

فكل ذى عقل تلح عليه الكثير مما عرضنا من التساؤلات، سواء كانت مُنطلقاته دينية أو إلحادية. وقد يطوى الإنسان صفحة هذه التساؤلات سريعًا، أو يقف أمامها متفكرًا ومتأملًا، يدفعه إلى ذلك رغبة لا تُقاوَم للوصول إلى الحقيقة، ليس فقط إشباعًا لنهمٍ علمى معرفى، ولكن **لأن قضية الوجود الإلهى والغاية من وجودنا وتحقيق الخلاص مفطورة فى نفوسنا، وينبغى أن تكون غاية الغايات.**

وعندما بدأت السير فى هذه الرحلة، وعند التأمل فى كل فكرة من أفكارها **كان لَدىَّ الاستعداد الكامل لأن أتبنى وجهة النظر المقابلة، مهما كانت التبعات.** فلا ينبغى أن نكون أقل حرصًا على الحقيقة من أنتونى فلو حين اتبع **قاعدة سقراط فى «أن نتبع البرهان إلى حيث يقودنا»** وأحسب أن البرهان قد قادنا إلى اليقين الكامل.

مع أنتونى فلو

وفى **الجزء الأول من «رحلة عقل»**، عرضنا رحلة أستاذ الفلسفة البريطانى سير أنتونى فلو، حتى وصل إلى القول بأن **«هناك إله»**، بعد أن كان يوصف بأنه أشرس ملحد فى القرن العشرين.

ومن رحلة أنتونى فلو العقلية نخرج بهذه الأفكار:

أولاً: ملحد صغير فى بيت متدين، دون دوافع واضحة

ورث فيلسوفنا عن والده حب الحكمة وشغفه العقلى، ومنهجه التحليلى الدقيق فى البحث. ثم جاء دور رجال تميزوا بحرية الفكر، ليؤصلوا فيه هذه المفاهيم، منهم ناظر مدرسته وبعض أساتذته فى الجامعة. كذلك كان للجو الفكرى الحر الذى يموج به نادى سقراط بجامعة أكسفورد أثر كبير فى **اتجاهه للتخصص فى الفلسفة**.

يخبرنا أنتونى فلو أن هذه التنشئة دفعته إلى الاهتمام بعالم الفكر، لكنها لا تفسر بالتأكيد اتجاهه إلى الإلحاد. لذلك يقول أنه **لا يعرف حتى الآن لماذا رفض مفهوم الألوهية!**

ربما كانت **«معضلة الشر والألم»** هى أكثر القضايا التى وجهته إلى الإلحاد منذ سن الخامسة عشر؛ إذ لم يستطع التوفيق بين ما ينزل بالبشر من شرور وآلام وبين أن الله محب لمخلوقاته رحيم بهم.

ثانيًا: أَلبس الإلحاد ثوبًا فلسفيًّا منمقًا، لا يستحقه

فى سن السابعة والعشرين، نشر أنتونى فلو بحثه «زيف علم اللاهوت» الذى عرض فيه حججه الإلحادية، وفى الوقت نفسه، دعى إلى **الحوار المستمر** بين الفلاسفة والمؤمنين.

ثم دَعَا فى كتبه إلى اتباع المنهج العلمى فى **تفنيد مفاهيم الدين والألوهية**. **كما طالب المتدينين بتقديم الأدلة على وجود الإله**، بعد أن كانت المسئولية تقع على الملاحدة فى نفى الألوهية.

ثالثًا: حارس مرمى الإلحاد

أصبح أنتونى فلو حارس مرمى الإلحاد فى الغرب، فكان يدعى كثيرًا لإلقاء المحاضرات وإجراء الحوارات التليفزيونية. وكان آلاف المشاهدين يحضرون مناظراته مع المؤمنين، والتى كانت تُنقل عبر وسائل الإعلام.

وقد صارت كتبه وأبحاثه وحججه هى **جدول أعمال الملاحدة خلال النصف الثانى من القرن العشرين**.

رابعًا: خطوات من الإلحاد إلى الشك

ليس هناك خط فاصل واضح فى رحلة أنتونى فلو بين الإلحاد وبين تبنيه الإيمان بوجود الإله.

ويخبرنا أنتونى فلو **أن هذا التَحَوُّل تقف وراءه القفزات العلمية الهائلة**، التى حدثت فى النصف الثانى من القرن العشرين. لقد أكدت هذه الاكتشافات أن الكون والحياة، بما فيهما من تعقيد مذهل، لا يمكن إرجاعه إلى الصدفة والعشوائية، ولا بد أن يكون وراءهما إله حكيم قادر، وهى المفاهيم التى تتبناها «**حركة التصميم الذكى**» التى صارت تؤمن بأن «**أعظم الاكتشافات المبهرة للعلم الحديث هو اكتشاف أن هناك إلـهًا**».

خامسًا: من الشك إلى اليقين

ويفاجئ أنتونى فلو العالم ببيان أذاعته وكالة أنباء الأسوشيتد برس فى ديسمبر ٢٠٠٤، أعلن فيه أنه قد صار يؤمن بإله خالق للكون. وفى عام ٢٠٠٧، أصدر كتابه «هناك إله»، يُفَصِّل فيه رحلته، وأسباب إيمانه.

جاء فى الكتاب عن قناعات فلو الأخيرة:

«لقد صرت على قناعة كاملة بأن **الكون ظهر إلى الوجود عن طريق خالق ذكى**، وأن ما فى الوجود من **قوانين ثابتة متناغمة** تعكس ما يمكن أن نسميه **فِكر الإله**.

كما أؤمن بأن **نشأة الحياة والتنوع الهائل للكائنات الحية لا ينشأ إلا عن مصدر سماوى**.

لماذا أصبحت هذه قناعتى، بعد أن ظللت ملحدًا لأكثر من نصف قرن؟

إن العلم الحديث يُجَلِّى خمسة أبعاد تشير إلى الإله الخالق:

١- الكون له بداية، وخرج من العدم

لقد كان لتَوَصُّل العلم أن للكون بداية (ترجع إلى ١٣,٧ مليار سنة) وأنه نشأ من عدم، **تبعات فلسفية ودينية لم يدركها العلماء الماديون** الذين توصلوا لهذه الحقيقة.

وأول هذه التبعات هو الإقرار بإله خالق للكون، بعد أن فشلت جهود العلماء والفلاسفة الماديين فى الوصول إلى نظرية مقبولة، تفسر البداية من عدم، بمعزل عن الإله الخالق.

٢- أن الطبيعة تسير وفق قوانين ثابتة مترابطة

لا شك أن الانتظام والاتساق فى سلوك الطبيعة (وهو ما يُعرف بالقوانين الطبيعية) يتطلب الإقرار بواضع لهذه القوانين، إلا أن الأكثر دلالة على الإله الخالق هو أن **هذه القوانين تشمل الموجودات كلها، وأنها مترابطة مع بعضها البعض، وأنه يمكن التعبير عنها بصياغات رياضية دقيقة لا تشغل أكثر من صفحة واحدة.**

٣- نشأة الحياة، بكل ما فيها من دقة وغائية، من المادة غير الحية

تشترك الكائنات الحية فى وجود هدف وغاية تجمعها، وهو **المحافظة على وجودها**، كما أن لكل وظيفة من وظائفها (كالحركة والتنفس) هدف يخدم هذا الهدف العام. **فكيف اكتسبت المادة غير الحية هذه الغائية؟**

كذلك تشترك الكائنات الحية فى وجود **نظام للتشفير ومعالجة المعلومات** (الدنا والرنا والبروتينات). ويحمل هذا النظام جميع صفاتنا البنائية والوظيفية، وينقلها إلى أجيالنا التالية، كما يوجه جميع العمليات الكيميائية اللازمة لحياة الخلية. **ويبلغ هذا النظام درجة هائلة من التعقيد فى بنيته وفى آلية عمله.**

والحياة ليست مجرد معلومات وتفاعلات كيميائية معقدة يوجهها نظام التشفير، لكن **الأصعب هو معضلة التشكيل**. فكيف يمكن أن تتحول كلمات نخطها على أوراق نَصِف فيها هيئة إنسان (مهما بلغت تفاصيلها ودقتها) إلى إنسان حقيقى (من لحم ودم !).

إن الصدفة والعشوائية وكذلك كل قوانين الطبيعة التى نعرفها، تعجز مجتمعة عن أن تفسر نشأة الحياة من المادة غير الحية.

٤- أن الكون، بما فيه من موجودات وقوانين، يهيئ الظروف المُثلَى لظهور ومعيشة الإنسان، وهو ما يُعرف بالمبدأ البشرى.

كلما زادت معارفنا عن دقائق بنية الكون، كلما تأكدت ملاءمتها لاحتياجات الإنسان. مما يشير إلى أن هذا الكون قد أُعِد لاستقبالنا.

إن ما وضعه العلماء والفلاسفة الماديون من تفسيرات لهذا التناغم مثير للسخرية، ويجعل **القول بالإله المُصَمِّم لهذا الكون أكثر قبولًا من الناحية العلمية !!**

٥- العقل، خصوصية الإنسان

إن قدرات العقل الإنسانى على التفكير المنطقى فى الأمور المادية وفى المفاهيم المجردة، وإدراك ما يحيطنا وما بداخلنا، وإدراك الذات، لا يمكن أن تكون صادرة عن المادة غير الحية، **ففاقد الشىء لا يعطيه.**

كما لا يمكن أن يكون مصدر تلك القدرات هو المخ البشرى! إذ **لا تستطيع اللغة الكهروكيميائية للمخ، والتى لا تزيد عن نشاط باقى الخلايا الحية، أن تقوم بكل هذه المهام،** وإنتاج كل ما تملكه الحضارة الإنسانية من إبداعات.

لقد أصبح لا مفر من اللجوء إلى عالم ما وراء الطبيعة لتفسير قدرات العقل الخارقة.

وترجع معظم المفاهيم الخاطئة عن العقل الإنسانى إلى **تشبيهه بالكمبيوتر**، لكن هناك **ثلاثة اختلافات جوهرية** بين **أدائنا وأداء الكمبيوتر**: فنحن نفعل ما نفعله عن قصد - ونحن مدركون لما نفعل - ونحن فاهمون لما نفعل. **إن ادعاء أن الكمبيوتر يفهم ما يفعل، تمامًا كالادعاء أن جهاز DVD Player يفهم ويستمتع بالموسيقى والأغنيات التى يذيعها!**

ويختم أنتونى فلو عرض حججه الإيمانية قائلًا:

ليست معطيات العلم الحديث فقط هى التى دفعتنى لتغيير قناعاتى، ولكنى أيضًا **أَعَدْتُ النظر فى البراهين الفلسفية التقليدية التى قادتنى من قبل إلى الإلحاد**، ثم طَبَّقت نفس القاعدة السقراطية المنهجية التى عشت عليها طوال حياتى الفلسفية:

«أن نتبع البرهان إلى حيث يقودنا»، فقادنى البرهان، هذه المرة، إلى الإيمان.

سادسًا: خاتمة المطاف

يخبرنا أنتونى فلو، أنه وإن كان قد صار مؤمنًا بالإله الخالق للكون، فإن هناك مفهومين يتبناهما منذ إلحاده، ولم يغير فيهما رأيه:

أولًا: يرفض فلو فكرة تَجَسُّد الإله المطلق فى هيئة بشرية (المسيح)، كما يعتقد المسيحيون.

ثانيًا: لم يتوصل فلو إلى أدلة عقلية وعلمية على التواصل بين الإله والبشر، عن طريق الوحى.

ومن ثم، يؤمن أنتونى فلو بالإله الخالق، ولا يؤمن بالأديان السماوية، ومن ثَمَّ يمكن اعتباره **من أنصار الديانة الطبيعية**، وإن كان **على استعداد للإيمان بالدين إذا توصل للدليل عليه.**

وفى ختام حصادنا للجزء الأول (تحليل كتاب هناك إله) نسجل لأنتونى فلو قوله:

لقد صرت أؤمن بإله واحد أحد

واجب الوجود

غير مادى، لا يطرأ عليه التغير.

مطلق القدرة، مطلق العلم

كامل الخير[1].

ويضيف فلو: لقد أَنْجَزَت النلسفة مهمتها الأساسية بنجاح عظيم عندما تَوَصَّلَت إلى تفسير نشأة الوجود بوجود الإله الخالق، الذى خلق الكون ليكون مُعَدًّا لاستقبال المخلوق العاقل الحكيم، الذى هو الإنسان.

لقد كان توصلى إلى ذلك عن طريق العقل، دون الحاجة إلى تدخل غيبى خارق من وحى أو معجزات (كما يحدث فى الأديان السماوية)، لقد **كانت رحلة عقل وليست رحلة إيمان.**

* * *

(١) لا شك أن هذا الوصف للإله يتفق إلى حد بعيد مع عقيدة الأديان السماوية المُوَحِّدة .

ونستكمل الرحلة

واستكمالًا لرحلة أنتونى فلو التى توقفت عند الأديان السماوية، وضعنا الجزء الثانى من كتاب «رحلة عقل»، والذى سقنا فيه **الأدلة العلمية والمنطقية على التواصل بين الأرض والسماء وعلى صحة الدين الحق**.

ونخرج من حصاد هذا الجزء بالثمار التالية:

أولًا: البرهان الكونى حق Cosmic Argument

أثبت العلم أن كوننا له بداية، وأنه نشأ من عدم، بحدث يُعرف بالانفجار الكونى الأعظم، ومن ثم **لا بد له من موجد أول**. كذلك فإن ما عليه الكون من دقة تصميم وبناء هائلة، **تؤكد أن وراءه مصمم ذكى**.

وبالرغم من وجاهة هذا الاستدلال المنطقى، واعتماده على أرضية صلبة من العلم والفلسفة، فما زال هناك من يحاول التهرب من القول بمصمم ذكى قديم قادر، خلق الكون. **وتدور اعتراضاتهم حول النقاط التالية**:

١- طرح البعض **تصورات تجمع بين أن لكوننا بداية، وبين أنه لا يحتاج إلى موجد أول!**

ومن أهم هذه التصورات نظرية «الكون المتذبذب»، ونظرية «الكون الأم». وقد اعتبرها المتخصصون **أقرب إلى الخيال العلمى** منها إلى العلم؛ إذ لا يدعمها أى دليل علمى.

٢- بعد أن عجز الملحدون عن الوصول إلى أصل مادى أول لكوننا، لم يعد أمامهم إلا القول بأن **الكون يمكن أن ينشأ من العدم، دون سبب**. وقد ثبت خطأ كل التفسيرات التى قدموها.

كذلك فإن **هذا القول يدمر العلم من أساسه**، فالعلم يقوم على البحث فى العلاقة بين الحَدَث والمُسَبِّب، وهو ما يُعرف **بقانون السبب والنتيجة** The Law of Cause and Effect، وهو من البديهيات العقلية.

٣- بعد أن عجز الملاحدة عن تقديم تفسير مادى لنشأة الكون من عدم، التفتوا إلى **مهاجمة مفهوم الألوهية**، فقالوا:

- إذا كان لا بد من موجد أول للكون، **فهل من الضرورى أن يكون إلهًا؟**

وقد رأينا أن الصفات التى ينبغى أن تتوافر فى الموجد الأول (الأزلية - العلم - الحكمة - القدرة - اتخاذ القرار...) ترقى به إلى الألوهية، **حتى وإن أسماه الملحدون «الطبيعة»**.

- إذا كان الموجد الأول إلهًا، **فمن أوجده؟**

إن من نبحث عنه هو الموجد الأول لكل الموجودات، ومن ثَمَّ لا ينبغى أن يكون له موجد، ومن ثَمَّ فالسؤال خطأ من الناحية العقلية والواقعية.

- يلجأ المتدينون إلى القول بالإله، كلما عجزوا عن تقديم التفسير العلمى لظاهرة من الظواهر، إنه **إله سد الثغرات** God of Gaps. ولا شك أن العلم سيقدم فى المستقبل التفسير المادى لبداية الكون من عدم.

وقد أثبتنا أن قولنا بوجود الإله ليس لسد نقص علمى مؤقت، ولكن **لتفسير أمور أَقَرَّ العلماء أنها خارج تخصصاتهم**، مثل ماذا كان قبل الانفجار الكونى الأعظم؟ وكيف دَبَّت الحياة فى المادة غير الحية.

بل يمكننا القول: إن الماديين أصبحوا **يلجأون إلى «العلم» باعتباره «إله سد الثغرات»!** إذ يَدَّعون أن العلم سيتوصل إلى تفسير كل القضايا الغيبية التى يعجز أمامها الفكر المادى.

ولا شك أن ما قدمناه من أجوبة على الاعتراضات الثلاث يُزيد من دلالة البرهان الكونى على وجود الإله الخالق، إلى مرتبة تصل إلى اليقين.

ثانيًا: المبدأ البشرى حق Anthropic principle

إن المتأمل لبنية الكون والقوانين التى تُسَيِّره، يدرك تمامًا **أن الكون قد تم بناؤه على هيئة تجعله ملائمًا تمامًا لنشأة الحياة والبشر**.

إن وجود الكون على هذه الهيئة، **تَطَلَّب ضبطًا دقيقًا لعشرات من الثوابت الفيزيائية**. مثل كتلة العديد من الجسيمات تحت الذرية وشحناتها وسرعاتها، كذلك قوى التجاذب والتنافر بين الأجرام الهائلة وأيضًا بين الجسيمات الدقيقة، وسرعة الضوء، وغيرها وغيرها.

إن أى خلل فى قيمة أحد هذه الثوابت، ما كان ليسمح باستقرار الكون، أو نشأة الحياة فيه.

كذلك فإن **السمات الطبيعية لكوكب الأرض** (قطره - جاذبيته - بعده عن الشمس - سرعة دورانه - ميل محوره - سُمك القشرة الأرضية - خصائص الماء...) مضبوطة بدقة تتناسب مع متطلبات نشأة الحياة واستمرارها، ونشأة الإنسان.

إن بناء الكون وكوكب الأرض على هذه الهيئة ليكونَ ملائمًا لنشأة الحياة والإنسان، وهو ما يُعرف **بالتفسير الغائى للكون «? Why»**، لا يتعارض مع وجود **التفسير الفيزيائى (الآلى) للظواهر الطبيعية «? How». فكل ما حولنا تحكمه كلٌّ من الآلية والغائية**، فنحن نبتلع الدواء ببعض الماء من أجل أن نحقق الشفاء.

ومما يزيد من حجية المبدأ البشرى، أن العالم ليس مجهزًا لخروج الحياة وحسب، ولكن لخروج **كائنات حية ذكية منطقية** (الإنسان). ومما يُزيد الحجية كذلك **غزارة ما فيه من توافق مع احتياجات الكائنات الحية، وخاصة الإنسان** ذا الاحتياجات النفسية والعقلية المتميزة، **بالرغم من أن قدرًا أقل بكثير من هذا التوافق كان كافيًا لنشأة الحياة.**

ثالثًا: علاقة الإنسان بالله علاقة فطرية عاطفية

المفاهيم الدينية عقلية، يمكن قياسها بموضوعية.

عقيدة واحدة، وصلت إلينا فى أكثر من مائة إصدار.

لجأ الإنسان البدائى إلى **الأساطير**، ثم إلى **الفلسفة**، لتفسير الظواهر الطبيعية المحيطة به، ثم للإجابة على تساؤلاته المعرفية الشاملة.

وكان وراء البحث عن أجوبة لهذه الظواهر والتساؤلات ثلاث فطرات زُوِّد بها الإنسان.

١ - **الوعى الفطرى بوجود الله.**

٢ - **الشعور بالرغبة فى اعتناق دين ما**، يدعم الإنسان فى حياته ويبين له مساره ومآله.

٣ - **المنظومة الأخلاقية**، وذلك خلافًا لما يدعيه البعض من أن المفاهيم الأخلاقية نسبية.

وتتفق جميع الديانات فى عدد من المفاهيم التى تُشبع هذا الجانب الفطرى فى الإنسان. ويفسر ذلك تمسك أتباع كل دين بدينه، حتى وإن احتوى على الكثير مما يتناقض مع العقل.

وبالرغم من ذلك، **يمثل الدين بصفة عامة منظومة يمكن تقويمها بشكل موضعى**، وذلك من خلال **تقويم مكوناتها الثلاث الرئيسية** (محتوى الرسالة - الرسول - الإله). ومن ثَمَّ، يمكن الحكم بموضوعية على صحة أو خطأ الديانة المعنية بالدراسة.

رابعًا: الديانة الطبيعية: د. جيكل ومستر هايد

يرى أنصار الديانة الطبيعية أن الله قد خلق الكون، ووضع القوانين التى تُديره تلقائيًّا، أى **أن الكون صار مكتفيًا بذاته، دون تدخلات من خارجه (كون مغلق)**.

وهذا المنظور، وإن كان يعترف بالإله الخالق، فإنه يستبعد الغيب وكل ما يتصل به عن الكون والوجود، ومن ثَمَّ **ينزع القداسة عن كافة الظواهر بما فيها الإنسان**. وتتفق الديانة الطبيعية فى هذا الجانب مع مفهوم العلمانية، الذى هو مفهوم سياسى اجتماعى دينى.

فالفكر العلمانى ينظر إلى الإنسان باعتباره جزءًا من الطبيعة، لذلك يستبعد العلمانيون الدين كمصدر للمعرفة والأخلاق وللقوانين، ويستنبطونها من تجارب الإنسان وخبراته الحياتية، **وبالتالى يصبح الإنسان هو المُطلق بدلًا من الله ﷻ**.

وينظر العلمانيون إلى الإيمان بالدين باعتباره **انتحارًا متواصلًا للعقل البشرى**، وقد فاتهم أن نيتشه كان يشير إلى الإيمان المسيحى، عندما أطلق هذه العبارة.

ويعتبر العلمانيون أن ما يشير إليه المتدينون باعتباره فطرة (الحس الإلهى والدينى والأخلاقى) إنما هى أمور مكتسبة عبر تاريخ البشرية، لتحقيق مصلحة الإنسان.

وفى النهاية، يعتبر العلمانيون أن الإنسان هو الذى ابتدع مفهوم الإله، ليرتكن إليه عند الضرورة، وهذا ما يقصده نيتشه بقوله: **إن الإنسان هو الذى خلق الإله**.

خامسًا: الألوهية والحس الدينى والمنظومة الأخلاقية مدموغة فى جيناتنا ولها مراكزها العصبية فى أمخاخنا

إذا كان علماء النفس يرون أن الإنسان كائن عاطفى بطبعه، ولديه ميل فطرى لتبنى المفاهيم الأخلاقية، وللاستجابة للمشاعر الدينية، فقد ثبت لعلماء البيولوجيا أن **هذه الفطرات مدموغة فى جيناتنا**.

وتؤكد **نظرية المزاجات والأخلاق** Entertainment and character inventory، التى تلقى قبولًا كبيرًا فى أوساط الطب النفسى هذا المعنى. فالنظرية تحدد عددًا من الاستعدادات التى تُوَرَّث من الآباء إلى الأبناء، ومنها **الاستعدادات لتجاوز الذات** Self-Transcendence والذى يشمل **الميول الدينية والروحية** Spiritual.

وبعد طرح النظرية بعشرين عامًا، حدد دين هامر مجموعة من الجينات تجعل الإنسان مستعدًّا لتقبل مفاهيم الألوهية والتدين. وأسماها **جين الألوهية أو جين الإيمان**.

وفى أوائل القرن الحادى والعشرين وصف هوارد جاردنر «الذكاء الروحى ـ الوجودى» كأحد أنواع الذكاء التى يتمتع بها الإنسان.

وقد توصل الباحثون إلى المراكز المخية المسئولة عن مشاعرنا الروحية والدينية. وهى موجودة فى **الجهاز الحوفى المسئول عن الانفعالات والمشاعر**، وفى **القشرة المخية** عند التقاء فصوص المخ: الجدارى والصدغى والخلفى.

وقد أدى هذا الفيض من المعلومات إلى **ظهور علم جديد يبحث فى الأصول المخية والعصبية للتدين، أُطلق عليه اسم Neuro-Theology**.

سادسًا: لم يعد القلب مجرد مضخة للدم
للقلب دور فى وظائف المخ العقلية والشعورية

حتى ربع قرن مضى، كانت علوم التشريح والفسيولوجيا تنظر إلى القلب باعتباره مجرد مضخة للدم، بينما تربط الديانات والحضارات القديمة وموروثات الشعوب بين القلب وبين التفكير والمشاعر.

وقد اهتم بعض العلماء ببحث هذا التعارض، فتوصلوا إلى **عددٍ من المفاهيم التى ستغير من نظرتنا إلى القلب بشكل جذرى**، ومن هذه المفاهيم:

١- **يعمل القلب كمغناطيس قوى ومولد كهربائى فعال**، ويؤثر المجال الكهرومغناطيسى للقلب على نشاط المخ الكهربائى. ويمتد هذا التأثير ليصل إلى **جذع المخ** (مركز التحكم فى الجهاز العصبى اللاإرادى)، **ولوزة المخ** (مركز الوظائف الانفعالية)، **والمهاد** (المحطة

الأولى للأحاسيس) وأخيرًا إلى **القشرة المخية** المسئولة عن نشاطنا الفكرى والشعورى والسلوكى. ومن خلال هذا التواصل **يؤثر القلب على وظائف المخ المختلفة**.

كما أثبتت القياسات الدقيقة، حدوث **تداخلات بين المجالات الكهرومغناطيسية** لقلوب أشخاص تفصل بينهم مسافة تصل إلى ثلاثة أمتار !!

وتحمل هذه الموجات الكهرومغناطيسية الكثير من المعلومات، مثلها مثل موجات التليفونات والراديو والتليفزيون والفضائيات والنت. ويعتقد الباحثون الكهرومغناطيسيون فى حدوث **تبادل للمشاعر بين الأشخاص**، بشكل سلبى أو إيجابى، من خلال تداخل هذه المجالات.

٢- **للقلب مخ صغير!** وهو قادر على تنظيم عمله بمعزل عن تحكم مراكز المخ (الكبير). بل **ويشارك هذا المخ الصغير فى توجيه النشاط الكهربائى لأمخاخنا**.

٣- **يعمل القلب كغدة صماء** تفرز عددًا من الهورمونات التى تشارك فى توجيه عمل المخ (بالإضافة لوظائفها الأخرى)، وأهمها هورمون التعاطف (الأكسيتوسين).

يشير اكتشاف هذه الوظائف إلى أن للقلب دورًا هامًّا فى الشعور وفى التفكير، لكننا **لا نريد أن نقفز إلى استنتاجات نهائية**. وإن كنا على يقين من أن الأبحاث البيولوجية الحديثة **ستكشف النقاب فى المستقبل عن كيف يسلك الإنسان كمنظومة متكاملة من منظومات أصغر (الروح - النفس - العقل - الجسد) تقوم فيها الشفرة الوراثية والمخ، كما يقوم فيها القلب، بدور كبير**.

سابعًا: أيها الإنسان... من أنت؟

لستَ مجردَ مواد كيميائية، ودوائر كهربائية.

عندما تصدى البيولوجيون الماديون لمعضلة «الذات الإنسانية»، استعملوا **المنهج الاختزالى** الذى يُشَرِّح الإنسان إلى أعضاء ثم أنسجة ثم خلايا. ثم إلى جزيئات فذرات فمكونات تحت ذرية، حتى لا يتبقى إلا مجالات الطاقة. لا شك أن ذلك أدى إلى **اختزال الحياة (البيولوجيا) إلى المادة (الفيزياء)**، وقبل هذه المرحلة تكون الذات الإنسانية قد اختفت، فلا يجدون إلا المادة.

وإذا كان البيولوجيون قد توصلوا إلى بنية الدنا DNA وآلية عمله المذهلة، فينبغى أن نعرف أن الدنا ليس هو الحياة. فالدنا ليس سوى الوصفة لما ينبغى أن تكون عليه بنية الإنسان. أما

كيف تُخرِج لنا هذه الوصفة إنسانًا من لحم ودم، وهو ما يُعرف بالتشكيل **Morphogenesis**، فلا ندرى.

وإذا كانت النبضات الكهروكيميائية للمخ هى آلية عمل المخ المادى، فإن ما نحسه من مشاعر، وكيف نفكر فى المفاهيم المجردة (كالحرية وإنكار الذات) لا تستطيع هذه النبضات أن تفسره. ومن ثم، فالصواب أن ننظر للإنسان باعتبار أن **له ذاتًا غير مادية، تمارس النشاطات العقلية المختلفة وتستعمل المخ كآلة لها**.

وقد اهتمت الأبحاث العلمية والفكر الفلسفى فى السنوات الأخيرة بالبحث عن الذات الإنسانية التى توجه نشاطات المخ العقلية والشعورية والدينية، وتبحث كذلك عن **أدلة بقاء هذه الذات بعد موت الجسم (الروح فى المنظور الدينى)**.

يبدو أننا قد وصلنا إلى مفترق طرق، وأصبح علينا إما أن نقر بأن الذات الإنسانية يستحيل اختزالها إلى الكيمياء والفيزياء، ومن ثَمَّ **نطرق أبواب المعارف الدينية**، التى تحل لنا هذا اللغز، وإما أن **ينقلب العلم إلى وسيلة لإثبات أفكار مادية مسبقة**، بدلًا من أن يصبح هدفه هو البحث عن الحقيقة.

ثامنًا: العلم مطية الملحدين ومحط اتهام المتشددين

تبلور فى الفكر الإنسانى اتجاهان متضادان تجاه ما يتكشف للعلم من مفاهيم. **اتجاه إلحادى اتخذ من العلم مطية يؤكد بها مفاهيمه، واتجاه متدين يرى أن الذات الإنسانية وجود غيبى لا يتواصل مع الوجود المادى للجسد**. ويرى هذا الاتجاه أن الربط بين الجينات والمخ والقلب وبين المشاعر الدينية والروحية يُعطى للملحدين الحجة لإنكار المنظور الغيبى للذات الإنسانية (الروح).

ولا شك أنه ينبغى وضع كل من الماديات والغيبيات فى موضعها، **ثم الربط بين الاثنين، ليس من باب التوفيق والتلفيق ولكن من باب الإقرار بالحقيقة**.

العلم المطية...

استغل الملاحدة الاكتشافات العلمية فى مجال الكون والحياة لادعاء عدم الحاجة إلى الإله، سواء فى نشأة هذه الظواهر أو فى استمرارها.

وتدور ردود «رحلة عقل» على حجج الملحدين حول أن العلم لا يُنْتَظر أن يتوصل لتفسير مادى للمُعضلات التى يطرحها الفلاسفة والعلماء المؤمنون (كخلق الكون من عدم، ومصدر الانتظام الدقيق للقوانين الفيزيائية، ونشأة الحياة فى المادة، وما يتمتع به العقل البشرى من قدرات مبهرة). لذلك فإن **قولنا بالإله الحكيم الخالق لا يرجع إلى جهل علمى سوف يزول فيما بعد، ولكن يرجع إلى عجز نهائى تام أثبته العلماء الماديون**، بل وطالب المنصفون منهم بأن تُتْرك هذه القضايا لأصحابها، الدين والفلسفة.

العلم فى قفص الاتهام...

وقد دارت ردود رحلة عقل على المتدينين والمتشددين المتهِمين للعلم، حول هذه النقاط:

١- **إن العلاقة السببية بين الذات الإنسانية (الروح / النفس / العقل) والجسد ثابتة دينيًّا**، بإثبات القرآن الكريم: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء: ١٠٧]، ﴿تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾ [المائدة: ٨٣].

كذلك ثبت علميًّا (كما يلاحظ كل منا إذا تأمل المحيطين به) أن العوامل الوراثية تؤثر فى توجهاتنا الدينية والأخلاقية.

٢- إن العلاقة بين الذات الإنسانية والجسد تتجاوز أنه دابة الروح، أو أنه شىء منتَقَص لا يحقق الإنسان العروج الروحى إلا بإذلاله أو تجاوزه. **فالله ﷻ يتعامل مع الإنسان كوجود واحد متكامل**. فالإشهاد، والتكليف، والأمر والنهى، والحشر، والحساب، ثم الحياة الأبدية فى الجنة أو فى النار، جميعها موجه لكل من الروح والجسد، ويتحمل كل منهما عواقب وتبعات ما يفعل المُكَوِّن الآخر.

لذلك ينبغى أن نعيد صياغة نظرتنا للإنسان باعتباره كلًّا متكاملًا، عندها سنكون قادرين على تصور التواصل بين بيولوجيا الجسد وبين الروحانيات والشعوريات والسلوكيات، فى سهولة ويسر.

٣- **إن مكمن داء أمتنا، هو إهمال الربط بين الأسباب والنتائج بحجة أن الله فعال لما يرد،** حتى أصر الكثيرون على الفصل بين الأسباب والنتائج كشرط لصحة العقيدة! وقد انعكس هذا الأمر على حياتنا كلها، ومنها القضية التى نتدارسها.

٤- **ينبغى أن نفرق فى التفكير العلمى بين المعلومة العلمية وبين تأويلها.** فإذا كان الملاحدة يَسْتَدِلُّون من وجود خلفية بيولوجية للمشاعر على مادية الإنسان وخطأ المفاهيم الدينية، فإن المعلومة نفسها (الخلفية البيولوجية للمشاعر) يُستدل منها على أن الفطرة الدينية والأخلاقية، التى يقول بها المتدينون، مدموغة فى جيناتنا ومبرمجة فى أدمغتنا.

٥- على المهتمين بالعلم والفلسفة أن يتحملوا مسئولياتهم فى «تجديد الخطاب الدينى» بعد أن أدى التناول السيئ والعرض السطحى للفكر الدينى إلى عزوف الكثيرين من المسلمين وغير المسلمين عن الدين.

٦- لقد أصبح العالم يموج، خلال العقود الثلاثة الأخيرة، بالاهتمام بالعلاقة بين البيولوجيا والتدين، **وهذه فرصة ذهبية لمواجهة الإلحاد.** ولا يتم ذلك بالتنكر للعلم وإنجازاته، بل نؤكد أن العلم قد صار باب العقيدة الصحيحة الواسع للبشرية جمعاء فى هذه المرحلة: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت:٥٣].

تاسعًا: خُلِقَ الإنسان لغاية

المصدر.. المسار.. المنتهى

يتفرد الإسلام عن باقى أديان التوحيد والديانات الأخرى بالاهتمام بتفاصيل قضية الوجود الإنسانى: المصدر - المسار - المنتهى. واهتمام الإسلام بهذه القضية، يؤكد أنه الدين الحق؛ إذ إن غاية الغايات من الدين أن يوضح مراد الله ﷻ من مخلوقاته.

ونؤكد أن رحلة الإنسان فى الوجود (المشهود والغيبى) كما يعرضها الإسلام تثبت فى جميع مراحلها أمام التمحيص العقلى، ومن ثم فهى بمثابة الحقيقة العلمية المطلقة.

ويقوم المنهج الذى حدده الإسلام للإنسان ليتواصل مع الله ﷻ (وهو غاية الوجود الإنسانى) على المفاهيم التالية:

١- أن **فطرة الإنسان الدينية** تشعره بوجود الله ﷻ، وتدفعه للتواصل معه. ثم يأتى الدين الحق ليخاطب عقل الإنسان ليستكمل طريق الإيمان، «نور على نور».

٢- **العقل وحده** (دون هداية الله، متمثلة فى المنهج الصحيح) **يصل بالإنسان إلى الشرك** (القول بآلهة أخرى).

٣- لما كانت الحواس المادية (السمع - البصر - اللمس...) عاجزة عن إدراك الله ﷻ، فإن ذلك **يتم من خلال التفكر فى آيات الله**، فى:

كتاب الله المقروء: القرآن الكريم.

كتاب الله المنظور: الآفاق والنفس.

لذلك جمع القرآن الكريم منهج الوصول إلى الله فى ثلاث كلمات:

«الفطرة - العقل - الوحى»

عاشرًا: يلتقى ما يدركه العقل السليم مع منهج الإسلام عند نقاط واحدة

يعرض ابن طفيل (الفيلسوف الأندلسى فى القرن الثانى عشر الميلادى) فى قصة «حى ابن يقظان» كيف **تمكن العقل الفلسفى المسلم من التوصل إلى وجود الإله الخالق، وإلى بعض صفاته**. وزاد على ما توصل إليه أنتونى فلو، بأن **حدد من خلال العقل كيف تكون العلاقة بين الله وبين الإنسان**.

كما أكد ابن طفيل على أن ما يعرضه **منهج الإسلام**، وما يدركه **العقل السليم** (بدون وحى سماوى) من مفاهيم الحق والخير والجمال، **يلتقيان عند نقطة واحدة بلا خلاف**.

القارئ الكريم...

لعلك أدركت وقد وصلت إلى خاتمة الحصاد والكتاب، أن «رحلة عقل» **تخاطب أحد خمسة عقول**، لا شك أنك تمتلك أحدها:

١- متدين يريد أن **يرقى بإيمانه**، من إيمان الميلاد إلى إيمان اليقين، حتى يمتلئ القلب بالشعور بأن الله حق:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣].

وقد يقترب الإنسان من مقام الخشية:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

٢- متدين غابت عنه حقيقة الإنسان، كموجود متكامل من جسد وذات غير مادية (روح / نفس / عقل). ومن ثَمَّ نظر إلى الجسد نظرة متدنية عوراء، لا ترى فى الإنسان (كموجود حقيقى) إلا الذات غير المادية.

٣- متدين يرى أن فهمه للدين الذى تربى عليه «تمام التمام»! **فلم يُنزل العقل والعلم منزلتهما** فى منظومة الإيمان. فغاب عنه الكثير، بل غاب عنه أكثر مما حَصَّل. وربما وصل به الأمر إلى أن يصبح أحد أفراد المجموعة التالية.

٤- متدين **يبهره ما يردده الملاحدة** من (كلام كبير) حول مساهمة العلم فى تأكيد المفاهيم الإلحادية، حتى قالوا: «إن الإله وهم كبير، وإن الدين أفيون الشعوب»؛ فيغمره شعور خفى بالنقص لانتمائه لهذه الطائفة المتخلفة (المتدينين)، بدلًا من أن يغمره الشعور بالزهو.

٥- **ملحد، اتَّشَحَ بالعلم، عن كِبر أو عن جهل**، ورأى فيه برهان الإلحاد، بدلًا من أن يرى فيه أدلة الإيمان، فَتَوجَّب أن نوضح له الحقيقة حتى ننقذه من نفسه.

أتمنى أن تكون قارئى الكريم قد وجدت فى «رحلة عقل» أنتونى فلو، وفى رحلتى، ما يُعينك فى رحلة العقل الخاصة بك...

وأخيرًا، أؤكد لك عن يقين وتجربة:

أن الفلسفة بحر ليس ككل البحار. تجد الهلاك فى شطآنه، وتجد الأمان فى أعماقه.

هل وصلنا إلى نهاية رحلة عقل؟

لقد كانت كلمة سحرية، قيلت لى من حكيم أثناء إبحارى فى «رحلة عقل». قال: عندما تتأمل الوجود من حولك، انظر إليه **كأنك تراه لأول مرة**. إن الاعتياد على الأشياء التى حولنا يمثل حجابًا بيننا وبين حقيقتها، يسمونه «**حجاب الاعتياد**».

التزمتُ النصيحة، عندها أحسست أننى أحيا فى عالم آخر. أصبح كل شىء حولى جديدًا كل الجِدَّة، فغمر عقلى طوفان من التساؤلات التى تتجدد كل لحظة. عندها تذكرت مقولة أرسطو: «**بالدهشة تبدأ الفلسفة**».

وإذا كانت رحلة عقل حققت لى اليقين المعرفى فى القضايا التى طرحناها فى فصول الكتاب، فإنها قد فجرت فى داخلى بركان النهم إلى المعرفة، الذى أشار إليه رسول الله ﷺ حين قال: «**نَهِمَان لا يشبعان: طالبُ علم وطالبُ مال**».

لقد أسلمتنى نظرة الدهشة الطفولية إلى مُعضِلات تفوق بكثير ما أجابت عنه، فتذوقتُ «**حيرة اليقين!!**» التى عَبَّر عنها الصديق أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بدعائه: «**اللهم زدنى فيك تحيرًا**»!!

ولتوضيح ذلك، أطرح مثالًا مفصلًا بعض الشىء:

كنت أقرأ فى القرآن الكريم عن النعم التى يمن بها الخالق الحكيم على الإنسان، ومنها «**نعمة الإبصار**». وعندما تبنيت «**النظرة الجديدة**» هالنى ما كشفه العلم الحديث عن هذه الحاسة:

تبلغ مساحة **شبكية العين** سنتيمترًا واحدًا، ويبلغ سمكها نصف المليمتر. وتحتوى هذه الغلالة الرقيقة الصغيرة على مائة مليون خلية عصبية تتراص فى خمس طبقات!. وعندما يسقط

على الشبكية فوتون واحد من الضوء، تبدأ **سلسلة من التفاعلات** التى تشمل مائة ألف جزىء كيميائى!

ويؤدى ذلك إلى أن تتكون على الشبكية كل ثانية **عشر صور**، تتكون كل منها من مليون نقطة. وإذا قارنا ذلك بعين إليكترونية نجد أن على الكمبيوتر المتحكم فيها أن يجرى مليار عملية فى الثانية ليصل إلى نتيجة مقارِبة.

كيف أدرَكَتِ العين الصفات الفيزيائية للضوء حتى تُشكل صفاتها البيولوجية من أجل أن تتكامل وتتناغم معها؟ كيف وُجد هذا **التوافق بين الفوتون والخلية العصبية**؟ لماذا لا يستطيع جسم الإنسان أن يدرك من الموجات الكهرومغناطيسية (على تباينها الشديد) إلا الضوء، وبشرط أن يكون ذا أطوال موجات محددة وهى ألوان الطيف؟

لقد ظهرت العين كاملة البناء مع الانفجار الكمبرى الأحيائى الأعظم، منذ قرابة خمسمائة مليون عام. وقد ثبت أن وراءها **جينًا واحدًا** (يُعرف باسم Pax-6) فى جميع الفقاريات باختلاف طوائفها. إن ذلك يعنى أن العين لم تنشأ بالتطور العشوائى، كما يُرَوِّج الدراونة، **ولا بد لها من المصمم الذكى**.

وعندما استوعبت ذلك اعترت جسدى رعشة، زادها أننى أدركت أن **الرؤية شىء والإبصار شىء آخر**. فبالرغم من أن الرؤية عملية فيزيائية هائلة التعقيد، إلا أن الإبصار (وهو أن ندرك معنى ما نرى) شىء من عالم آخر، غير عالم المادة وقوانينها الطبيعية.

وقد طرح هذا التفكير على عقلى تداعيات من تساؤلات أخرى؛ مثل **كيف نرى أحلامَنا**، وماذا تعنى، وكيف يرى الشخص الذى وُلد ضريرًا أحلامه. وما الفرق فى **آليات الإبصار الكهروكيميائية** فى المخ بين ما نبصره فى واقعنا، وما نبصره فى أحلامنا، والهلاوس البصرية عند مرضى الانفصام؟ وغير ذلك وغيره من التساؤلات!

وإذا كنت قد طرحت (كمثال) بعضًا من أسرار المعرفة التى جَلَّتها لى النظرة الجديدة إلى الإبصار، بعد أن أسقطتُ حجاب الاعتياد، فإن كل **دقيقة من دقائق الخلق حولنا تحمل أسرارًا مشابهة**. ويمكنك أن تتأمل:

أن كل نبتة من **حشائش المروج الخضراء** تفوق أذكى أجهزة الكمبيوتر فى تعاملها مع النظم التى حولها: الجاذبية وأشعة الشمس والماء والهواء...!

أن **الأزهار** التى نستمتع بألوانها وروائحها تنتج لنا معظم غذائنا النباتى!

أن **ذبابة الفاكهة** تتغلب على المشاكل التى تواجه مهندسى الطيران عند التحليق فى الفضاء بأن تضرب بجناحيها فى الهواء بمعدل مائتى مرة فى الثانية الواحدة!

لا توجد بين **بللورات الثلج** سداسية الأضلاع بللورتان متطابقتان، تمامًا كبصمة الأصابع!

أفهم أن **تُعجَب إناث الطيور بتغريد ذكورها**، لكن لماذا نُعجب نحن البشر بهذه النغمات، التى لا تعدو إلا أن تكون اهتزازات فى الهواء؟!

لماذا نشأت **الكائنات عديدة الخلايا**، بالرغم من أن الكائنات وحيدة الخلايا قد تكون أكفأ من الناحية البيولوجية؟!

لماذا وكيف نشأ **التكاثر الجنسى** بالرغم من أن التكاثر اللاجنسى كان يكفل للكائنات الحية خلودًا لا يوقفه هِرَمٌ ولا موت؟!

وأقف فى ختام هذه الأمثلة مع **الخلية الحية**، التى تنتج ألفى جزىء من البروتينات فى الثانية الواحدة. أتعلم أن هذه العملية تتطلب من أعلى الكمبيوترات كفاءة فترة مليارات المليارات من السنين (حوالى $١٠^{١٢٧}$ سنة) من أجل أن تحاكيها نظريًّا!

هذه بضعة أمثلة من مئات بل آلاف غيرها.

لقد جعلنى التأمل فى هذه الأمور **أتيقن أن «رحلة عقل» لم تنته، ولن تنتهى**.

إن إعمال العقل فيما حولنا يصبح **كإدمان المدمن، كلما تعاطاه ازداد شرهه إليه**.

وكلما أزالت النظرة الجديدة حجاب الاعتياد **انبعث من الوجود ضوء اليقين المبهر المحير!**

وأختم بما سبق أن ذكرته، من أن الإنسان لا ينبغى أن يتبنى ما قاله أحدهم:

I made up my mind, don't bother me with facts

لقد حَسَمْتُ قناعاتى ولملمتُ أوراقى، فلا تزعجنى بحقائق جديدة

* * *